أرسُولٌ ويغزو؟!

أ د. عقيل حسين عقيل

طرابلس **2024**م

جدول المحتويات

المقدِّمةُ 5

أرسولٌ ويغزو؟........................ 9

الغزوةُ: 11

قطعُ الطُّرقِ صفةً: 21

الجهادُ:........................ 25

الفتحُ: 28

الجزيةُ: 32

الغزوُ في زمنِ الرَّسُول (أسلِم تسْلَمْ): 45

القتل:........................ 57

وللتمييز بين الغزوةِ والمعركةِ، نقول:........................ 63

القتلُ قتلان:........................ 64

غزواتُ رَسُولِ الله........................ 75

غزوة ودَّان: 75

غزوة بواط: 77

غزوة العشيرة:........................ 77

غزوةُ بدر الكبرى: 79

غزوةُ ذي أَمَرّ: 85

غزوة بحران:... 87

غزوةُ أُحد: 88

غزوةُ حمراءَ الأسد:.................................... 96

غزوةُ الخندق: 97

فتح مكَّة (غزوة السَّلام): 100

غزوةُ حُنين:....................................... 118

غزوةُ تبوك (غزوة العُسرة):........................... 121

غزوُ المغزو وغزواته: 123

غزو الأراضي: 123

غزو الاسترداد:..................................... 123

غزو العقول:....................................... 124

غزو الأميَّة:....................................... 124

الأميَّةُ تغزو الأمَّة: 128

محمَّدٌ وغزوُ الأميَّةِ:.................................. 138

مُحمَّدٌ تغزوه الدِّرايةُ: 153

الدِّرايةُ تغزو الأميَّة: 154

الدِّرايةُ تغزو الكُفر: 163

أرسولُ الكَّافَّة ويغزو الكَّافَّة؟! 189

مُحمَّدٌ تغزوهُ الهداية: 194

الأسوةُ تغزو مُحمَّد وبها يغزو: 198

الإيمانُ يغزو مُحمَّدًا وبه يغزو: 202

مُحمَّدٌ تغزوه الحكمة وبها يغزو: 209

الغزوُ حِكمٌ ومواعظ 216

المؤلِّفُ في سطورٍ 231

صدر للمؤلّف.. 233

المؤلَّفاتُ المنشورة 235

المقدِّمةُ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

افتتح مقدِّمة مؤلَّفي (أرسُولٌ ويغزو)، الذي أقدِّمه للقراء والنقَّاد الكرام؛ ليكون بين أيديهم قراءةً ونقدًا بناءً يُمكِّن من الأخذ بما جاء فيه، أو تصويب ما ورد، أو أنْ يضاف إليه الكثير أو القليل؛ إذ لا كمال إلَّا لله تعالى.

وقد أُسِّستْ فكرة هذا المؤلَّف على استفسار استغرابي طرحه أخي الدكتور أبو القاسم حسين عقيل الأستاذ في العلوم الاقتصاديَّة، الذي جاءني وأنا في ساعة البحث العلمي متسائلًا بقوله: أيُعقل أنْ يكون رسول الله غازيًا؟!

بعد صمتٍ قليل قلت: لا يُمكن أن يكون رسول الله غازيًا. ومن هذا المنطلق بدأنا نحن الاثنين ننتقد كلَّ من قال إنَّ رسول الله كان غازيًا. ولأمرُ بالنّسبةِ إليَّ أصبح محيّرًا فبدأتُ بالقراءةِ وفقًا للفرضيَّة التساؤليَّة (أيُعقل أنْ يُبعث رسول الله ليكون غازيًا؟)

ومع أنَّ صوغ الفرضيَّة لا يكون إلَّا من الباحث، فإنَّ الفرضيَّة بعد صوغها تُسيطر على عقلِ الباحث وتوجهه بحثًا، بدأتْ القراءةُ منطلقة من معرفة اللغة لتحديد معنى الغزو، ثم بدأتْ القراءة تتسّع مع قراءة ما كُتب عن هذا الموضوع، غير أنَّ الإلمام بالمفاهيم وفلسفتها كان الغربال الذي به تُغربل الكلمات والجمل.

بعد تعمُّق جميل استنار العقل بِحُججٍ دامغة أنَّ الرَّسُولَ يغزو؛ ومن ثمَّ بدأت المعلومة الصَّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة، وبدأت المعلومات الخاطئة تستسلم أمام المواجهة الدَّامغة للمعلومات الصَّائبة، حتى تمَّ استكمال مؤلَّفنا بحثًا موضوعيًّا كما هو على هذه الهيئةِ والمضمون والمحتوى.

وفي هذا المؤلَّف يجد القارئ المتفحّص منهجًا تحليليًّا ييسِّر له التبيُّن الممكِّن مِنَ المعرفة الواعية؛ وذلك مِنْ خلال ما يقدِّمهُ مِن حُجُجٍ ووفقًا للغة والمفهوم والدّلالة والمعنى.

ولذا فقد تمَّ التمييز بين الغزو، وغزو الغزاة، وكذلك بين الغزو المادِّي (أموال وممتلكات وأراضٍ)، والغزو العقلي (فكرًا ومعتقدًا وثقافةً)؛ فكانت الدّلائل شواهدَ مِن أجل كرامة الإنسان، واحترام دينه ومعتقده، الذي يستوجب فتح أبواب الاتصال، ومن هنا كان الشِّعار الرَّئيس لرسالة النَّبيّ محمَّد (أسلم تسلم).

رسالةٌ وشعارها (**أسلِم تسلَم**) لا يُمكن أن يكون نبيُّها غازيًا من أجل السّلب والنّهب، أو أنْ يكون قاطعًا لطريقٍ بغايةٍ أخذ الأموال من العابرينَ، أو أخذ شيء مما يمتلكون.

ومع ذلك أقول: كان للرَّسول محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام غزوات وكلَّها ــدون أيِّ استثناءــ لم تكن إلَّا لغزو من جاءه غازيًا، أو لغزو من غزى تلك الأموال والممتلكات التي تركها المسلمون في مكَّة، من هنا بدأ الرَّسُول والذين معه يعدُّون العدّة الغازية؛ وذلك بغاية استرداد ما نُهب من ممتلكاتهم، كما هو حال كفَّار قريش الذين استولوا على ممتلكات المهاجرين في مكَّة

بعد أن تركوها فارِّين بأنفسهم، ومن أجل دينهم؛ فاستولى كفَّار قريش عليها وحمَّلوها قوافل على ظهور الإبل، واتجهوا بها إلى الشَّام، فعندما عَلِمَ الرَّسُول والذين معه أنَّ قريشًا تتاجر بأموالهم وممتلكاتهم التي تركوها؛ قرّروا اعتراض تلك القوافل المحمَّلة بالمسلوب والمنهوب والمستولى عليه بغير حقّ، فكانت هذه الغزوة الأولى التي تلتها غزوات من أجل استراد ما تمَّ الاستيلاء عليه من قِبل كفَّار قريش لممتلكات المسلمين، أمَّا بقيَّة الغزوات فكانت كلَّها لمباغتة من يعد العدّة لغزو المسلمين في المدينة أو مكَّة بعد الفتح الذي يسّره الله لنبيِّهِ محمَّد والذين معه.

وقد تم استعراض الغزوات الرَّئيسة التي قادها النَّبيّ وخاضها معه المسلمين، ومراعاة ترتيبها الزَّمني، وتبيان الأسباب والعلل، وكذلك النتائج والدّروس المستفادة، والالتفات إلى ما يُمكن أخذه من المواعظ والحكم والعبر.

هذا المجهود البحثي لم يتناول غزوات الرَّسُول بكل متغيراتها، بل تناولها فقط وفقًا للمتغيرات الخاصَّة با العنوان التساؤلي:

أرسُول ويغزو؟!

ومن هنا جاءت نتائج البحث في هذا المؤلَّف الذي أخذ عنوان التساؤل (عنوانًا له)، أنَّ الرَّسول على الرُّغم من المواجهات العنيفة التي واجهته في تلك المعارك، فإنَّه لم يخسر معركةً واحدة، بل انتصر في كلِّ الغزوات والمعارك التي كُتِبتْ عليه في أثناء غزواته.

وما يلاحظ أنَّ بعض التواريخ لا يوجد اتفاق عليها من قبل الباحثين الذين سبقونا بحثًا في هذا الشَّأن، ولهذا استوجبت إشاراتنا إليها بقولنا (تقريبًا).

وما يلاحظ أيضًا أنَّ الذين سبقونا بحثًا في هذا المجال يميلون إلى التفسير ولا يأخذون بالتحليل العلمي وقواعده الموضوعيَّة التي تقيّد المتغيرات وبها تتقيد التزامًا علميًّا، سواء أكانت متغيرات تابعة ومستقلة أم إنَّها متغيرات دخيلة ومتداخلة.

أ د. عقيل حسين عقيل

أستاذ التنميّة البشريَّة والخدمة الاجتماعيَّة

جامعة طرابلس كلية الآداب

2024م

أرسولٌ ويغزو؟

لفكِّ هذا العنوان المشفَّر لمؤلَّفنا (أرسولٌ ويغزو) علينا أنْ نتعرَّف على مفهوم الغزو وصفاته الغازية: فهل الغزو هو الإتيان بشيءٍ يُراد توصيله إلى الغير رغبةً وإرادة؟ أم إنَّه غزوٌ لفكِّ شيء مِنَ الغيرِ كرهًا وإرغامًا؟

ومن هنا علينا أن نميِّز بين الغزو بماذا، والغزو لماذا؟ وهل الغزو متَّجهٌ إلى عدوٍّ، أم أنَّه متَّجهٌ إلى الذي لا يُصنِّفك عدوًّا؟ وهل الغزو قاصدًا عقول النَّاس وقلوبهم، أم إنَّه قاصدٌ لأموالهم وأرزاقهم وممتلكاتهم ورقابهم؟ وهل الغزو جاء بغرض الأخذ، أم جاء بغرض العطاء؟ وهل غاية الغزو الذي جاء به النَّبيّ محمَّد والذين معه الاتساع الجغرافي، أم أنَّ الغاية هي الاتساع الإيماني؟ وهل النَّبيّ محمَّدًا أُرسل إلى الكافَّة غازيًا ليغزوا ما عندها، أم أرسل إليها غازيًا بالهداية؟ وهل القتال الذي كُتب على محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام هو لمقاتلة الكافَّة، أم إنَّ محمَّدًا يقاتل من يَحُولَ بينه وبين الكافَّة؟

وبما أنَّ رسالة محمَّدٍ هي الإسلام (أسلم تسلم)؛ إذن فلا إمكانيَّة له عليه الصَّلاة والسَّلام إلَّا أن يكون هاديًا مسلمًا، ومن هنا فلا مغزى لغزوات محمَّد إلَّا السَّلام؛ الذي به تستنير العقول، وتؤمن القلوب، وتطمئن الأنفس وتأمن.

إنَّ المواجهات الغازية التي قادها النَّبيّ محمَّد لقد دارت رحاها بينه ومن حاول أن يحول بينه وتبليغ الكافَّة برسالتهم الخاتمة (إنَّهم قطَّاع الطُّرق من قريش)؛ ومن ثمَّ فهل الذي يغزو قُطَّاع الطُّرق يعدُّ قاطع طريقٍ، أمَّ إنَّه فاتحٌ

لها؟ وهل الذي يغزو من يغزو النَّاس بغير حقٍّ يتطابق مفهوم غزوه مع مفهوم غزوهم ويتصف بصفاتهم أم إنَّ الأمر غير ذلك؟

ولأنَّ الدِّين الذي أُرسل به محمَّدٌ جاء لتوحيد الله وحده لا شريك له، فهل يُمكن لمحمَّد أن يدعو إلى ولاءٍ لغير الله؟ أي هل الذي لا يرى ولاء لغير الله يُمكن أن يكون غازيًا في سبيل غيره؟ ولذا فمن يغزو في سبيل الله لا يمكن أن يكون قاطعًا لطريقٍ ما لم يكن ولاء أهل هذا الطريق لغير الله؛ أي لو لم يكن ولاء أهلها للمفسدين في الأرض ما أعدَّ محمَّد غزوةً لتحول بينهم والفساد فيها.

ولذا فلا يمكن لرسولٍ بُعث للكافَّةِ رحمةً أن يكون قاطعًا لِطُرقٍ بها يتواصلون؛ ومن هنا يعد محمَّدٌ قاطعًا لطُرق قُطَّاع الطُّرق فاتحًا لها، وخير مثال لتفسير ذلك وتوضيحه ما نستمدَّه مِن صِفات الله الحسنى، (الله المكيد، الله خير الماكرين، الله المنتقم، الله الشَّديد)، أي لو لم يكن الله مكيدًا لنجحت مكائد البعض ضد البعض ألما، ولهذا فكيد الله يكيد كيد الكائدين فيبطله فيصبح كيده رحمة، وهكذا خير الماكرين يمكر بمكر الماكرين فيبطله حتى يصبح خير مكره خير رحمة، وبالتمام ما يعمله البعض ضدّ البعض انتقامًا يبطله المنتقم العظيم فيصبح انتقامه من انتقامهم رحمة، وأيضًا من يريد أن يُنزل بالبعض شدّة فالشَّديد يبطلها فتصبح شدَّته رحمة؛ ومن هنا فإنَّ غزو الرَّسُول لقطَّاع الطُّرق بينه والكافَّة يفتح الطُّرق بينهم رحمة.

وعليه: فإنَّ القاعدة الأخلاقيَّة تقول: إنَّ قَطعَ الطُّرق أمام قُطَّاعها الغازين للنَّاس لا يعدُّ إلّا رحمةً وهذه من أعمال الرَّسُول، وفي المقابل فتح

الطُّرق أمامهم لا يعدُّ إلّا مظلمة؛ وهكذا بالتمام تصبح القاعدة المنطقيَّة: من يغزو النَّاس إكراهًا وظُلمًا ثمَّ يواجهه غازيًا ليغزوه عدلًا كَسِبَ خيرًا وكَسَبتَ النَّاس.

إذن فلا إمكانيَّة للقول: إنَّ محمَّدًا كان غازيًا كغيره من الغازين، بل كان محمَّدٌ غازيًا لمن يقطعون الطُّرق ويحولون بينه والكافَّة، التي بُعث إليها رسولًا داعيًا وهاديًا ومنذرًا ومبشرًا بالتي هي أحسن وأقوم.

ومع ذلك فإنَّ كثيرًا مِنَ الكُتبِ التَّاريخيَّة والتفسيريَّة وصفت تلك المعارك الجهاديَّة والتبشيريَّة لرسول الله والذين معه بأنَّها غزوات مقاتلة وقطع طرق، وكأنَّ رسول الله والذين معه غزاة وقطَّاع طرق.

ومن هنا كان لزامًا علينا أن نميِّزَ بين المفهوم الموضوعي لكلٍّ من الغزوةِ والغزاةِ، وكذلك الطُّرق وأسباب قطعها عِللًا.

الغزوةُ:

الغزوةُ لا توصف بكونها غزوةً إلَّا بمغزاها الذي تَرمي إليه حِكمةً تَكشفُ عن ذلك المخفي الذي يكمن في بواطنها سرًّا وحُجَّةً ومدلولًا ومفهومًا.

ومن هنا جاء مفهومُ الغزوةِ ملتصقًا بما قام به الرَّسُول محمَّدٌ والذين معه في أثناء التحدِّيات والمواجهات مع أولئك الكافرين من قريش، فكانت المواجهات تجري بينهم سجالًا، ولكلٍّ مغزاه؛ فالنَّبيّ محمَّدٌ والذين معه لا مغزى لهم إلَّا إحقاقُ حقٍّ وإزهاق باطل، وفي المقابل كفَّار قريش لا مغزى

لهم إلَّا وأن يسود الباطل على حِسابِ سيادة الحقّ، ومهما تعدّدت الأسباب والعلل للغزوات المحمَّديَّة فلا سبب ولا علَّة أعظم من وجوب المواجهة بين أهل الحقِ وأهل الباطلِ.

ومن المفاهيم العظيمة لغزوات الرَّسُول الكريم: لا تكون إلَّا والنِّعم والمكاسب والانتصارات من خلفها تأتي هدايةً وسلامًا، أو نصرًا وغنيمة، أو موتًا من بعده جنَّةً.

ولسائل أنْ يسأل:

هل مفهوم الغزوةِ يستمدُّ من أسبابها أم من نتائجها؟

أسباب الغزوة لا تجيب إلَّا عن أداة الاستفهام (لماذا)، أي لماذا كانت الغزوة؟ أو لماذا الرَّسُول يغزو؟

أمَّا نتائج الغزوة فهي التي تجيب عن أداة الاستفهام (كيف) كيف كانت الغزوة؟ أو كيف كانت غزوات الرَّسُول؟ وهنا يحدث الوصف الذي يجيب على ماهيَّة الغزوة؛ ومن خلال الوصف لأحداثها ومحطَّاتها وما جرى فيها يبلغ المفهوم مداه إدراكًا.

وبما أنَّهُ لا غزوة إلَّا بأسبابٍ وعللٍ، إذن فلا صفة مكتملة للغزوة إلَّا بأسبابها وعللها، وكيفيَّة إدارتها، وكيفيَّة خوضها، حتى حقَّقت نتائجها وانتهت.

أمَّا مفهوم الغزاة ففيه من الأوجه ما فيه: فمن غزا من أجل كلمة حقّ ينبغي أن تُقال وتُحقَّ في مرضاة الله فإنَّ خير غزوته يكمن في مغزاها خيرًا، وهكذا فمن غزا قاطع طريق فلا مكمن لشرِّ غزوته إلَّا وفي مغزاها شرًّا.

ويتضح الفارق المفهومي بين من غزا هاديًا ومُبشّرًا بواحديَّة الله ومصلحًا في الأرض، ومن غزاها كافرًا أو مشركًا ومفسدًا فيها؛ أي الفرق كبير بين من غزاها هاديًا (قيمة وفضيلة)، ومن غزاها محتلًّا ومستغلًّا لثرواتها وناهبًا لها ومستعمرًا لمواطنيها.

ومن هنا فلا يمكن أن يستوي مغزى مَنْ يَرشُدك هاديًا، ومغزى من يضلّك عن سبيل الهداية والرَّشاد.

ومع أنَّه لا قيمة للشّيء ما لم يكن له مغزى؛ فإنَّه لا قيمة للمغزى إنْ لم يكن في سرِّهِ حكمة؛ وهي التي لا تولد إلَّا عن دراية أو استنارة أو هداية؛ ومن هنا إذا لم يكن الغزاة على الدِّراية والهداية والاستنارة فلا سبيل لهم إلَّا الضَّلال.

وعليه: فعندما يكون الغزاة مغزاهم ضلالًا فلا إمكانيَّة للهدايةِ والرَّشادِ، ولا إمكانيَّة للعدالة والنزاهة، ولا إمكانيَّة لكفّ الأيدي عن ارتكاب المجرّم والمحرَّم؛ ولهذا كانت غزوات الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام على البيّنة والدّراية والهداية؛ حيث لا ضلال ولا ارتكاب لمحرَّمٍ ولا مجرَّمٍ، ولا مكانة أمامه لقاطع طريق ينهب الأموال والمتاع أو يهلك الزَّرع ويظلم.

إذن: فما هو الغزو؟

الغزوُ، هو: التمكّن التَّام من المستهدفِ بغايةِ الانتشارِ؛ فإنْ كان الغزو فكرًا ساد الفكر الغازي على حِساب الفكر المغزو، وإن كان دينًا غازيًا ساد الدِّين الغازي على حساب الفراغ المغزو دينًا؛ ولهذا فالغزو انتشار وتمدّد على حساب انكماش وتقوقع؛ ومن هنا فإنَّ مفهوم الغزو يدلُّ على اتساع دائرة الامتداد من أجل حقّ يحقّ، أو على حساب إحقاقه.

ولأنَّه الغزو فإنَّ فرضيَّته هي: (تحقيق النَّصر)، والغزاة لا خيار لهم إلَّا إثبات صحة فرضيَّتهم النَّصر ولا شيء دونه، ومن هنا يقبلون بدفع الثَّمن في سبيل تحقيق النّصر أو بلوغ المراد؛ ذلك لأنَّهم يقبلون بتحدّي الصِّعاب وهم واثقون بأنَّها لن تصمد أمامهم.

ولأنَّ الغزاة يتحدّون الصِّعاب وهم واثقون بأنَّها لا تصمد فهم إنْ كانوا على حقٍّ ساد الحقُّ، وإن كانوا على باطل سادَ الباطلُ؛ ومع ذلك عندما يتواجَّه غزاة الحقّ مع غزاة الباطل، فإنَّ الباطل يزهق والزَّمن دائمًا عبر التَّاريخ كفيل بذلك.

ولأنَّ الغزو تجاوز للحدود المألوفة سواء أكانت حدودًا جغرافيَّة أم دينيَّة أم فكريَّة؛ فهو الانتشار توسُّعًا سواء أكان دينًا بين النَّاس حتى يغزو عقولهم وقلوبهم ويغزوهم، أم إنَّه كان التَّوسع لاحتلال الأوطان بجيوش المستعمرين حتى يغزوها استعمارًا وتمكنًا من خيراتها.

والغزو ليس كما يظنَّه البعض أنَّه لا شيء من ورائه إلَّا سلب المغزوِّين، ونهب أموالهم وأخذ ما يتيسَّر من ممتلكاتهم، كما هو حال المفسدين في

الأرض وأفعالهم، بل هو إصرار على المواجهة وتحمُّل ما يترتّب عليها مِن عواقب وإنْ كانت جِسامًا؛ ولذلك فالغزو الإسلامي خيرٌ لا يكون إلَّا لإزاحة قطَّاع الطُّرق بغاية إفساحها بين الكافَّة رسالة ورسولًا.

والغزوُ دودٌ عن الدِّيار؛ ذلك لأنَّ الرَّسُول والذين معه لو لم يأتِ إليهم كفَّار قريش غزاة؛ وهم يعبرون أراضي المدينة غير مبالين بأخذِ إذنٍ من الرَّسُول الكريم؛ ما أعدَّ الرَّسُول إليهم العدَّة لملاقاتهم بعيدًّا عن المدينة؛ وذلك بغاية تجنّب المفاجآت إذا ما تمَّ الاعتداء على المسلمين وهم في ديار مدينتهم آمنين، وللعلم إنَّ بدرًا وبئرها جزءان من المدينة، وكذلك خيبر جزءٌ من المدينةِ، وأحدٌ جزءٌ من المدينة، والخندق جزءٌ من المدينة، أي: جميعها من مكوِّنات دولة المدينة؛ ولهذا نقول: الرَّسُول لم يغزُ أحدًا لم يغزُ الدِّيار التي دوائرها تتّسع تسليمًا وإيمانًا بالرِّسالة ورسولها.

ومن المفاهيم الدَّالة على مضمون الغزو مفهوم القصد، فالغزاة عندما يقصدون الدِّيار دون إذنٍ ولا اعتبار لأهلها ألا يحقُّ لأهلها أن ينتبهوا إلى أولئك القاصدين للدِّيار غزاة، ويتوجّهون إليهم غزوة من وراء غزوة.

وعليه فإنَّ غزوات الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام وفقًا لمغزاها الكامن تجري بين من أتى غازيًا معتديًا، ومن واجهه غازيًا لغزواته ورادًّا لها أو قاهرها، فمفهوم الغازي بالتمام كمن يواجهك معتديًا ببندقيّته ليقتلك، ألَا يكون من حقِّك أن تدافع عن نفسك وأن تفكّ بندقيَّته من بين يديه متى ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، أم أنَّك تبقى منتظرًا حتى يتم قتلك ظلمًا وعدوانًا؟

ولذا فَمَن يغزو باسم الدِّين توحيدًا لا بدَّ وأن ينتشر الدّين على يديه رغبة وإرادة، وفي المقابل من يغزو باسم العِرق، أو المعتقد، أو الفلسفة، أو السّيطرة السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والأمنيَّة، أو بغاية الاحتلال الأجنبي فلا بدَّ وأن ينكسر بداية أو نهاية؛ فذلك هو الفرق الكبير بين من يصبح ولاؤه لله تعالى، ومن يصبح ولاؤه لغازٍ أو لخصوصيَّة من الخصوصيَّات التي بالزَّمن لا بدَّ وأن تبيد.

ومن هنا تقول القاعدة المنطقيَّة: رؤوس الكفر وحدهم ينكرون رسول الكافَّة، والكافَّة لا غيرها تُنكر الكفر ورؤوسه.

ولذا فكل من يتمكّن من القوَّة ويغزو بها من يغزو لا بدَّ وأن ينكسر بقوّة المواجهة التي تحدث لا محالة وإنْ انكسرت بدايةً فإنَّها نهايةً لا بدَّ وأن تنتصر وينكسر الغاصبين ويُهزمون، سواء أكانوا حكَّامًا ظلمة أم غزاة مستعمرين.

وعليه: هناك فرق كبير بين القوَّة الغازية للغزاة، والقوَّة التي غايتها خوض معركة من المعارك؛ فالقوَّة الغازية للغزاة إنْ انتصرت في معركة فهي تعرف أنَّ من ورائها معارك أخرى تستوجب الخوض؛ وذلك بغاية غزو المستهدفات كلّها، حتى يعمّ الدّين أو يعمّ الاحتلال ولكلٍّ غرضه، وما الفارق بين الاثنين (الدِّين والاحتلال) إلَّا ديمومة الدِّين توحيدًا، ونهاية الغاصبين والمحتلّين.

أمَّا المعركة فعدَّتها مخصوصة نصرًا أو هزيمةً مع القبول بنتائجها استسلامًا أو إعداد عدّة للمواجهة من جديد، وهي التي عندها تنتهي

المعركة، أمَّا أهل الغزوات المحمَّديَّة فلا يرون تحقيق النّصر إلَّا خطوة على الطَّريق لبلوغ الغزو مداه المرجو والمأمول نيله في مرضاة الله، وليس بغاية بسط السِّيادة احتلالًا وتكبُّرًا وتجبُّرًا وطغيانًا.

إذن: فما هو المغزى من وراء غزوات الرَّسُول؟

المغزى من وراء غزوات الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام: الدعوة إلى ما أمر به ونهى عنه، والدَّعوة إليه وحده لا شريك له؛ وهذا المغزى وحده هو الذي يَنبغي أن يُغزى به دعوة وتبشيرًا؛ فذلك الوحي الذي غزى الله به عقل محمَّد وقلبه استنارةً هو الذي أحدث له نُقلةً من الأميَّة إلى الدِّراية، وهذه المعطية هي مكمن رسالة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وهي الأخذ بأيدي النَّاس كافَّة بما يغزو عقولهم وقلوبهم دراية لا تترك للأميَّة حيِّزًا فيها، وهذه لن تتم ما لم تغزُ المعلومة الصَّائبة المعلومة الباطلة وتحل محلَّها استنارة وعن رغبة وإرادة.

وعليه: فإنَّ لرسالة محمَّد مَغزى، وهو: (الدِّراية والاستنارة)، اللتان يحتاجهما كل النَّاس، ولأنَّ النَّاس في حاجة إليهما جاءت الرّسالة بهما وجعلتهما حقًّا للنَّاس كافَّة.

ولأنَّ الرِّسالة حقٌّ للنَّاس كافَّة فإنَّ رسول الكافَّة ليس له خيارٌ إلَّا بلاغ النَّاس؛ ولذلك فقد أُمر أمرًا مُلزمًا بالتبليغ، إذ لا عذرَ يقبل منه: {يَا أَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}[1]. يفهم من هذه الآية الكريمة أمران:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ الرَّسُول مُبلّغ بالرِّسالة.

الأمرُ الثَّاني: أنَّ الرَّسُول مأمور ببلاغ النَّاس بها، ولا خيار له في ذلك.

ويفهم من الأمرين: أنَّ رسالة محمَّدٍ ليست من محمَّدٍ، رسالةُ محمَّد رسالة من الله إلى الكافَّة، وما محمَّد إلَّا مبلّغ وبشيرٌ ونذيرٌ؛ ومن ثمَّ فلا خيار له إلَّا الدَّعوة والتبشير والهداية والإرشاد والإنذار ترغيبًا وترهيبًا ولا إكراه.

وفي حقيقة الأمر أنَّ محمَّدًا ليس بغازٍ، ولكن الذين حالوا بينه والكافَّة، وحاربوه واعتدوا عليه، ولاحقوه في مهجره قطَّاع طرق، فرضوا عليه المواجهات التي ظنوا أنَّها الكفيلة بنهيه ورسالته، ولكن الله المعزّ عزَّه بالقوّة، أي في كلِّ معركةٍ من بعد معركة يخوضها مع الغزاة من كفَّار قريش يزداد محمَّدٌ والذين معهُ قوَّةً من بعد قوَّة؛ حيث يزداد عدد المؤمنين المسلمين الذين تمكّن محمَّد من إبلاغهم بالرِّسالة غزوًا، وفي المقابل الضُّعف في نفوس كفَّار قريس يزدادُ ضعفًا وهزيمةً.

ولأنَّها رسالة الكافَّة فلا أحدٌ مفضَّلٌ على غيره أو محرومًا من فضائلها؛ ومع أنَّ المواجهات حدثت وتعدّدت؛ فإنَّها مواجهات القلّة وليس بمواجهاتٍ من الكثرة، ولا مواجهات من الكافَّة؛ فالنَّاس (الكافَّة) لم يعادوا رسولهم، بل العداء جاء من القلَّة الخاصَّة (رؤوس الكفر والفساد في الأرض) الذين سادوا

[1] المائدة 67.

على النَّاس ظُلمًا وعدوانًا وتفسيدًا؛ ومن ثمَّ فأهل الظُّلم لا بدَّ وأن يكونوا في مواجهةٍ مع من جاء بالحقِ رسولًا.

ومن هنا كانت المواجهات مع القلّة الكافرة بما أمر الله به ونهى عنه حقًّا وعدلًا؛ فتلك القلَّة قادت النَّاس في زمن الغفلة والجهالة إلى مواجهات مع رسولهم الكريم؛ الذي بُعث من أجلهم بغاية عتق رقابهم وتحريرها مِن قبضة مستعبديهم ومستغليهم في غير طاعة الله.

ولأنَّها رسالة الكافَّة فالنَّاس كل النَّاس فيها سواسية؛ فهي لم تكن رسالة خاصَّة بالعرب، ولا أنَّ كلّ المسلمين قومًا واحدًا وعرقًا واحدًا حتى يقول من يقول: إنَّها رسالتكم، وكأنَّه يشير إلى المسلمين وهم إخوة عرق؛ أي كمن يقول لك: هذه رسالتكم التي تخصَّكم أنتم دون غيركم.

ولأنَّ الله اصطفى الرَّسُول محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام وأرسله للكافَّة، وألزمه بتبليغها دون أيِّ استثناء لأحدٍ منها، إذن فهذه رسالته؛ ومن ثمَّ فلا خيار له في تبليغ الكافَّة، فَحَمَل الأمانة، وتحمَّل أعبائها؛ دون أن تثنيه أيّةِ مواجهة من المواجهات التي حاول أصحابها أن يحولوا بينه وتبليغ الكافَّة وهدايتهم.

ولأنَّ مغزى رسالة محمَّد الهداية، فهي لم تكن رسالة اقتتال، فالاقتتال في رسالة محمَّد ليس بقاعدة، بل القاعدة الهداية بالكلمة الحقّ، والحُجَّة الحقّ، والمعجزة الحقّ، وما القتال إلَّا استثناء مع الذين يقفون حائلًا بين

الرَّسُول وإيصال رسالته للكافَّة دون إكراه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[2].

وعليه: جاء الإذن بالقتال استثناء في حالة ما إذا حصل عدوانًا على الرّسول والذين معه: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[3].

ولهذا فإنَّ عبور قوافل كفَّار قريش بتلك الممتلكات التي سلبوها من المسلمين في مكَّة يعد غزوًا يستوجب الغزو عليه؛ وذلك بغرض إعادة المنهوب والمسلوب والمغتصب والمستولى عليه من بعد الهجرة والغياب، وكذلك عبور قوافل كفَّار قريش دون إذنٍ لأراضي دولة المدينة يعدُّ غزوًا لأراضيها وانتهاكًا لسيادة أهلها؛ ومن ثمَّ وجب غزو الغازين لاسترداد المسلوب والمستولى عليه، أو لإبعادهم عن الدّيار مع القبول بدفع الثَّمن وإن حدث القتالُ.

ولأنَّ مغزى رسالة محمَّدٍ تحرير الكافَّة من قيود الجهل والكفر والشِّرك بالله تعالى؛ فإنَّ رؤوس الكفر قد نصبوا العداء لمحمَّدٍ ورسالته وللذين معه؛ حتى لا يتحرَّر العباد وتستنير عقولهم وتطمئن قلوبهم درايةً؛ ومن ثمَّ ينفرط الزِّمام من بين أيديهم، ويتحرَّر العبيد، ويستوي النَّاس حقًّا وعدلًا؛ ومن هنا جاءت التعبئة المضادَّة مِن قِبل رؤوس الكفر من قريش ومشركيها؛ ومع ذلك فمحمَّد والذين معه كلَّما حاوروا وبشَّروا، أو هاجروا، أو غزوا، أو قاتلوا، أو

[2] البقرة 256.

[3] البقرة 194.

جاهدوا التحم النَّاس بهم محبَّة وإيمانًا وهدايةً، حتّى عمَّت الرِّسالة وسادت بين أيدي النَّاس نورًا يرشد إلى واحدية الله وتحقيق العدالة على الأرض إرادة ورغبة.

وحتى يُفكَّ اللبس الذي عَلِقَ في أذهان البعض غموضًا ينبغي أن نتمكَّن من معرفة مفهوم قطَّاع الطُّرق والمغزى الكامن من ورائه، ومفهوم الغزوة والمغزى الكامن من ورائها.

قطعُ الطُّرقِ صفةً:

قطعُ الطُّرقِ فعل إكراهي سواء أقام به فردٌ أم جماعةٌ، وأداته استخدام القوَّة القاهرة، التي كما تُمكّن من الفكّ والأخذ كرهًا وجهارًا بلا تردد تُمكّن من القتل أيضًا، وهنا يكمن المغزى الذي من ورائه يظهر التمرّد على الأمن العام سواء أكان أمن دولة أم إنَّه أمن مواطنين فيها، ولهذا تعد أفعال قطع الطُّرق سرقة كبرى (حرابة) وأفعالها مجرَّمة: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}[4].

أمَّا بالنِّسبةِ إلى رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم والذين معه فلم يكن هدفهم يومًا في مغزاهم لأيِّ مواجهة مع كفَّار قريش ومن والاهم أنَّهم يريدون سلب أموالهم وأرزاقهم أو نهب ما عندهم من ممتلكات، بل كانت الطَّريق تُقطع بغاياتٍ منها:

---

[4] المائدة 33.

الغاية الأولى: غزو الغازين لاسترداد المسلوب والمنهوب والمصادر.

الغاية الثَّانية: صون حدود الدَّولة من الاختراقات التي كانت تحدث من كفار قريش دون إذنٍ مُسبق من أهلها؛ حفاظًا على أمن الدَّولة وسيادتها، ومنعًا لتهريب المحرّم والمجرَّم.

الغاية الثَّالثة: قطع سُبل الإمدادات القتاليَّة المغذِّية للمعارك في أثناء المواجهات وتأمين الدِّيار.

الغاية الرَّابعة: قطع السُّبل التي تحول بين الرِّسالة ومن أرسلت إليهم.

ومن هنا يتميّز مفهوم الغزو عن بقيّة المفاهيم الأخرى من حيث أنَّ أبواب الغزوات المحمَّديَّة كانت مفتوحة على الحوار والتجادل والتفاهم والتقبُّل بسلام وعقد العهود والمواثيق، ولا يتم الالتجاء إلى القتال إلَّا إذا كُتب على الرَّسول والذين معه من قبل المعتدين على ممتلكات المسلمين وأموالهم وأرزاقهم، أو المعتدين على حرمة دولة المدينة وسلامة أهلها.

وعليه: فإنَّ القتال والجهاد وإدارة رحى المعارك لا تكون إلَّا مع قُطَّاع الطُّرق الذين يَحولون بين الرِّسالة والمرسلة إليهم.

ومن هنا فصفة قطَّاع الطُّرق لا تقتصر على مَنْ يركب جواده أو بعيره ويتوجّه للطّرقات مواجهةً ومعركةً وحرابةً، بل صفة قطَّاع الطُّرق تتعدَّى ذلك حتى تلتصق بمن يحول بين الحقِّ وإحقاقه ومحقِّيه.

إذن فالفرق كبير بين مَن يقطع الطُّرق سالبًا وناهبًا، ومن يقطعها غزوة من بعد غزوة، ولا سرَّ له من وراء مغازيها إلَّا أخذ الحقّ وإحقاقه بلا مظالم؛ ولهذا فإنَّ مغزى غزوات الرَّسُول خالٍ من مغازي المظالم وأفعالها وأعمالها.

ومن هنا فإنَّ مفهوم الغزوة يتمركز على المغزى الذي من ورائها وهي التي فيه تكمن، ولا تفسّر إلَّا به، ومع أنَّ الغزوةَ من حيث المفهوم هي الغزوة ولا خلاف عليها؛ فإنَّ ما يختلف عليه بشأنها مفهومًا هو مغزاها الذي يُمكِن أن يجرّها انحرافًا سالبًا، أو يأخذ بها امتدادًا موجبًا؛ ولكلٍّ منها من الأغراضِ والغايات ما يُبلغ.

ومن مفاهيم الغزو في دائرة الممكن الموجب والسَّالب هي: إنْ كانت الغزوة لفتحِ طريقٍ أمام النَّاس لِتَعبُر، وكان المغزى من وراء عبورهم سدادًا؛ فلا صفة للغزوِ إلَّا موجبًا، وفي المقابل إنْ غزى أناسٌ غزوة على حِساب سيادة الغير فلا صفة لغزوتهم إلَّا سلبًا؛ فالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أُرسل باسم الله لفتح الطُّرق المسدودة كفرًا وشركًا وفسقًا أمام الموحّدين الذين قالوا: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[5]؛ ولهذا فلا صحة لمن يقول: إنَّ الرَّسُول كان يخرج لقطع الطُّرق أمام المتنقلين تجارة وعيشًا ولو كانوا كفَّارًا[6].

ومن مفاهيم الغزو الموضوعيَّة الاتساع والانتشار سواء أكان الغزو مكانيًّا أم فكريًّا، والحُجج هكذا دائمًا بين النَّاس تنتشرُ وتغزوُ وكذلك

---

[5] البقرة 285.

[6] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري لابن حجر، صفحة 279، جزء 7.

الحِكمُ، فمفهوم الغزو هو الانتشار سواء أكان للمعلومة والثَّقافة أم للدِّراية والاستنارة؛ ومن هنا جاء الاستعمار يغزو والثَّقافة تغزو والغزاة يُغزون، وكذلك جاء مفهوم الغزو بما يدلُّ على الاستباحة؛ حيث لا رأفة ولا رحمة في سبيل الحصول على المغزو من أجله؛ ولذلك فالجيوش الغازية للأوطان تستبيح كل شيء وبلا رأفة.

ومن هنا يتّضح مفهوم قطع الطّرق والغزو، ومفهوم غزو الغازين، إذ لكلٍّ منها مغزاه الذي به يتميَّز ويُعرف؛ فقطع الطّرق فيه من الحرابة ما فيه، أمَّا الغزو فهو اعتداء على الغير بغاية فكّ ما عنده أو فكّ شيءٍ مما عنده، أمَّا غزو الغازين: فهو الغزو لاسترداد ما تمَّ غزوه من أولئك الغازين بغير حقٍّ. ومن مفاهيم الغزو أيضًا تمكين الحقّ غزوًا من غزو الباطل كما هو حال غزوات الرَّسُول التي غزت العقول إيمانًا بالحقِ والعملِ على إحقاقهِ.

أمَّا مفهوم الغزو ومغزاه في زمن رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام فقد كان يجري من أجل انتشار دين الكافَّة للكافَّة، أي الغزو بالدّين ومن أجله؛ وذلك بغاية انتشاره سلامًا على الأرض بين النَّاس وبلا استثناء؛ ولهذا دين الكافَّة يغزو الأرض ومَن عليها غزو حقٍّ لبطالٍ.

ومن هنا فإنَّ كل غزوات الرَّسُول كانت من أجل الدِّين وانتشاره تبشيرًا ودعوة وتحريضًا وهداية، ثمَّ الدِّفاع عنه وقبول المواجهات من أجلهِ وسلامة الدَّاعين والمبشرين به والمنذرين.

ولأنَّ غزوات الرَّسُول من أجل الدِّين، والدِّين للكافَّة؛ فهي لم تكن من أجل تأسيس دولة ظالمة، ولا من أجل شخص يريد أن يكون جبَّارًا في

الأرض، ولا بغاية سلب النَّاس وإذلالهم أو إكراههم على رؤيةً بشريّة، بل من أجل حكم الله في الأرض الذي شاء أن يكون الإنسان خليفة له فيها، ولهذا جاءت رسالة محمَّد ترسيخًا للفضائل الحميدة التي تُمكِّن الإنسان من أن يكون خليفة للخَالق لا خليفة للمخلوق.

ولمتسائلٍ أن يتساءل:

لماذا أطلق على المواجهات الأولى مع كفَّار قريش في زمن الرَّسُول صفة (الغزوة) ولم تطلق صفة (الفتح أو الجهاد، أو القتال، أو المعركة)؟

فنقولُ: لكلٍّ مغزاه.

الجهادُ:

يرتبط مفهومه بالحيويَّة والجهد المبذول وفقًا للمقدرة والاستطاعة مع وافر الرَّغبة (النَّصر أو الجنَّة)؛ وهذا ما يظهره المعنى اللغوي المتولِّد من: (جهَدَ ـ يَجهَد ـ جَهْدًا)، فإذا أخذنا كلمة (جَهَدَ) مصدرًا للكلمة؛ فإنَّنا نعرف أنَّ جُهدًا وقد بُذل دون أن يُنقص المجاهد مِنْ جَهدِهِ شيئًا، وهكذا يأتي مفهوم كلمة (يَجهَد) فعل مستمر بالحيويَّة الجادّة جهدًا، وكأنَّنا نقول: (يجدُ المجاهد في بذل جهده حيث لا انقطاع)؛ ومن ثمَّ فإنَّ مفاهيم (جهَدَ ـ يَجهَد ـ جَهْدًا) مفاهيم لفظيَّة من حيث المعنى والدَّلالة والحيويَّة وليست من حيث السُّلوك المشاهد.

أمَّا: مفهوم الجهاد من حيث المصدر اللغوي (جاهد ـ يجاهد ـ جهادًا ومُجاهَدةً) فهنا المفهوم يختلف عمَّا سبق؛ فهنا يرتبط المفهوم بالسُّلوك وقوَّة

مداه والإخلاص فيه، بكلِّ مثابرة مع تحمُّل ما يترتَّب عليه من معاندات وبكلِّ إصرار، أي: هنا يرتبط المفهوم بالسُّلوك المشاهد، أمَّا فيما سبق فيرتبط المفهوم بما تحمله الكلمة من حيويَّة، ولهذا فالحيويَّة طاقة كامنة، والسُّلوك قوَّة ظاهرة وكاشفة عن مدى تلك الحيويَّة النَّافذة.

ومن ثمَّ فمفهوم كلمة (جهاد) هي صفة لما يُبذل من حيويَّةٍ وجُهدٍ يكمن سِرَّهُ في السُّلوكِ مغزى (دلالة ومعنى)، مما يجعل الجهاد لا يكون إلَّا نتاج حاصل ذلك الجهد الذي يتحمَّل فيه المجاهد أعباءً وأثقالًا ولو كانت على حِساب حاجة من حاجاته الأساسيَّة؛ كونها بالنِّسبةِ إليه وإن عظمت فلن ترتقي إلى ذلك الجهد المرضي جهادًا في سبيل الله: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}[7]، في هذه الآية قال تعالى: (وجاهدوا في الله) ولم يقل: (في سبيل الله) كما جاء في قوله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[8]؛ يفهم من هاتين الآيتين أنَّ للجهاد صفات منها: (الجهاد في الله، والجهاد في سبيل الله)؛ فالجهاد في الله جهادُ حقٍّ وإخلاص ولا يكون إلَّا عن وعيٍ بواحديَّته والتوقّف عند معجزاته دراية واستنارة. أمّا الجهاد في سبيله فلا يكون إلَّا واجبًا يستوجب الطَّاعة لما أمر الله به ونهى عنه.

إذن فالجهاد لا يكون إلَّا بغايات عظيمة، منها:

---

[7] الحج 78.

[8] التوبة 41.

. الجهاد في الله وعيًا؛ حيث الحقّ لا يُحقّ إلَّا به، ومثل حال أهل الجهاد فيه كمثل حال من تغيَّرت أحوالهم من الأميَّة إلى الدِّراية.

. الجهاد في سبيله بغاية إزالة كلّ العوائق التي تحول بين التبليغ بالرِّسالة الخاتمة وأهلها، كما هو حال إزالة الكفر من عقول الكافرين.

. إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل كما هو حال الحكم بالعدل وفي كلِّ القضايا.

. الدِّفاع عن النَّفس وردّ العدوان بالعدوان حتى يُقهر، كما هو حال من يغزو الغزاة حتى يزيحهم عن الطَّريق.

. الدِّفاع عن الشَّرف والكرامة والهويَّة التي جاءت الرِّسالة الخاتمة من أجلها، وحالها كما هو حال ترسيخ المكانة.

وعليه فالجهاد فعلٌ دائمٌ مع دوام الحياة، فلا ينتهي؛ وذلك بوجود الخير والشّر أو حيثما كانا، ولا يكون الجهاد دائمًا إلَّا بدوام المقدرة والاستطاعة ولا تثاقل.

إذن فالجهاد جهدٌ يبذل ولا ينقطع؛ من أجل إحقاق الحقّ ما دامت الحياة صراع بين الحقِّ والباطل، وهو ليس بالعدوان الذي يستوجب الرّد بعدوان يقهره ويهزمه، بل الجهاد قبول تحدّي الصِّعاب التي لا تقهر إلَّا ببذل الجهد القاهر لها في سبيل الله ومرضاته.

وعليه: فالجهاد فعلٌ دائمٌ مع دوام الحياة، وفي المقابل الغزو المحمَّدي (غزوات الرَّسول الكريم) كانت غزوات للتبشير بالدّين والدَّعوة إليه والهداية،

وكانت غزوات حقٍّ في مواجهة الغازين من كفَّار قريش وغيرهم؛ وذلك بغرض قطع الطّرق أمامهم وغزواتهم.

الفتحُ:

الفتحُ فعلٌ متى ما تحقَّق تيسَّرت الأمور، وذُللت الصِّعاب، وقُهرت المغالبة، وتحقَّق النَّصر أو الفوز بالمأمول ونيله.

والفتحُ قد يكون متعلِّقًا بالمعنوي عقلًا وقلبًا كما هو حال شرح الصُّدور، ووضع الآزار التي وُضعت على الظهور أثقالًا، ورفع الذِّكر سُمعةً ومكانةً؛ فذلك هو الفتح تيسيرًا من بعد تعسيرٍ.

وقد يكون الفتح فتحًا مُدركًا؛ كونه على البيِّنة، كما هو ميثاق صُلح الحديبية الذي ترتَّب عليه فتح مكّة فتحًا مبينًا.

وقد يكون الفتح متعلِّقًا بالمحسوس المادّي كما هو حال فتح مكَّة وما تلاها من فتوحات مُهدت بالإسلام دينًا وحُجَّةً وقوَّة.

ولذلك فمفهوم الفتح يتضمّن التيسير والتمكين قولًا وفعلًا وعملًا، وقد يكون الفتح عن جهدٍ يُبذل، وقد يكون نتاج عون ومدد ربَّاني لا يُمكن قياسه بالمعايير البشريَّة، وبالفتح تزال المغاليق، وتُفتح الأقفال، وينكشف السّر من بعد غموض، ويزاح الكدر من بعد غمّة، وتنجلي الحقائق، وينفرج الكرب، وتُفتح السُّبل أمام حقوقٍ تمارس، وواجباتٍ تؤدَّى، ومسئوليَّاتٍ تُحمل عن بيّنة.

ومن هنا يعدُّ الفتح استنارة من بعد ظُلمة مع وافر التيسير والتمكين، وفقًا للقدرة والاستطاعة؛ ومن ثمَّ فعندما يتمّ فتح المنغلق أو المقفل سواء أكان عقلًا وقلبًا، أم فتحًا مكانيًّا يلتفت الإنسان إلى ذاكرته صحوة تُمكّنه من استقراء الماضي وكشف ما تم الإغفال عنه وعيًا؛ ليحدث الاستغفار والتوبة لمن استنار دراية، ويلتفت صاحبه إلى ما هو آتٍ حتى يسلك سبيله سدادًا، الذي به يتمكَّن من بلوغ النّصر وتحقيقه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}[9]؛ ولذلك فالفتح لا يكون إلَّا بداية، والمغزى من خلفه يرجو بلوغ غاية يتمّ نيلها على البيِّنة.

إذن فمفهوم الفتح: التوسّع من بعد الضّيقِ والانكماش والتقوقع، وهو الانفراج من التأزُّمات والشَّدائد والهموم سواء أكان التوسّع في العلم والدّراية، أم التوسّع في التمدّد مع النَّاس الذين من أجلهم الأهداف تُنجز، والحاجات تُشبع، والمأمولات الأخلاقيَّة يتم بلوغها والفوز بها دون أن يكون أيُّ شيء على حِساب الغير.

ومع أنَّ مفهوم الفتح لا سلبيَّة فيه فإنَّ ما ترتّب عليه من مفاسد من البعض باسم الدِّين جعل باب الحوار مفتوحًا بين أهل الفكر والدّراية والذين في نفوسهم غايات منقوصة أو معارف ناقصة، وبين هذا وذاك نقول: بما أنَّ باب الحوار لم يُقفل فَلِمَ لا نُقدِّر المتحاورين المتخالفين الذين دخلوا من أبواب الحوار المتعدّدة حتى تتمكّن حُججهم من الاستماع إلى حُججنا،

[9] الفتح 1 – 3.

ونخرج من بابٍ واحد متَّفقين، ولا نخرج مع تلك الأبواب المتعدّدة التي دخلنا معها متخالفين.

وعليه فإنَّ الفتح لا يكون إلَّا نتيجة ولم يكن سببًا، وبما أنَّه نتيجة فلا إمكانيَّة لمعرفة مفهومه ما لم يتم التعرُّف على أسبابه، أي: لماذا الرَّسُلُ يغزو، ولماذا الفتوحات؟

أقول:

الرَّسُول لا يغزو إلَّا برسالة من الله تعالى، والفتح لا يمكن أن يكون إلَّا خيرًا مِنَ الرِّسالة؟ أي لو لم تكن الرِّسالة رسالةَ خيرٍ فلا خير في الفتوحات، أمَّا إذا كانت الفتوحات على غير ذلك فإنَّه لا خير في مَنِ اتخذها عنوانًا؛ وبين هذه وتلك نقول: العيب فينا وليس في رسالة الله إلى محمَّد رسول الكافَّة؛ ذلك لأنَّ الرِّسالة لا إكراه فيها، إلَّا بما أذنت به: {قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[10]، وقوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}[11]؛ والذين ظُلِمُوا هنا هم المسلمون الذين يودّ كفَّار قريش منهم أن يتركوا الرِّسالة ويتخلّوا عنها.

ولأنَّها الفتوحات تبشيرًا ودعوةً فقد انتشرت على جغرافيَّة الكرة الأرضيَّة وفقًا للقاعدة المنطقيَّة: ما يتمّ قبوله رغبةً وإرادةً يدوم، أمَّا ما يتمّ قبوله إكراهًا فلا مستقبل له إلَّا الرَّفض والانقطاع.

---

[10] يونس 59.

[11] الحج 39.

ولأنَّ الفتوحات الإسلاميَّة قد انتشرت واتسعت رقعتها على المعمورة وإنْ انكمشت مؤقَّتًا في بعض منها كما هو حال انكماشها في جزر البحر الأبيض المتوسط والأندلس؛ فإنَّ مرد ذلك كان لأسباب الانشقاقات الدَّاخليَّة والفساد واللهو والعبث والدّعة التي انغمس فيها ساستها[12].

ووفقًا لقاعدة: ما يتمّ قبوله رغبةً وإرادةً يدوم، وما يتمّ قبوله إكراهًا ليس له إلَّا الرّفض والانقطاع؛ جاءت الجزية إقرارًا من الله نصًّا؛ لتفتح الطّرق فسيحةً أمام أهل الأديان وبين النَّاس.

إنَّها المفتاح الكبير الذي فَتَحَ باسم الله تعالى تلك الأبواب المنغلقة أمام الفاتحين، فَفُتحت الأبواب باسم الله الواحد الذي لا يتعدّد، وبقيت مفتَّحة إلَّا تلك التي فُتحت بأسماء من المتعددين؛ ولذا فكل ما فُتح باسم الله قد بقي، وكل ما فُتح بأسماء غيره لم يبق وإن بقي على قيد الوجود شيئًا من الدّهر.

وما يمكن أن نميّز به الفتوحات الإسلاميَّة وغزوات الرّسول، هو إنَّ غزوات الرَّسول كانت داخل الدّولة وحدودها (دولة المدينة)، أمَّا الفتوحات فكانت في معظمها خارج الحدود؛ وذلك بغاية تبليغ رسالة الكافَّة للكافَّة دون إكراه، أمَّا ذلك التّمدد كرهًا ومتى ما حدث أو يحدث على حِساب حريَّات النَّاس وكرامتهم وإن وُصِفَ من أصحابه فتحًا فإنّه ليس كذلك، بل لا فرق بين مفهومه ومفهوم الغزو ظلمًا وعدوانًا.

---

[12] ناصر بن سليمان العمر، سقوط الأندلس، صفحة 7-21.

ومن الفوارق المهمّة الأخرى بين الغزوات المحمَّديَّة (غزوات رسول الله) عليه الصَّلاة والسَّلام والفتوحات الإسلاميَّة هو أنَّ غزوات الرَّسول لا جزية فيها ولا من ورائها جزية، أمَّا الفتوحات فمفتاحها العظيم هو الجزية.

وعليه جاءت الجزية من الله أمرًا وحلًّا، ولم تأت من النَّاس عن علمٍ وحكمة؛ ولأنَّها من الله جاءت؛ فهل يأتي من الله غير الخير والعدل أمرًا؟

ولتبيان ذلك:

ما هي العلاقة بين الفتوحات الإسلاميَّة والجزية التي أمر الله بها أمرًا؟

أقول:

الجزيةُ:

مع أنَّ مفهوم الجزية لغة مستمدٌّ من معنى الجزاء؛ فإنَّ الجزاء لا يكون إلَّا على احتمالين: احتمال المكافأة على الفعل الحسن، واحتمال المعاقبة على الفعل السّيئ، وإذا نظرنا إلى مفهوم الجزية بدلالة واحدة فلا إمكانيَّة لمعرفة مفهومها؛ ذلك لأنَّ مفهوم الجزاء منكَّرٌ؛ فأيُّ جزاء تعني؟ أتعني: المعاقبة على الفعل السّيئ، أم تعني المكافئة على الفعل الحسن؟ وفي المقابل مفهوم الجزية ليس بمنكَّرٍ.

الجزيةُ هي الجزية كما أُنزلت وحيًا منزَّلًا؛ فهي تجمع مفهومي الجزاء في الفعل الواحد في الوقت الواحد، فالجزية ليست بمكافئة خالصة الحُسن، ولا بعقاب خالص الإساءة، ولم تكن مَنزَلة بين المنزِلتين (مجهولة الهويّة)؛ ولهذا جاءت في القرآن مُعرّفة: (الجزية)، ولم تأتِ منكَّرة (جزية)، فهي كما جاءت

بدلائلها المحدّدة تنزيلًا: تُعطى من قِبل الذين أُتوا الكتاب، وفي دلالتها مفهوم اعترافيّ متبادل: (اعترف بي، أعترف بك، وإن أنكرت وجودي، فلا تنتظر مني اعترافًا). فهي أوّلًا: اعتراف أهل الكتاب والتزامهم بضوابط الدّولة الإسلاميَّة، وثانيًا: اعتراف الدّولة الإسلاميَّة بحريّة ممارسة المعتقد وأمن النَّاس بلا فوارق؛ إذ لا إكراه.

ولذا جاءت الجزية حلًّا لكسر وهم الخوف الذي كان حائلًا بين من خَسِرَ الرِّهان ومن كسِبهُ، فالذي خَسِرَ رهان المعركة اقتتالًا أصبح الخوف يملأ قلبه على: (نفسه، وذويهِ، ودينه، وما يملك)، فكان ردُّ المنتصر (السَّلام)، الذي لا اصطناع في إعطائه؛ كونه عنوان الإسلام في الدّولة.

وبهذا المنحة كُسِرَ الوهمُ وفُرجت كُرب الخائفين، وقَبِلوا بدفع الجزية عن يدٍ (عن إرادة) والاطمئنان لم يفارق قلوبهم.

ولأنَّ السَّلام عنوانُ الدَّولة، فالدَّولة الإسلاميَّة لا تقاتل من لا يقاتلها، قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[13] ماذا تعني هذه الآية الكريمة؟

تعني مما تعنيه: إذا انتصر المسلمون في قتالٍ كُتب عليهم، أو استسلم لهم العدو فعليهم أنْ لا يقاتلوهم إذا امتنعوا عن القتال وقبلوا بإعطاء الجزية، التي بها الحقوق تُضمن والواجبات تؤدَّى، أي: عدم مقاتلة كل هؤلاء الذين ذُكرت صفاتهم في هذه الآية إذا أعطوا الجزية، بمعنى: في حالة ما إذا كُتب

[13] التوبة: 29.

عليهم القتال كرهًا قاتلوا من يقاتلهم ويعتدي عليهم، وعندما يُحقِّقون النَّصر فلا إكراه في الدين؛ ولهذا جاءت الجزية حلًّا، وليست عقابًا.

ومع أنَّ البعض يعتقد أنَّ مفهوم الجزية مقتصرٌ على الإسلام فإنَّ البعض يعرف أنَّ ورودها بهذا المفهوم قد عُرف في الدّيانات السَّابقة وبخاصّة المسيحيَّة؛ ولهذا جاءت الجزية في الإسلام حلًّا بما يعرفه المستهدفون بها، أي: جاءت المخاطبة القرآنيَّة للذين أُتوا الكتاب بما لا استغراب فيه؛ وهو: إعطاء الجزية كما يعرفونها، وفي هذا الشَّأن ورد في إنجيل متَّى المحاورة الآتية: "ماذا تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية، أَمِن بنيهم أم مِن الأجانب؟ قال بطرس: مِن الأجانب. قال يسوع: فإذًا البنون أحرار"[14].

ولأنَّه لا إكراه في الدّين، قال تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ}، ولم يقل: {حتى تؤخذ الجزية}؛ ذلك لأنَّ كلمة: (خُذ) آمرة (فعلها أَمْرٌ)، وفي المقابل كلمة: (يُعطوا) إراديَّة ولا أمر فيها؛ ولهذا أفعال كلمة (يُعطوا) غير مترتِّبةٍ على أفعال الاستعطاء من أحدٍ؛ إذ في أفعال الاستعطاء ترجٍّ وتوسُّلٌ، فيه من تقليل الشَّأن ما فيه، أي: إنَّ إدارة الدّولة الإسلاميَّة في عصرها لا تستعطي الجزيّة من الذين يتعلّق أمرها بهم استعطاءً، بل إنَّ إقرار الجزية من عند الله جاء حلًّا لمشكلٍ، ولو لم تُقرّ لكانت أفعال الترجّي والتوسُّل والاستجداء مِن قِبل مَن كُتبت عليهم بما لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم.

[14] إنجيل متى، الإصحاح 17، الآيات: 24-25.

ولهذا فالأفعال المترتِّبة على كلمة (يُعطوا) أفعال إرادية وفقًا للواجبات التي ينبغي أن تؤدَّى تجاه الدّولة المسلمة.

ولأنَّ الإعطاء لا يكون إلَّا إراديًّا؛ إذن: فلا إكراه بأفعال تترتب عليه؛ ومن ثمَّ فكل من يستجيب لإحقاق الحقِّ وإعطائه فلا تصغير لشأنه، بل تكبيره أولى، فأهل الكتاب الذين استجابوا لإعطاء الجزية واجبة الإعطاء في مقابلة حقوق تمارس فلا تصغير لشأنهم، بل التصغير لا يلحق إلَّا مَن لم يستجب للأخذ بما يجب وهو إعطاء الجزية بلا تردد وعن إرادة ومقدرة.

ومن يمتنع عن إعطاء الجزية وهو قادرٌ على إعطائها فقد أقدم على فعلٍ لا يؤدّي به إلَّا إلى تصغير شأنه؛ ولذا فمن لا يستجيب لإعطاء الجزية فقد كانت عدم استجابته سببًا في تصغير شأنه وتقليله، وسيظل مصَّغرًا حتى يعطيها، وبإعطائه أيَّاها فلا تصغير يلحقه، بل الاحترام والتقدير.

إذن: فمن حيث المفهوم، سيظل مصغَّرٌ كلَّ من يُكتب عليه دفع الجزية كونها واجبٌ، حتى يستجيب إرادة ويعطها، وبإعطائه أيَّها شأنه يقدَّر، أي: إذا لم يُعطها فلا تقدير له ولا شأن؛ وذلك لإخلاله بنواميس الدّولة وتنظيمها الأخلاقي والإداري الضَّابط لسُلوك الأفراد والجماعات والمجتمع بأسره.

وعليه: فمن يستجيب اعترافًا بوجوب إعطاء الجزية إرادة فلا تصغير له، ومن يتأبَّى فإنَّ قوانين الدّولة وتشريعاتها عقابًا لا بدَّ وأنْ تطبَّق عليه حتى يعطها عن يدٍ وهو صاغر الشأن؛ إذ لا تهاون في ضبط العلاقات بين المواطنين بمختلف معتقداتهم وأديانهم وفقًا لقاعدة (الحقوق تمارس والواجبات

تؤدَّى)؛ فقوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[15] يعود مفهوم هذه الآية الكريمة على الذين اعتدوا على الدّولة المسلمة وقاتلوا أهلها حتى خسروا الرِّهان، فهؤلاء كونهم من أهل الكتاب يعرفون ماذا يعني فرض الجزية وإعطائها، ومن ثمَّ فلا قتال لأحدٍ أعطاها، بل وجب صون حياته وسلامته وأمنه؛ كونه قد أعطى الجزية وهو قابلٌ أن يسري عليه ما يسري على بقيّة المواطنين في الدّولة، أمَّا مَن يمتنع عن إعطائها ويتوجّه إلى مقاتلة المسلمين فمقاتلته واجبة؛ كونها دفاعًا عن النَّفس وعن الدّولة وكيانها، حتى يُعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر، ومن ثمَّ فبإعطائه الجزية يحترم ولا يصغَّر أبدًا.

وعليه: فإنَّ إعطاء الجزية يُمكّن مُعطيها من ممارسة حقوق المواطنة مع احترام الدّين، الذي لا يقاتل أو يجاهد من أجله إلَّا الذين آمنوا به، ومن ثمَّ فيجب تقدير الإنسان ودينه وحقّهِ في المواطنة وفقًا للآتي:

1 ـ احترام الدّين والمعتقد: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[16].

2 ـ تحقيق الإرادة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[17]؛ وقال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[18].

---

[15] التوبة: 29.

[16] الكافرون 6.

[17] البقرة 256.

[18] يونس 99.

3 . تحقيق العدالة: {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[19].

4 . المقدرة والاستطاعة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}[20].

5 . مواجهة الفساد: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[21]، وقال تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}[22].

ولذا فلا تصغير لمواطنٍ إلَّا إذا صغَّر نفسه بالتخلّي عن أداء واجبٍ به ينال التقدير والاحترام.

ومن هنا فإنَّ إعطاء الجزية لا سلبيّة فيه، بل كلّه إيجابيّة؛ ذلك لأنَّ إعطاء الجزية يرتقي بمعطيها إلى نيل حقوق المواطنة مما يجعل الذي أعطاها مثله مثل أيِّ فرد من أهل البلاد (مواطنو الدّولة) مع احترام الدين وفقًا لقاعدة (لكم دينكم ولي دين).

---

[19] الجاثية 22.

[20] البقرة 286.

[21] البقرة 11، 12.

[22] الأعراف 85.

وعليه: فمن حيث المفهوم لكلمة (صاغرون) جاءت كلمة (حتَّى) لتنهي التصغير من بعدها؛ إذ لا تصغير من بعد كلمة (حتّى)؛ كونها الغاية التي من بعدها يُراد الوصول إلى المأمول ونيله، فقوله: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[23] تستوجب مقاتلة من يقاتل المسلمين ويعتدي عليهم (حتَّى) تحقيق النصر أو الاستشهاد دونه، ومن ثمَّ فبتحقيق النّصر يقف القتال، ولمن يدفع الجزيّة كلّ الاحترام والتقدير؛ ولذا فقوله: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) جاءت كلمة (حتَّى) لتدلّ على أنَّ التصغير لا يلحق من يدفع الجزية، بل يلحق من يستمر في المقاتلة ويتأبَّى عن الانصياع لنظم الدَّولة الإسلاميَّة التي لا ينبغي أن تظلم، وإذا ظلمت فقدت صفتها.

ومن هنا فالتّصغير لا يلحق إلَّا من تأبَّى عن اتباع الحق وطاعة أمر الله ربِّ النَّاس كلهم (مَنْ أسلم وَمنْ لم يسلم)، ولأنَّ كلمة (حتَّى) جاءت قيدًا وشرطًا من ربّ النَّاس عدلًا، ولم تأتِ بقرارٍ بشري فالتوقّف عند قيدها، والأخذ بشرطها عدلًا؛ سيكون في مرضاة الله تعالى، ثمَّ في مرضاة من يُعطها عن مقدرة، وكذلك في مرضاة مَن يأخذها ليعطها، وهكذا ستكون في مرضاة مَن تُعطى له وهو في حاجة إليها.

إذن: فكلمة (حتَّى) أقرَّت احترام المنهزمين الذين لا شك أنَّ مشاعر التصغير تملأ نفوسهم، وحتى لا تستمر هذه الحالة الانهزاميّة المصغّرة للشأن؛ أقرَّ الدين الإسلامي دفع الجزية لفك هذه التأزُّمات والارتقاء بمن يدفعها إلى

[23] التوبة 29.

مرتبة المواطن بالتمام (له ما له وعليه ما عليه) مع احترام الدّين وتقدير الإنسان الذي لم يخلقه الله عبثًا: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}[24].

ولأنَّ الله تعالى قال: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[25]؛ إذن فلا إمكانيَّة للإكراه وتقليل الشَّأن، إلَّا إذا كان هناك مَن يريد أن يكره النَّاس بغيرِ حقّ، وأنْ يخالف قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[26]، أي: بما أنَّ مشيئة الله جعلت الإنسان مخيّرًا فيما ليس فيه تسيير، فلماذا تميل عقول البعض إلى الإكراه وتقليل شأن مَن خلقهُ الله في أحسن تقويم؟! بمعنى: لماذا الله يقول: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[27]، وفي المقابل هناك مَن يخالفه، وكأنَّه مصدر الحُجَّة فيتصرَّف بما يخالف النصّ!

وعليه فقوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} جاءت بغاية عدم استصغار النَّاس؛ ولذا فالله تعالى قال: (صاغرون) ولم يقل (مُستصغَرون) فلو قال: (مستصغَرون) هنا لم يُعطوها إعطاءً بل تؤخذ منهم أخذًا وهم أذلة صاغرون كما جاء في مفهوم الآية الكريمة: {وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}[28].

---

[24] المؤمنون: 115.

[25] البقرة: 256.

[26] يونس: 99.

[27] الكهف: 29.

[28] النمل: 37.

والفرق بين مفهوم (صَاغرُون) في سورة التوبة وسورة النَّمل هو أنَّها في سورة التوبة جاءت: {عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وفي سورة النَّمل جاءت: {أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}، وبالمقاربة بين المفهومين يتّضح الفارق الكبير بين (عن يدٍ) أي: عن مقدرة وإرادة، وقوله: (أذِلَّةً) أي: عن قهرٍ واستصغارٍ واستحقارٍ.

وعليه: فإنَّ مفهوم (صَاغرون) في سورة النَّمل يدلُّ على تقدير الذين يُعطوا الجزية عن يدٍ (عن مَقدِرة وإرادة) لمن أعطاهم تقديرًا واعترافًا، وهو المنتصر (الدّولة الإسلاميّة) التي جعلتهم على التخيير بين الإسلام أو إعطاء الجزية التي بإعطائها يُمكِّن مَن أعطاها من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات مع نيل الاحترام والتقدير، في الوقت الذي فيه المنتصر بإمكانه أن يُملي شروطًا تُقلِّلُ من شأن المهزوم وتُكرهه على ما لا يُحب. ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم (صاغرون) كما جاء في سورة التوبة هم المعترفون بدفعها، وهم الذين بدفعها يتجنَّبون التصغير، وهم الذين عندما يجدون طيب المعاملة تنكسر نفوسهم؛ احترامًا للدِّين وأهله، ومن ثمَّ عندما يأتون ليعطوا الجزية فإنَّ أنفسهم تستشعرُ عظمة المعاملة؛ فتستحي عرفانًا بالفضل، ومن ثمَّ لا سلبيَّة في (صَاغِرُونَ)، بل الإيجابيَّة تملؤها تقديرًا وعرفانًا إلَّا لمن امتنع عن دفعها متأبِّيًا ومتكبِّرًا؛ إذ لا استحياء؛ وذلك لكونه يميل إلى أفعال المقاتلة إفسادًا في الأرض.

إذن: فمفهوم قوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} هو: حتى يعطوا الجزية عن مقدرة وإرادة وهم راضون مع وافر الاحترام، ومع أنَّه لا إكراه في الدِّين، فإنَّه لا بدَّ وأن تعطى، ولأنَّه لا بدَّ وأنْ تعطى فكان إعطاؤها عن إرادة كفيلًا بنفي الإكراه عنها.

ولأنَّ الحكمة من إعطاء الجزية نيلُ التقدير والاعتراف المتبادلين فإنَّ مُعطيي الجزية عن مقدرة وإرادة إذا كُتِبَ قتالٌ على المسلمين فإنّهم معفون من المشاركة فيه؛ ذلك لأنَّ الدِّين الإسلامي (الرِّسالة الخاتمة) لم يكن معتقدهم حتى يقاتلوا عنه أو من أجله، وهذه من الفضائل الخيِّرة التي تجعل مِن مُعطِيي الجزية صاغرون أمام هذا العفو العظيم الذي أُقِرَّ لهم؛ ولهذا فالتصغير هنا لم يدخل دائرة السَّلبيَّة، ومن ثمَّ فلا تصغير إلَّا لمن يقدم على فعلٍ يؤدّي إلى تقليل شأنه.

كما أنَّ مفهوم قوله: (عَنْ يَدٍ) يستثني من لا يدَ له (لا مقدرة له)، مع استثناء المرأة وكل الأطفال؛ ولهذا لم تؤخذ أبدًا الجزية من هؤلاء في زمن إعطائها؛ فكانت لا تؤخذ إلَّا من القادرين ووفقًا للاستطاعة؛ حيث لا إكراه، ولا قيد يحدد قيمتها أو مقدارها، ولا زمن، ومن ثمَّ فلا اشتراطات مِن قِبل المنتصر، بل المنهزم بإمكانه أن يستوضح أمره ومستقبله كما استوضح أهل الشَّام من سيدنا أبي عبيدة ابن الجراح بعد أن استجابوا لدفع الجزية بأن يحميهم من الرّوم فَقَبِلَ أبو عبيدة شرطهم، ولكن بعد أن استعادت جيوش الرُّوم بقيادة هرقل بلاد الشَّام أرجع لهم أبو عبيدة ما أعطوا من جزية[29].

ومع أنَّ زمن إعطاء الجزية كان زمن الدِّفاع عن الدّين، وليس الدِّفاع عن الدّولة، فقد كان للجزية علاقة بتنظيم إدارة الدّولة وشئونها، فمثلها مثل

[29] علي حسن الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة: ص 72.

الزَّكاة والضَّريبة، مع أنَّه لكلٍّ منها حكمة؛ فالحكمة من إعطاء الجزية صون الأديان والأرواح والممتلكات مع الاعتراف المتبادل بين الأنا والآخر، وصون أمن الدّولة، أمَّا الزَّكاة فالحكمة من ورائها تطهير الأموال والممتلكات والأنفس، وهي تؤتى وتؤدَّى فريضة إسلاميَّة، وفي المقابل تدفع الضّريبة؛ كونها من الواجبات الوطنيَّة.

ومن ثمَّ فإعطاء الجزية متمركز على الاعتراف والتقدير المتبادلين، فهي عندما يقول أحد الأطراف: إنَّها حقٌّ لي. يقول الطّرف الثَّاني: إنَّها واجب عليَّ؛ ولهذا فلا مصغرانيَّة وتقليل شأن في إعطائها، ولا في أخذها، مع أنَّ كفّة الاستحياء عند إعطائها رفيعة، ولا ترجحُ إلَّا إرادة واعترافًا بفضل الحماية والرّعاية والتمكين من ممارسة حقوق المواطنة، أي: لا يمكن أن يقرّ الإسلام الاعتراف بدين الغير ويصغّر أهله تحقيرًا وإذلالًا، وبما أنَّ الدّولة الإسلاميّة قبلت بحريّة أداء العبادات فلا يمكن لها أن تقبل بتقليل شأن أهاليها.

أي: كيف يحقُّ لنا أن نستصغر الإنسان ونقلل من شأنه، والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}[30]، قال الله تعميمًا: (بَنِي آدَمَ) ولم يقل تخصيصًا: (المسلمين)، والتكريم هنا جاء بمفهوم التعظيم والتفضيل للعموم، ومن ثمَّ جاء إقرار الجزية قيمة رمزيَّة بغاية: (تبادل قيمة الاعتراف والتقدير)، وحلّ معضلة الإذلال والاستعباد التي كانت في تلك

[30] الإسراء: 70.

العصور سائدة بأسباب الحروب والاقتتالات، والتي تجاوزها عصرنا بممارسة حقوق المواطنة وأداء واجباتها.

ومع أنَّ لكل عصرٍ معطياته السياسيّة والاقتصاديّة والدِّينيّة والاجتماعيَّة فإنَّ ذلك الزَّمن الذي كانت الجزية فيه تُعطى، كانت العدالة لا ترى شيئًا يُقدَّمُ على قيمة الإنسان إلَّا الدّين؛ ولهذا فالعلاقات بين الدّول به تتأسَّس، وعليه تفترق، أمَّا الاقتصاد الذي أصبح اليوم هو المتغيّر الرَّئيس فلا حرب ولا اقتتال ولا نهضة إلَّا به ومن أجله، ومن ثمَّ فلا قيمة للإنسان إلَّا من بعده.

إذن: وجب علينا أن نفرّق بين عصرٍ رأسُ ماله قيمة الإنسان، وعصرٍ رأس ماله قيمة المال؛ فالعصر الذي كان رأس ماله قيمة الإنسان كانت رسالته تحرير العبيد وتعظيم شأن الإنسان، أمَّا العصر الذي أصبح رأس ماله تعظيم المال، فإنَّ رسالته لا تزيد عن كونها استصغارَ مَنْ لا رأس مال له.

ومن هنا وجبت المقارنة بين دلالتين، وفقًا لكلمتي: (صاغرون) و(مستصغرون)، فالصَّاغرون هم الذين أعطوا الجزية عن مقدرة وإرادة وهم متماثلون مع من يدفع الزّكاة في وطنه، ومع أنَّه في ذلك الزّمن كان إعطاء الجزية يعفي عن القتال عن الدين فإنَّه كان لا يعفي عن الدِّفاع والقتال عن الوطن؛ ولذا فلا إمكانيّة للاستصغار، وفي المقابل المستصغرون من قِبَلِ

المعظّمين لرأس المال لا خيار لهم إلَّا قبول الاستصغار أمام تعظيم قيمة المال على حساب قيمهم[31].

وعليه فالفتوحات التي أمر الله بها وفُتحت باسمه تعالى لا قتلُ ولا تقتيل فيها، إلَّا لمن رفع سِلاحه مقاتلًا ومعتديًا؛ ولهذا جاءت الجزية حلًّا حال بين القتل وحريّة المعتقد وتنظيم العلاقات قيميًّا بين إدارة الدَّولة ومواطنيها.

وعليه أقول: غزوات الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام كانت لغزو الغازين وغزواتهم، أي لو لم يكن هناك غزاة ما غزى الرَّسُول والذين معه أحدًا، وهنا وكأنَّ الشِّعار (تَغزو تُغزى)، أي لا يمكن أن يتم الغزو حقًّا وعدلًا إلَّا لمن يأتي غازيًا.

أمَّا الفتوحات: فهي الانتقال إلى الشّعوب في مدنهم وقراهم ودولهم وقاراتهم تبشيرًا برسالتهم (رسالة الكافَّة)؛ وشعار الفتوحات (أسلِم تسْلَمْ)؛ إذ لا إكراه في الدّين، أمَّا شعار الغزوات في دولة المدينة (أغزُ تُغْزَ)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ}[32]؛ ومن هنا وجب عرض ذلك الشِّعار العظيم لرسالة مُحمَّد (أسلِم تسْلَمْ).

---

[31] عقيل حسين عقيل، معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة، 2022م، 111 – 121.

[32] البقرة 194.

الغزوُ في زمنِ الرَّسُول (أسلِم تسْلَمْ):

مع أنَّ (أسلِم تسلَمْ) كلمتان، ولكلٍّ منهما معنى؛ فإنَّهما معًا يحملان مضمونًا واسعًا، اختلفت القلّة على ما يدلَّان عليه، وفي المقابل الكثرة اتفقت، فالبعض استوقف عقله عند أمر فعلهما، والأكثرون استوقفتهم عقولهم عند الأفعال المعظِّمة للأمر.

فمضمون كلمتي: (أسلِم تسْلَمْ) يحوي لبَّ رسائل النبي محمَّد-عليه الصَّلاة والسَّلام- المرسل بها إلى الملوك والحكَّام، الذين عاصروا رسالة الإسلام ونبوّة محمّد، وكان لهم من المخاوف والأوهام ما لهم؛ فبعثَ النَّبي إليهم ما يطمئنهم، ويكسر وهمهم، ويُظهر لهم لبَّ حقيقةِ الإسلام: (أسلِم تسلَمْ)، بمعنى: اطمئنوا فلا خوف من الإسلام، فعندما لا يعتدي أحدٌ علينا نسالمه؛ وبهذا كانت الغاية من إرسال الرُّسُل لغزو الملوك والحكام بغاية التعريف بنبوءة محمَّد، ورسالة الكافَّة، والدّعوة إليها ب(أسلِم تسلَم)، وفي المقابل من لا يريد أنْ يسلم فلا يسلم؛ إذ لا إكراه؛ ولهذا فإنَّ الغاية كانت للتعريف بالنبوّة، والتبليغ بالرِّسالة، وطمأنة الخائفين، وليس بغاية التهديد الذي يخالف أمر الرِّسالة.

ولأنَّ محمّدًا رسولٌ للكافّة فالتبشير بالرّسالة لا يقتصر على قوم أو أمّة بعينها، بل يستهدف الكل بلا استثناء؛ ولهذا ليس له إلَّا البلاغ المبين (البلاغ الذي يبيّن الحقّ من الباطل، ويبيّن المعلوم من المجهول)، ومن هنا بَعَثَ محمَّدٌ الرُّسُلَ من طرفه ليبلِّغوا الكافّة وبخاصّة الذين على رؤوسهم ولاة

أمرٍ من ملوكٍ وحكّامٍ وأباطرةٍ برسالة الإسلام (أسلِم تسلَم)، التي تعني مما تعنيه: إنَّ الإسلام لا إكراه فيه.

ومع أنَّهما كلمتان عظيمتان فإنَّ الرِّسالةَ المحمولةَ في مضمونهما تحمل بلاغًا أعظم، بلاغًا يُنبئ بأمرٍ يتعلّق بالكافَّة؛ ذلك لأنَّ أولئك الحكَّام وشعوبهم كانوا يعتقدون أنَّ محمَّدًا بُعث رسولًا للعرب فقط، وللتصحيح بعث محمَّدٌ رُسُلَهُ ليبلِّغوا برسول الكافَّة، والهداية بالحقّ واتباعه بغاية: (الكفرُ بالكفرِ)أ أي: الكفر بمن يكفر بالحقّ وإحقاقه؛ ولذا فالنبي محمَّد علم أنَّه إنْ لم يُبلّغ ما أُمر به فما بلَّغ الرِّسالة: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[33].

إذن فمضمون رسالة النَّبي: (أسلِم تسلَم) مضمون إبلاغي؛ ولأنَّه إبلاغي فالمبلِّغ به يأمر بالسَّلام، وكما ينهى عن الكفر بالحقِّ ينهى عن أفعال الإكراه بالمطلق؛ مصداقًا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[34]؛ ولهذا فلا تهديد في رسالة: (أسلِم تسلَم)، أي: لو كانت رسالة تهديد لكان المهدد به مُضمَّنٌ فيها ومنصوصٌ عليه.

ولأنَّه لا إكراه في الدِّين ورد في الرَّسائل الموجَّهة إلى بعض الحكَّام والملوك عبارة: (فإنْ أبيت) وعبارة: (فإنْ توليت) وفي الحالتين: سواء في حالة الإباء، أم في حالة التولِّي هناك مترتّب على أفعال الإيباء والتّولّي؛ ففي حالة

---

[33] المائدة: 67.

[34] البقرة: 256.

الإيباء، قال في الرِّسالة الموجهة إلى كسرى: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على مَنِ اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسول الله إلى النَّاس كافّة؛ ليُنذر من كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين فأسلِم تسلَم، فإنْ أبيت فإنَّ إثم المجوس عليك"[35]، قال: (فإنْ أبيت، فإنَّ إثم المجوس عليك)، ولم يقل: (فإنْ أبيت سأقاتلك)، وقبل هذا القول قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (بسم الله الرّحمن الرّحيم) وهذا دليل على أنَّ ما أَرسلَ محمَّد به رُسُله هو بأمر من الله وليس بأمر من عنده؛ ولهذا قال: (بسم الله الرّحمن الرّحيم)، أي: إنَّ محمَّد خاطب كسرى باسم الله وليس باسم محمَّد؛ ذلك لأنَّ مهمّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام (مبلِّغًا ومبشرًا ومنذرًا) وهذا ما تؤكّده رسالة (أسلِم تسلَم) التي تعني: (أسلِم) يا كسرى باتباع الحقّ والحياد عن الباطل (تسلَم) من عقاب الله وعذابه، وهذه تدلُّ على أنَّ المرسلين (حملة الرِّسالة إلى كسرى) هم من طرف محمّد، أمَّا المرسلين به إلى كسرى فهو بأمر الله الذي لو لم يأمر نبيه محمَّدًا أن يرسل رُسُله إلى كسرى بمقولة: (أسلِم تسلَم) ما أرسلهم إليه أبدًا؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[36].

ولأنَّ ما أُرسِل به محمَّد هو رسالة هداية وليست رسالة إكراه ولا مقاتلة أَرسَلَ رُسله بالدّعوة إلى ما أمره الله أن يدعو إليه؛ ولهذا قال في رسالته

---

[35] السيرة النبوية لابن كثير 508/3.

[36] الإسراء: 105.

لكسرى: (وأدعوك بدعاية الله) وهي الدّعاية التي شاءها الله أن تكون هداية ودعوة للحقّ؛ ولذ فيا كسرى يا عظيم فارس (أسلِم تسلَم) من المترتب على الكفر بالله تعالى، وعلينا أن لا نغفل عن الكلمة التي صاغها رسول الله – صلى الله عليه وسلّم– بقوله: (إلى كسرى عظيم فارس) فهنا جاء وُرود كلمة (عظيم)؛ لتدلّ على الاعتراف بالآخر هو كما هو عليه بغاية أخذه إلى ما ينبغي أن يكون عليه في سلام، وهذه تنسجم مع مقولة الهداية والسَّلام: (أسلِم تسلَم).

أمَّا في حالة التولِّي فقد قال في رسالته إلى هرقل: "بسم الله الرّحمن الرّحيم من محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الرّوم: سلام على من اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فإنّي أدعوك بدعوة الإسلام، (أسلِم تسلَم) يؤتك الله أجرك مرّتين، وإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين"[37]، قال: (فإنْ توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيِّين)، هذا ما قاله بالتمام، ولم يقل: (فإنْ توليت سأقاتلك بالسَّيف)، وفي افتتاحية هذه الرِّسالة: (بسم الله الرّحمن الرّحيم) كما قالها افتتاحيَّة رسالته إلى كسرى بالتمام، وهذا القول (باسم الله) يرسخ أنَّه المأمور من عند الله؛ الذي لا يحقّ له أن يتكلّم باسمه لو لم يأذن له ويفوضه بذلك، وقال: (أدعوك بدعوة الإسلام) ولم يقل: (أدعوك بدعوة الاقتتال)؛ ذلك لأنَّ دعوة السَّلام هي دعوة من الله وليس بدعوة من محمَّد فما محمَّد إلَّا رسولٌ مبشّرٌ ونذيرٌ.

[37] البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران (4278). مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النّبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (1773).

وفي الرِّسالة الموجّهة إلى المقوقس قال: "بسم الله الرّحمن الرّحيم مِن محمَّد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد: فإنّي أدعوك بدعوة الإسلام أسلِم تسلَم يؤتك الله أجرك مرَّتين: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[38] قال: (فإن توليت فعليك إثم القبط)[39]، ولم يقل له: (فإنْ توليت سأرسل إليك جيش المسلمين يقاتلك).

وعليه: كان لمضمون الرّسائل مفهومٌ مفاده: في كل الأحوال إنْ لم تقبلوا بما أرسلتُ به رُسُلي إليكم نصحًا، وتبشيرًا، وإنذارًا، وتسليمًا (تصديقًا) فإنَّ أثم وذنب شعوبكم وأقوامكم التي تتحكَّمون في أمورهم وشئونهم ستكون أوزارًا على ظهوركم وستحاسبون عليها أمام الله؛ ولذلك جاء أمر الله (أسلِم تسلَم).

ولأنَّ ما تَصدَّر به مفهوم: (أسلِمْ تسلَمْ) لا إكراه فيه؛ جاء عجزه مؤكّدًا للمفهوم ذاته وساندًا له بلا إكراه، (فإن توليت فإن عليك إثم جميع الأريسيّين)، وهكذا جاء الصَّدر في رسالة كسرى: (أسلِم تسلَم) وجاء العَجُز: (فإن أبيت، فإنَّ إثم المجوس عليك).

كما أنَّ مفهوم (أسلِم تسلَمْ) مفهومٌ إنذاريٌّ، أي: وكأنَّ المفهوم يقول: إن لم تسلِمْ ستقع في مصائب نحن نعلمها، ويا ليتك تعلمها؛ حتى لا تقع

---

[38] آل عمران: 64.

[39] عبد الرّحمن بن حسن التميمي، المطلب الحميد في تبيان مقاصد التوحيد، دار الهداية للطباعة والنشر، 1991م، ص 151.

فيها عن غفلة، ومن ثَمَّ فمن يرغب في معرفتها فعليه بما يكسر وهمه وهو: (الإسلام)، وإلّا سيفاجئ بما لم يعلم، والإسلام يعلمه.

ولذا فرسالة: (أسلِم تسلَمْ) هي رسالةُ كَسْرِ وهمِ الذين ظنوا أنَّ رسالة محمَّد هي رسالة إكراه بحدِّ السَّيف، وعندما تبيّن لهم أنَّها ليست كذلك فمعظم الملوك قد أسلموا؛ إذ أسلم النجاشي ملك الحبشة، الذي أرسل الرَّسُول إليه رُسله برسالته الشهيرة بنصّها وأثرها العظيم على النجاشي الذي اتبع أمر الرّسالة والتسليم بالرّسول وما يهدي به، وما يهدي إليه؛ فكانت الرّسالة: "بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا كتاب من محمَّد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسوله، فأسلِم تسلَم: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[40]، فإنْ أبيت فعليك إثم النصارى من قومك"[41].

وهكذا أسلم جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين حكّام عُمان، والمنذر ملك البحرين، وكاد أن يسلم هرقل ملك الرّوم لو لم يغالبه الوهم. ولأنَّ كلمة (تسلَمْ) تعني: تنجو، إذن فمفهوم (أسلِم تسلَمْ) يعني: (أقبِل على ما يُنجيك)؛ وبهذا المعنى يصبح مدلول (أسلِم تسلَمْ) مدلول نصيحة مع وافر

[40] آل عمران: 64.

[41] دلائل النبوّة للبيهقي: (187/2)، السيرة النبويّة لابن إسحاق81/1.

الحرص على سلامة من يُدعى بالقول: (أسلِم تسلَم)؛ ولهذا فالفرق كبير بين من يقل لك: (أسلِم تسلَم)، ومن يقل لك: (استسلِم تسلَم)؛ فالفرق بينهما: أنَّ مفهوم الأولى متمركزٌ على التقدير والاحترام والحرص على سلامة المدعو، مما يجعل النصيحة لصالح المنصوح.

أمَّا مفهوم الثَّانية فمتمركزٌ على تحقير المدعو والتقليل من شأنه، وهنا تصبح النصيحة في صالح النَّاصح وليس المنصوح؛ ذلك لأنَّ الاستسلام فيه من الإذلال ما فيه مع تقديم المزيد من التنازلات السَّالبة للإرادة، والتي لا يمكن أن تكون في صالح المنصوح.

وعليه: فإنَّ (أسلِم تسلَم) تعني: (إذا أسلَمت سَلِمتَ) أي: إذا أسْلَمتَ نفسك لله –تعالى–سَلِمتْ ونجوت من معصية أمر الله.

مع العلم أنَّ مضمون (أسلِمْ تسلَمْ) مضمون تحفيزي، وكأنَّه يقول لك: لا تتأخّر فأنا متأكّدٌ من نجاتك وسلامتك إذا أخذت بما أنصحك به وأرشدك إليه باسم الله.

أسلِم تسلَمْ رسالة إيضاح وتبيين يملأها الحرصُ قيمةً وفضيلةً، وهي قاعدة أخلاقيّة إنسانيّة تعمُّ ولا تخصُّ، حتى وإن أُرسلت لمخصوصٍ؛ كونه المتولّي للأمر على أيِّ رقعة من الأرض وعلى أيّ شعب أو أمّة.

ولا شيء وراء مفهوم (أسلِم تسلَم) إلَّا بلوغ السَّلامة وتحقيقها؛ ذلك لأنَّ السَّلامةَ نجاةٌ من المتوقّع حدوثه يقينًا وهو الذي لم يتوقّعه من يتعلّق الأمر به؛ ولأنَّ وقوعه سيكون لا محالة مؤلما؛ وجب على من يعلم وهو المكلّف بالرِّسالة والتبليغ (الرَّسُول الكريم) أن يبلّغ كل المستهدفين بها، حتى

لا يؤخذون على حين غرّة؛ بغاية سلامتهم وسلامة من يتولّى رعاية أمرهم وشئونهم سياسةً واقتصادًا واجتماعًا.

و(أسلِم تسلَم) رسالةٌ مفتوحةٌ لكلِّ النَّاس دون استثناء فردًا وجماعةً ومجتمعًا وأممًا وشعوبًا؛ ولذا فمن سَلمت يداه من السّلب والنّهب والسّرقة وتزوير الوثائق والحقائق وكفر بها سَلم من العقاب والذّنب، ومن سلم لسانه من الذّم والقدح في أخلاق النَّاس وذممهم وكفر بها سلم من الفتنة والمطاردة، ومن سلم عقله (تذكرًا، وتفكّرًا، وتدبّرًا) وكفر بسوئها صنع له مستقبلًا مرضيًا في مرضاة الله تعالى، ومن سلم قلبه من البغض والحقد وكفر بهما نام مطمئنًا آمنًا، ومن سلمت نفسه من الحسد والكيد والمكر وكفر بها سكن قلوب النَّاس محبّة، ومن سلمت غريزته من إشباع الشّهوة المحرّمة وكفر بها موحدًا لله –تعالى– ومؤمنًا بالرُّسُل الكّرام وما جاءوا به مبشّرين ومنذرين ومحذّرين دخل الجنّة.

وعليه: فمن أخذ بالرِّسالةِ (أسلِم تسلَم) سَلِمَ مما ذكرنا ذنبًا وعقابًا، ومن كفر بها فلن يسلم مما يترتّب عليها ذنبًا وعقابًا.

ومع أنَّ للرّسالة (أسلِم تسلَم) مفهومها الدَّال عليها فإنَّ لكل كلمة منها مفهومًا خاصًّا به؛ فمفهوم كلمة (أسلِم) يشير إلى التخلّي عمَّا لا يجب وهو (اتباع الباطل) والأخذ بما يجب (اتباع الحقّ)، أي: إنَّ مفهوم رسالتها يشير إلى الذي حالته لم تكن على ما يجب أن يكون عليه، وأنَّ عقله لا يدري بالضرر المترتّب على أخذه تلك المواقف التي جعلته على تلك الحالة التي لا بدَّ وأن تؤدِّي به إلى ذنبٍ وضررٍ وعقابٍ؛ ولأنَّ الذي خاطبه بالكلمة

(أسلِم) يدري بالمترتّب العقابي ولا يريده أن يقع فيه بوقوعه في ذنوبها قال له: (أسلم)، بمعنى: أخرج من تلك الطّريق (طريق التهلكة) قبل أن تلحقك التهلكة، ومن ثمَّ فـ(اسلم) تعني مما تعنيه (انتبه لنفسك فأنت في طريق التهلكة).

أمَّا كلمة (تسلَم) فتعني: (تنجو)، أي: إذا أخذت بالكلمة (أسلِم) تنجو مما أنت سالكه ومنتهجه (أسلِم تسلَم)، بمعني: خذ بالحق واتّبعه تنجو من المترتب ضررًا على ما أنت عليه وأنت لا تدري؛ ولهذا فالذين تبيّنوا الحقّ وأسلموا له تغيّرت أحوالهم من الضلال إلى الهداية كما هو حال معظم الملوك الذين خاطبهم سيدنا محمَّدٌ –صلى الله عليه وسلم- كما سبق تبيانه بقوله: (أسلِم تسلَم)؛ إذ أسلم النجاشي ملك الحبشة، وأسلم جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين حكّام عُمان، والمنذر ملك البحرين، وكاد أن يسلم هرقل ملك الرّوم لولا وهمٌ وقد غالبه.

إذن: فمفهوم الرِّسالة (أسلِم تسلَم) جاء مفهومًا تناصحيًّا إرشاديًّا بغاية إنقاذ المرسل إليه ولم يكن بغاية تهديده وتقليل شأنه أو العدوان عليه.

ولسائلٍ أنْ يتساءل:

وعلى ماذا تستند هذه المقولة: (أسلِم تسلَم)؟

أقول: تستند على قوله تعلى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[42]، إذن: لا إكراه بعد التبيُّن، وخير مُبيّن للذين لا يدركون الدّين

[42] البقرة: 256.

قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: (أسلِم تسلَم)، إنَّه القول الحق وكأنَّه الرِّسالة الملخّصة للرِّسالةِ.

وكذلك تستند رسالة (أسلِم تسلَم) على قوله تعالى: {مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[43]، أي: رسالتنا إليك يا محمَّد رسالة الكافَّة (وأنت رسول الكافَّة) فلا تستثني أحدًا وبشّر وأنذر بالسّلام؛ ذلك لأنَّه من يُسلِم يَسلَم:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[44]، في هذه الآية الكريمة تبيين وتحديد لمهمة الرَّسُول الكريم وهي التبشير والإنذار للكافَّة (أمرًا ونهيًا)؛ ذلك لأنَّ الله ربُّ الجميع ولا استثناء: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[45].

ولأنَّ رسالة الإسلام رسالة رحمة؛ قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[46]. أي إنَّها الرِّسالةُ الرّحمة والرَّسُولُ الرّحمة المبشّر والمنذر رحمةً بالعالمين؛ ولذا فمفهوم هذه الرِّسالة يعني مما يعنيه: لا للظلم والعدوان، لا للإكراه والاستعباد والاستبداد؛ ولهذا جاء مرتكز رسالة محمَّد (أسلِم تسلَم)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}[47] ولكلٍّ حسابه: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[48].

---

[43] سبأ: 28.

[44] الإسراء: 105.

[45] الكهف 29.

[46] الأنبياء: 107.

[47] الإسراء: 54.

[48] مريم: 93. 95.

وعليه: فقول الرَّسُول صلّى الله عليه وسلّم: (أسلِم تسلَم) قول حقّ (حقّ على الرَّسُول أن يقوله؛ لأنَّه المكلف بالتبشير به والتبليغ)، وكذلك حقّ لمن أُرسل الرُّسُل إليهم؛ كونهم لا يدرون بعد بالحق المنزَّل على محمَّد تنزيلًا من عند الله جلَّ جلاله، ومن ثمَّ فقول الحقّ لا يرتبط بالإكراه؛ ولذا جاء المفهوم بمعنى: فَقلهُ يا محمَّد، ثمّ اترك لمن يشاء اتباع الحقّ أنْ يتبعه ولمن شاء اتباع الباطل أنْ يتبعه، ولا محاسب ولا معاقب إلَّا الله وحده، ومن هنا فالإكراه مضاد للمشيئة الخلقية التي شاء الله أن يكون خلقه عليها: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[49]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[50]، مع العلم أنَّ هذا الاختلاف سيظل بينهم باقيًا ولن يزول إلّا بزوال الباطل الذي بزواله يسود الحقّ بين المهتدين بالحقِ والمتبعين له والعاملين عليه وعلى إحقاقه.

ولهذا فقد أرسل رسول الله رُسُله بالرِّسالة المرسّخة للهداية بلا إكراه: (أسلِم تسلَم) وهذه بالتمام رسّخت قوله تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[51].

وعليه: فمن يخالف هذا الأمر (أسلِم تسلَم) قد خالف أمر الله تعالى ورسوله الكريم، ومن هنا نلاحظ أنَّ مفهوم الرِّسالة (أسلِم تسلَم) موجّهٌ إلى أمرين:

---

[49] الكهف: 29.

[50] هود 118، 119.

[51] الكهف 29.

الأمر الأوَّل: إنَّ الرِّسالة موجّهة إلى المرسَل بها؛ كي لا يتصرّف بما يخالف الأمر المنزّل من الله -عزّ وجلّ- والمرسل به من قِبل رسول الله، وكذلك لا يخالف الإرادة والرّغبة بالنسبة إلى المرسل إليهم.

الأمر الثَّاني: إنَّ الرِّسالة موجهّة إلى المرسل إليه؛ لتبيّن له أهميّة الإرادة في اتخاذ القرار الذي سيترتّب على التبليغ بالمرسل به، ولا يخالف المشيئة الخَلقيَّة: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ).

ولذا فالدّين الإسلامي دين هداية؛ ودين الهداية لا يُمكن أن يسود بالإكراه والترعيب والتفخيخ وقتل النفس التي حرّم الله: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}[52]، وقال تعالى: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[53]، أي: من قتل نفسًا ظلمًا فكأنما قتل النَّاس جميعًا، وفي المقابل من أحياها بالحقِ عدالة ورحمة ومودّة وحُسن معاملة ولا إكراه فكأنَّما أحيا النَّاس جميعًا، وهذا الأمر وحده الذي بُعث الرُّسُل جميعهم به، وهو الأمر ذاته الذي أرسل به محمَّد رُسُلَهُ بالرِّسالة: (أسلِم تسلَم)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}[54]. يفهم من هذه الآية الكريمة حريّة الإرادة التي بها آمن من آمن وبها كفر من كفر؛ إذ لا إكراه في الدين، وهنا نلاحظ ما هو مستغرب مِن البعض وهم الذين يريدون أن يكره النَّاس باسم الدين الذي أمر الله ألّا

---

[52] الإسراء: 33.

[53] المائدة: 32.

[54] المائدة: 32.

يكون فيه إكراه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[55]، أي: قد تبيَّن الحقّ على أيدي الرُّسل المرسلين من الله –تعالى– وهم الذين جاءت رسالتهم الخاتمة على يد محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أسّس رسالته المرسلة إلى الملوك والحكّام على مفهوم الرِّسالة المنزّلة وروحها: (أسلِم تسلَم)[56].

القتل:

القتل إنهاك جهد المقتول وإبطاله من الفاعليَّة حتى يبلغ الحال به وهنًا أو دورانًا يفقده التوازن، أو يؤدّي به إلى الإغماء أو الإعاقة، والقتلُ مع أنَّه ليس بالإماتة فقد يؤدِّي إليها عندما تكون الأعمار التي هي بيد الله منتهية. أمَّا إذا لم تكن الأعمار منتهية فالقتل لا يميت؛ ولهذا في كلِّ التدافعات البشريَّة والاقتتالات بين الأمم والشُّعوب لم تقضِ عليها موتًا وإن قضت عليها قتلًا وهزيمة.

ومن ثمَّ فالقتلُ إنهاءُ حيويَّةِ الوجود للكائنِ الحي على يدٍ قاتلةٍ، وهو فعلٌ يؤدّي إلى الإماتة التي لم يكن أمرها بيد القاتل، ولهذا نهى الله عن أفعال القتل بغير حقٍّ، وأقرَّ العقاب الشَّديد للقاتل.

ولذا فالقتلُ لم يكن مقصدًا ولا غايةً مِن غاياتِ الرَّسُول وغزواتهِ التي كانت غايتها استرداد ذلك المسلوب والمنهوب والمصادر الذي استولى عليه

---

[55] البقرة: 256.

[56] عقيل حسين عقيل، معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة، 2022م، ص 89 – 101.

كفَّار قريش من ممتلكات وأموال المسلمين الذين تركوا كلّ ما عندهم وفرّوا إلى ربّهم مهاجرين في سبيله مع رسولهم الكريم إلى المدينة.

فتلك الممتلكات الواسعة التي تركها المهاجرون في مكَّةَ وهم مهاجرون إلى المدينةِ استولى كفَّار قريش عليها، وجمعوا لها القوافل وحمَّلوها على ظهور الإبل إلى الشّام؛ لبيعها واستبدالها ببضائع يعودون بها إلى مكَّةَ حيث مركز الكفر، الذي من بعد الفتح أصبحت مكَّة مركزًا لإشعال نور الله في الأرض حقًّا وعدلًا.

فبعد أن علم رسول الله بذلك أعدَّ لهم العدّة في أثناء عبورهم أراضي المدينة التي لم يراعِ كفَّار قريش حُرمة حدودها وسيادة أهليها عليها، ولكن كم من مرَّة عندما يعلم كفَّار قريش بخروج الرَّسول والذين معه إلى اعتراض قوافلهم المحمَّلة بتلك الممتلكات المستولى عليها ينحرفون إلى طُرُقٍ أخرى ويبتعدون عن العبور على أراضي دولة المدينة.

ولذا فالفرق كبير بين غزوات الرَّسُول التي تهدف إلى إعادة المسلوب والمستولى عليه بغير حقٍّ، وبين غزو أولئك الأفراد أو الجيوش بغاية الاستلاء على ممتلكات الغير، أو احتلال أوطانهم وطمس هويَّاتهم بغير حقٍّ.

وكما نميّزُ بين مفهومِ الغزو، وغزو الغازين؛ نميّز بين مفهوم القتلِ والإماتةِ؛ ذلك أنَّ مفهوم الغزوِ في أساسه غزوٌ بغير حقٍّ (ظُلْمًا وعدوانًا)، وفي المقابل إنَّ غزو الغازين لا يعدُّ إلَّا عدلًا وحقًّا؛ ولهذا فالغزاة بغير حقٍّ لا مفرَّ لهم من رفع أيديهم عن ذلك الحقّ المسلوب والمستولى عليه إلَّا غزوًا.

ولهذا لم يكن رَسُول الله يومًا غازيًا معتديًا، بل كان غازيًا لمن غزاه وقومه الذين معه؛ ولذا فإنَّ جميع غزوات الرَّسُول لم تكن غزواتٍ بادئةً، بل غزواتٍ رَادّةً (غزوات لردِّ الغازين واسترداد ما تمَّ غزوه).

ولأنَّه رَسُول الله المكلَّفُ بالرِّسالةِ دعوةً وتبشيرًا وتحريضًا؛ فلا يمكن له أنْ يغزو إلَّا في مرضاة الله تعالى، ومن ثمَّ فالرَّسُول محمَّد لا يغزو إلَّا باسم الله، ومن يغزو باسم الله وفي مرضاته لا يُهزم ولا يُقهر.

ومن هنا كان محمَّدٌ هو المنتصرُ في جميع الغزوات والمعارك التي قادها وشارك في خوضها، وبعرضنا لغزواته الرَّئيسة سيتم التبيُّن من الانتصارات التي كانت عين الله ترعاها في كلِّ الغزوات والمعارك، وكان المدَدُ من الله جنودًا لم ينقطع.

وعليه:

القتال قيمة تُفعل وقد يُكتب على النَّاس وهو كرهًا لهم، وعندما يُكتب كرهًا، يصبح الإقدام عليه ليس بالاختيار: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[57] إذن عندما يقاتلونكم كرهًا فلا بدَّ من مقاتلة من يقاتلونكم، ولا خيار في ذلك؛ فالقتال هنا دفاع عن النَّفس، أو عن البلد، أو عن الدِّين والشَّرف؛ ومن هنا فالقتال واحد والدِّفاع مختلف، والأسباب هي التي تحدّد نوع الدِّفاع؛ ذلك أنَّ الاعتداء

[57] سورة البقرة، الآية 190.

على الوطن يستوجب الدِّفاع عنه، والاعتداء على الشَّرف والكرامة يستوجب الدِّفاع عنهما، وهكذا.

وفي ما يخالف ذلك؛ فعلى سبيل المثال: عندما تتعرَّض للسَّرقة، قد تدفعك الأسباب إلى مقاتلة المعتدي، وعندما يستنجد بك مستنجد فالأسباب هي الأخرى قد تجعلك في حالة مقاتلة من لا تعرفه على الإطلاق، وتجد نفسك في مواجهة قتالية لم تكن في الحسبان، وذات نتائج لا تحمد عقباها.

والقتل قد يكون عقاب على فعل، القاتل يُقتل، وفي مقابل ذلك المجاهد لا يُقتل، إذن عندما تَقتل ظلمًا ليس لك من مفرّ إلّا أن تُقتل عقابًا على ارتكابك الفعل المحرَّم، والمقاتلة قد تكون واجبة عندما تكون لأجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، وقد تكون تنفيذ حكم المعاقبة، وقد تكون هكذا أمر واقع. ومن ثمَّ على المتحاورين أو القضاة أن يميزوا بين هذا وذاك، لكي يكون الحكم عادلًا.

والقتال من أجل ما يجب في مرضاة الله قيمة حميدة، والدِّين يُحرِّض عليه والله تعالى يجازي أحسن الجزاء وأعظم التواب، قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[58].

---

[58] التوبة 29.

بدون شكّ الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ ثمَّ يعتدون عليكم فحكم الله فيهم نافذ، ولهذا فعلى أهل الكتاب الذين نزلت رسالات السَّماء عليهم بِرُسلٍ كرام منهم لا حُجّة لهم بعد الرُّسُل، وفي المقابل الحُجَّة عليهم.

إذن القتال في مرضاة الله حقّ، أمَّا الحرب فأمرها غير ذلك؛ فعندما يتمّ الاعتداء على الحقوق والواجبات والمسئوليَّات أو شيء منها، تصبح حالة البلد وكأنَّها في حالة حرب؛ ولذا فمحاربة النَّاس في ما يجب أن يكون لهم لا يختلف كثيراً عن محاربتهم من الآخرين التي تُعدّ لها العُدّة، وتُسخّر لها الجيوش، وينفروا النَّاس من أجلها للمواجهة، من أجل إيقاف عجلة تقدّم المعتدين التي قد تداهم الأخضر واليابس، والمحاربون في كثير من الأحيان يُدرّبون على خوض المعارك، ويتقاضون المعاشات والمرتّبات مقابل ذلك، أي إنَّ الجيوش النّظاميَّة في جميع أنحاء العالم مُعدّون ومدرّبون على خوض المعارك التي تُرسم وتخطط مسبقًا من قبل المعتدين، والتي تواجهها خطط الدِّفاع من قبل المعتدي عليهم.

ومع أنَّ في زمن رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام كانت غزواته بلا مقابل سوى النَّصر أو القتل في مرضاة الله، فإنَّ من بعده وفي العصور التي لحقت فالأجرة أصبحت قيدًا وشرطًا، والأجرة هذه تدفع أجرة من بعده مقابل دخول المحارب المعارك أجرة تدفع إليه (أيَّام السِّلم وأيَّام الحرب)، ومن هنا أصبح المحارب لا خيار له فإنْ كتبت الحرب لا بدَّ عليه من دخولها، ومن يتأخر عن أداء المهام القتاليَّة والحربيَّة قد يجد نفسه في مواجهة العقاب بالموت.

وقد يتساءل البعض:

لماذا في بعض المعارك الحربيَّة القتاليَّة يحدث الاستسلام؟

نقول:

المحارب في ميدان المعركة، إذا لم يكن شريكًا في اتخاذ قرار الحرب ومقتنع بأنَّه حقّ، لا يمكن أن يكون محاربًا فاعلًا؛ فإذا عرف أن خوض الحرب من أجل الحرّيَّة، ومن أجل الجميع سيخوضها ببسالة، ولكن إذا عرف أنَّ خوض الحرب سيطيل عمر الحاكم الدِّكتاتور في بلاده، أو الحاكم غير الدِّيمقراطي أو غير الإنساني؛ فليس له بدّ إلَّا أن يستسلم للآخر حتى لا يَلقي بنفسه إلى التهلكة، وفي هذه الحالة يعتبر نفسه قد هزم الحاكم في عُقر داره دون أن يعلن عن ذلك.

وما يلاحظ من تزوير الحقائق وتشويهها في أثناء الحروب أنَّ وسائل الإعلام تنشط في تناقل أخبار المعارك، وفي كثير من الأحيان تُطمس الحقيقة؛ وذلك نتيجة اعتمادها على الّلغة وليس على المنطق؛ فالمنطق من مسئوليَّاته إظهار الحقيقة وتبيانها من أيِّ زيف، أمّا اللغة في مثل هذه الظّروف تتجرّد من كلّ منطق، لأجل أن تؤجّج نار الحرب التي في كثير من الأحيان تتّخذ بقرارات سياسية ووجهات نظر السِّياسيين، وليس بقرارات موضوعية؛ ولذا فلغة الحروب تعتمد على المغالطة وتزوير الحقائق، والمنطق

يعتمد على التصحيح والتصويب إلى ما يجب أن يكون. ولهذا فاللغة الإعلامية تهدف إلى إيقاد نار الحرب ومنطق الحوار يسعى إلى إطفاءها[59].

وللتمييز بين الغزوةِ والمعركةِ، نقول:

الغزوةُ: إعداد عُدّةٍ واستعدادٍ مع قبول التحدِّي من أجل حقوقٍ سُلبت ونُهبت ويودُّ لها أنْ تُردَّ، أو خروجًا لمواجهةِ مَن أتي قاصدًا إلى سلبها والحيلولة دونه، والهدف دائمًا ليس الاقتتال، بل الهدف الاسترداد، أو الحيلولة دون السَّلب والنَّهب والاستلاء على الأموال والممتلكات وأراضي الدَّولة وصون حرمتها وسيادتها وهويَّتها.

أمَّا المعركة: فلم تكن في زمن الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام إلَّا مترتِّبة على عدم الامتثال وعدم الاستجابة للطَّلب باسترداد المستولى عليه والذي تمت مصادرته من قِبل كفَّار قريش؛ ومن ثمَّ فلو كانت الاستجابة من قِبلهم باسترجاع المصادر من ممتلكات المسلمين لما دارت معهم رحى المعارك. وكذلك لو لم يأتوا معتدين على الرَّسُول وقومه من المسلمين ما خرج لهم الرَّسُول والذين معه رغبة في الاقتتال؛ ولهذا لم يخض الرَّسول معركة إلَّا وكُتب عليه خوضها والنَّصر حليفه من الله تعالى؛ ولذا فالرَّسُول لو لم يأمره الله بالقتال ما قاتل؛ ولذلك فقتال الرَّسُول كلُّه تنفيذٌ لأمر الله. ولأنَّه المأمور من الله تعالى بدخول المعارك التي كُتبت عليه فكيف له أنْ يُهزمَ! ولهذا فالمعركة في زمن الرَّسُول لم تحدث إلَّا بعلل عدم الاستجابة للسلم والمسالمة؛ ومن هنا

[59] عقيل حسين عقيل، من قيم القرآن (قيم استبصاريَّة)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، القاهرة: 2011م، ص 168 – 172.

أُذِنَ للرَّسُول الكريم أنْ يقاتل الظَّالمين: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}[60].

ولأنَّ إذن القتال للمظلومين جاء من عند الله، فلا شكَّ أنَّه كلَّما استجاب المظلومون لإذن الله كتب الله لهم النَّصر، ولتأكيد ذلك قال تعالى: (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)، بمعنى لا شكَّ في تحقيق النَّصر، ومن هنا فلا إمكانيَّة للهزيمة لمن يقاتل في مرضاة الله، بل الهزيمة لمن يقاتل في غير مرضاته جلَّ جلاله.

أمَّا القتل فهو بين النَّاس معارك، ورحاها تدور بين حقٍّ وباطلٍ؛ ولذلك فالقاتل يُقتل، ولا منقذ له إلَّا عفوًا وصفحًا، وفي المقابل لا مفرَّ من الإماتة وأمرها بيد الله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[61]

القتلُ قتلان:

القتلُ الحقُّ: وهو الذي أُذِنَ به لأهلِ الحقِّ بأنْ يقاتلوا من أجله دون أنْ يلتحفوا بلحافٍ باطلٍ: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[62].

---

[60] الحج 39، 40.

[61] الحج 39.

[62] البقرة 190.

وما يميّزُ بين قتلٍ وقتلٍ هو الفعل المترتّب على كلٍّ منهما (جنَّة أو نار)؛ "قَالَ عُمَرُ بن الخطاب لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: (بَلَى)[63]، أي من نعم الله وفضله أنْ يكون مصير أهل الحقّ في الجنَّة ومصير أهل الباطل في النَّار.

ومع أنَّ القتل ليس بالإماتة؛ فإنَّ قول الرَّسُول يوم أحدٍ: (قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ) جاءت هذه المقولة بمفهوم: موتانا في المعركة إلى الجنَّة، وموتاهم فيها إلى النَّار.

القتلُ الباطل: إنَّه القتل بلا حُجَّة، وهو قتل النَّفس التي حرَّم الله قتلها بغير حقّ: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}[64].

أمَّا الوفاةُ، فهي: استكمال حقوق واكتمال أعمار ليس لها إلَّا أن تنتهي، وهي غير منقوصة شيئًا؛ فلها ما لها، وعليها ما عليها؛ ومن هنا فالوفاة استكمال مهمّة لا تنتهي إلَّا بالموت، وهذا ما لم يحدث بالقتل: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[65].

---

[63] صحيح البخاري (4/ 22).

[64] المائدة 32.

[65] الزمر 42.

وعليه: الموتُ واحدٌ، ولا يكون إلّا بيد الواحد جلّ جلاله، ولا يتعدّد على الرُّغم من ثنائيّة الإماتة وتعدَّد الأموات، ومن هنا تتَّضح مفاهيم الواحديَّة من حيث التفرُّد بالأمر خَلقًا وإعجازًا وحياةً وموتًا وعدمًا وبعثًا.

ولأنَّ الحياة الدُّنيا يلاحقها الموت؛ فهي لم تكن حياة بقاء مثل الحياة على الأرض الجنَّة؛ ولذلك فكلّ تزاوج وتعدّد وتكاثر يصاحبه التناقص إلى النهاية ولا ديمومة للبقاء: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[66].

وسيظل الموت يلاحق الأحياء المتكاثرين إلى أنْ يقضي عليهم جميعًا، ويومها سيكون الموت آخر الأموات، ومن بعده جميع الأموات سيُبعثون إلَّا الموت لن يُبعث؛ إذ لا مكان له في الحياة الخالدة: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[67].

إذن: خُلق الموت كما خُلقت الحياة؛ وهو الأمر الطَّبيعي الذي لا بدَّ منه ما دامت الحياة الدُّنيا، ويعدُّ الموت حقًّا؛ لأنَّ الجميع متساوون في حقِّ تملُّكه بالحياة؛ ومن ثمَّ لن يأخذ أحدٌ هذا الحقّ من الآخر أو حتى يعتدي عليه، أو ينوب عنه فيه.

إذن: الموت آتٍ لا محالة، وبما أنَّه كذلك فلا خوف منه؛ لأنَّه لا أحد يستطيع أن يفعله وإنْ كان القتل سببًا من أسبابه؛ ولذلك فلا خوف من الموت بل الخوف من القتلة.

---

[66] الرّحمن: 26.

[67] نوح: 17، 18.

ولأنَّ الموت لا يكون إلَّا بأمر الله تعالى؛ فلا خوف منه؛ ذلك أنَّ أفعال الله كلَّها حقٌّ وعدلٌ، وفي المقابل وعن غير مقارنة فالقتل لا يكون إلَّا على أيدي بشر سواء أكان قتلُ حقّ أم قتلُ باطل.

ومع أنَّ الحياة والموت متعاقبان وجودًا وفقًا لقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[68]؛ فإنَّ فعل الموت إذا وقع لا يتكرر إلَّا إعجازًا من الذي بيده الأمر كلّه. ومع العلم عندما يُفعل الموت أمرًا ويؤدّي وظيفته بالقضاء على الحياة؛ فلا بدَّ له من أن يموت ويَفنى، أي: لن يكون له وجودٌ من بعد الفناء؛ ومن ثمَّ فيوم موته ستنبعث الحياة من جديد، ويصبح للحياة معنًى وأهميّة؛ لأنَّها بلا مخاوف ولا موت يلاحقها.

فالموت الذي كان يخيف كثيرًا من الأحياء لم يعد على قيد الحياة، ولن يُبعث للحياة من جديد؛ ومن ثمَّ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[69] أي: بعد البعث كلّ من عمل عملًا يجده في انتظاره ليجز به ثوابًا أو عقابًا.

وعليه: فلا مفرّ من الموت، ولكن بأعمالنا يمكن لنا الفرار إلى الجنَّة أو النَّار، وما أجمل المنطق الذي تحتويه الآية السَّابقة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}؛ ولذا لن يعاقب الله أحدًا إلّا بما قدّمت يداه، وهذا المنطق إحقاقُ حقٍّ به تتحقَّق العدالة الرَّبَّانيَّة.

[68] البقرة 28.

[69] الزلزلة: 7، 8.

إنَّ هذا الأمر يتعلّق بالموت الطَّبيعي وفاةً، أمَّا عندما يصبح الموت مطلبًا في مواجهة ظلم، ويجعل المواجهة في مرضاة الله فالأمر شيء آخر؛ قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}[70]، أي إنَّ رفض الباطل والقبول بدفع الثَّمن موتًا؛ من أجل إحقاق الحقّ في مرضاة الله؛ موتٌ وثمنه الخلود في الجنّة الخالدة؛ ولذا فالموت إمَّا أنْ يكون طبيعيًّا، وإمَّا أن يكون بثمنٍ قيمته بالتمام تساوي قيمة الرّفض للباطل والإقدام على إزهاقه.

ومن ثمَّ فكلّما اشتدّت التأزُّمات وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هُم في دائرة الرّفض؛ أصبح الموت مطلبًا مع توافر الرَّغبة؛ ولهذا يفقد الشُّرطي سلاحه، والواعظ حُجَّته، وقمّة السُّلطان كرسيّه ويصبح كلّ منهم ضحيَّة بلا ثمن عندما تكون أقوالهم وأفعالهم على غير حقّ؛ ومن هنا فإذا قرَّرَ الرَّافض للباطل قبول الموت ثمنًا لنيل الحريَّة والحياة الخالدة كان موته وافيًا كمالًا وجمالًا.

وعليه: فمن يقرّر أنْ يواجهك عن إرادة؛ فلا تستهين بأمره، وعليك أن تعرف أنَّ الرَّفض عن إرادة كفيلٌ بأن يُنجز في دائرة الممكن غير المتوقَّع ما لم يكن في دائرة الحسبان متوقَّعًا.

---

[70] مُحمَّد: 4.

لذلك فالموت عن إرادة وإن كان سالبًا للحياة يتحوَّل إلى قيمة عالية تنال الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملًا يرجو الإصلاح أو بلوغ الحلّ، أو صدّ خطر يحاك ضدّ الشّرف والدِّين والقيم الخيِّرة والفضائل الحميدة؛ ولهذا تُعد العُدّة إرادة؛ من أجل تحرير الأرض، وصون العِرض، وإرهاب الذين يريدون الجبن سائدًا بين النَّاس.

ومن هنا فالنَّصرُ لا تُحقّقهُ المعدَّات الحربيَّة مهما تطوَّرت، بل النَّصر عبر التَّاريخ يحقِّقه من يمتلك القرار مع المقدرة على التنفيذ، مما يجعل قبول الموت من أجل الحياة المطلب الرَّئيس؛ ولهذا فالشُّعوب التي حرَّرت أراضيها حرَّرتها بهذا القرار حتّى ولو اتَّخذت سلاحها الحجارة[71]، ومن هنا العرب تقول: (من يطلب الموت في سبيل الكرامة تكتب له الحياة الخالدة).

ومع أنَّ الموت مخلوقٌ مثل غيره من المخلوقات العظيمة، فإنَّه ليس في حاجة لمن يطلبه، فهو آتٍ يقينًا، وله مهمَّة كُتبت عليه: موت الأحياء؛ ولهذا مهما بلغ التكاثر فلا مغالبة للموت في الحياة الدنيا، ولا حذر منه، إنَّه آتٍ لا محالة سلمًا أو حربًا: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}[72].

ومع أنَّ الموت لا يلاحق إلَّا الوجود الحي، فإنَّه من بعد مغالبته للوجود الحي والقضاء على الأحياء جميعهم موتًا؛ ليس له إلَّا أن يستكمل مهمّته التي خُلق من أجلها؛ ولا استكمال لمهمَّة الموت بعد أن يقضي على كلِّ

---

[71] عقيل حسين عقيل، الرّفض استشعار حرية، شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 184. 186.

[72] النساء: 78.

مَن كان حيًّا من المخلوقات إلَّا القضاء على نفسه إماتةً، أي: بعد أن يقضي على المخلوقات الحيّة كلّها ولم يعد أحد على قيد الوجود حيًّا؛ فلا بدَّ وأن يقضي على وجوده أمرًا من الحي الذي لا يموت جلَّ جلاله، وبموت الموت يظل موته سرمديًّا؛ إذ لا أمل له في الحياة الباقية.

وعليه: فإنَّ الموتَ عدلٌ من الله تعالى، فلا أحد ينوب فيه عن الغير، ولا يَؤْخُذُ أحدًا بدلًا من آخر، ولا يكون على حِساب آخر أبدًا، ولا يأتي في غير موعده: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[73].

ولذا فالموتُ لا يخيف، بل الذي يخيف المرض، والظّلم، والعدوان، والسّلب والنّهب، والتقتيل؛ ولهذا يسعى الإنسان إلى تفادي وتجنب كلّ ما يؤدّي إلى ألمٍ، ولكن عندما يصبح الموت حقًّا فالمطالبة به ضرورة، والإقدام عليه يُخلّص من المؤلم والمؤذي، فالموت وإن كان موتًا ينبغي الإقدام عليه إن كان الإقدام عليه في مرضاة الله.

وعليه: فإنَّ الموت لا يلاحق إلّا الأحياء وجودًا؛ ولهذا بما أنَّ الإنسان على قيد الحياة وجودًا، فوجوده على قيدها يمر بأربع مراحل: (الموتتان، والإحياءان) وهما وفقًا للآتي:

المرحلة الأولى: وجود عناصر خلقك موتًا.

المرحلة الثَّانية: إحياؤك وجودًا من الموت.

---

[73] الرحمن: 26، 27.

المرحلة الثَّالثة: إماتتك من بعد وجودك الأوَّل، وتحولك رفاتًا بالية (أثرًا وعدمًا).

المرحلة الرَّابعة: الإحياء من الموت والانتقال من الحياة الدُّنيا إلى الحياة العُليا الباقية، ولكلٍّ عمله؛ قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}[74]، فقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} يعني كما سبق تبيانه: إخراج الأحياء من المادة القابلة للإحياء وهي ذات الوجود الأوَّل عن غير هيئة ولا صورة خاصّة، أمَّا قوله: {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} فيعني مما يعنيه إخراج الموتى من جديد لعالم الحياة الباقية.

ولمتسائل أن يتساءل: من هو الميّت الذي سيتم إخراجه من الحي؟ أي: كيف يمكن لنا أن نعرف المقصود بالميت والحي وفقًا للآية {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}؟

أقول: المقصود بقوله: {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ} هو الميت الذي سبق وأن كان حيًّا، وقد مات وأصبح عدمًا وأثرًا.

أمَّا المقصود بقوله: (مِنَ الْحَيِّ) هو: إخراج الذي كان ميّتًا من ذلك الأثر الوجودي عدمًا، مما يجعل هذا الإخراج مختلفًا عن ذلك الإحياء الأوَّل من الطِّينة الخلقيَّة للأنواع والأجناس، أي إنَّه إحياء الموتى من آثارهم التي أصبحت عدمًا دالًّا على نوعٍ أو جنسٍ سبق وأن كان حيًّا، وهذا الأثر عدمًا ما زال باقيًا (شاهدًا) على كلّ نوع وجنس، وهذا المفهوم أيضًا يدلُّ على أنَّ بقايا الرّفات البالية التي أصبحت عدمًا وأثرًا باقيًا، ولم تختف من

[74] الروم: 19.

الوجود؛ فهي ما زالت شاهدة على حياة سابقة لأولئك الأحياء؛ كونها لم تختف بالمطلق أبدًا عن قيد الوجود عدمًا؛ ومن هنا يتم إخراج أولئك الموتى أحياء كلٌّ من رفاته، وما بقي يكون شاهدًا عليهم (حيًّا) من أثرٍ وعدمٍ، أي: ما بقي من أولئك الموتى حيًّا (دليلًا شاهدًا عليهم) إلَّا الأثر المتبقي عدمًا من رفاتِ عظمٍ.

من هذا المفهوم نتبيّن أنَّ الأثر عندما يصبح بين اليدين دليلًا يوصف بأنَّه دليلٌ حيٌّ؛ ولهذا فبقاء الأثر على قيد الوجود يعدُّ الدَّليل الحي والشَّاهد على صاحبه الذي لم يعد على قيد الحياة وجودًا؛ ومن هنا يخرج الميت من الحي، أي: يخرج الأموات كلّهم أحياء من رفاتهم الذي بَلِيَ وأصبح عدمًا وأثرًا؛ قال تعالى: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[75].

إنَّ قوله: (مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) قولُ إثبات أنَّ تلك العظام التي أصبحت رميمًا هي العظام بلا حياة، ومع أنَّها الفاقدة لمعطيات الحياة، فإنَّ وجودها وإن كان أثرًا وعدمًا يعد شاهدًا حيًّا دالًّا على أثر الأموات.

أمَّا قوله: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) فيفهم من هذا القول الكريم أمران:

الأمر الأوَّل: أنَّ تلك العظام التي أصبحت عدمًا رميمًا قد سبق وأن أُحييت من الموت من تلك النشأة الأولى.

---

[75] يس: 78، 79.

الأمر الثّاني: أنَّ العظام الرَّميمة سيتم إحياؤها مرّة أخرى.

ويفهم من الآيتين السّابقتين أيضًا أنَّ الذي يحيي العظام وهي رميم هو الذي أحياها أوّل مرّة، أي: الذي أحياها من الموتة الأولى، ومن ثمَّ يفهم أنَّ الإحياء ثانيّة لا يكون إلَّا لتلك العظام الرَّميمة؛ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[76]. فقوله: (وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا)، أي: انظر إلى تلك العظام التي أمامك عدمًا لتنظر كيف يتم نشزها ونظمها على الصّورة لذلك الحمار هيكلًا عظميًّا قائمًا على الأرض بعد أن كانت عظامًا بالية ومبعثرَة فيها أو مقبورة، ثمّ انظر كيف تُكسى بأمرنا لحمًا؛ لتكون الصُّورة واضحة أمامك كيف تحيا العظام بأمرنا وهي رميم.

[76] البقرة: 258، 259.

وعليه: فإنَّ هذه الآيات الكريمات تبيّن لنا أنَّ الحياة الثَّانية لا تكون إلَّا مِن ذلك الرَّميم الذي يبقى شاهدًا حيًّا على أولئك الأموات[77].

[77] عقيل حسين عقيل، موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م، ص 123 – 130.

غزواتُ رَسُولِ الله

ولمزيدٍ من التوضيح لمفهوم غزوات الرَّسُول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام أستعرض بعض غزواته الرَّئيسة التي غزاها، وهي:

غزوة ودَّان:

هي أوَّل غزوة خرج رسول الله إليها، وكانت في شهر صفر من السَّنة الثَّانية للهجرة من يونيو في العام 623م[78]، فعندما علم الرَّسول الكريم بعبور قوافل قريش بتلك الممتلكات المستولى عليها من المسلمين الذين هاجروا معه وتركوها هناك في مكّة؛ دعا أهلها والذين معه إلى الخروج لملاقاة الذين أناخوا لها الإبل وحمَّلوها على ظهورها قوافل، وبها يتوجّهوا إلى الشَّام ليستبدلوها بالبديل الذي هم في حاجة إليه، ولكن القافلة انحرفت عن الطَّريق بعد أن علم سائقوها بخروج الرَّسُول والذين معه لملاقاتهم غزوًا.

وما يُلفت الانتباه إليه في هذه الغزوة: أنَّها ذات مغزى خاصّ ألا وهو الغزو بالدّين الذي تمثل في الاتصال والالتقاء بقبيلة ضمرة التي أخذت بما جاءها به الرَّسُول من رسالة، حتى أنَّها عقدت معه عهدًا وموثقًا والتزمت به.

وما يلفت الانتباه أيضًا أنَّ هذه الغزوة كانت رسالة إنذار لكلِّ من يحاول عبور أراضي الدَّولة النَّاشئة (دولة المدينة) بدون إذنٍ مُسبق من رسولها؛

---

[78] الطبقات" لابن سعد 11/1، "السيرة النبوية" لابن هشام 591/1.

بمعنى ستكون القوافل العابرة بدون إذنٍ معرَّضةً للغزو والمواجهة، وذلك لغايتين:

الأولى: استرداد المستولى عليه من أموال وممتلكات المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة مع الرَّسُول الكريم واستولى عليها من بعدهم كفَّار قريش وعملوا على مصادرتها ثمَّ تصديرها إلى الشَّام لاستبدالها بغيرها من البضائع.

الثَّانيَّة: إشهار بسط السِّيادة على أراضي دولة المدينة، وأنَّ العبور عليها دون إذنٍ يعدُّ انتهاكًا للسِّيادة.

ولذلك في غزوة ودّان لم يحدث قتال، بل وُقِّعت معاهدة مع قبيلة بني ضمرة؛ حيث وادعت رسول الله هذه القبيلة بواسطة سيدهم آنذاك "مخشي بن عمرو الضّمري"، وكانت الموادعة على ألَّا يغزوها الرَّسُول- صلى الله عليه وسلم- ولا هم يغزوه، ولا يُكثّروا عليه ولا يعينوا عليه أحدًا[79].

وعليه: لقد سجَّل التَّاريخُ في صفحاتهِ أنَّ صفة ما حدث في ودّان هي صفة الغزوة التي كُلِّلت دون قتال بمكسبٍ عظيم (توقيع معاهدة مع قبيلة بني ضمرة) التي بتوقيعها على الحقّ غزى الحقُّ الباطل وحلَّ محلَّه؛ ولعلّ هذه كانت من أهمّ نتائج غزوة ودَّان التي لم يترتّب عليها قتالٌ، بل اتسعت رقعة الجغرافيا لدولة المدينة بغزوة سلام بها بُسطت السَّيطرة على ودّان وتثبيتها تحت راية المدينة هويَّة وسيادة.

[79] المغازي للواقدي 12/1، "السيرة النبوية" لابن هشام 240/2

غزوة بواط:

وقعت غزوة بواط في شهر ربيع الأوَّل سنة 2هـ في سبتمبر من العام 623م؛ وذلك حينما علم رسول الله بأنَّ قوافل قريش ستعبر أراضي دولة المدينة، وهي محمَّلة بذلك المنهوب والمستولى عليه من ممتلكات المسلمين التي استولى عليها كفَّار قريش بعد ما هاجر أهلها مع الرَّسول الكريم إلى المدينة؛ فعندما علم رسول الله بذلك خرج لمواجهتهم بغاية استرداد المسلوب والمنهوب والمستولى عليه وإعادته حقًّا لأهله، ولكن عندما علم أميَّة بن خلف الذي كان قائدًا لتلك القوافل المحمَّلة بأرزاق المسلمين أمر الذين معه بالإسراع في خطاهم والقافلة؛ ليبتعدوا عن حدود الدّولة المدنية النَّاشئة وعدم مواجهة القوَّة التي أعدَّها رَسُول الله لذلك؛ ومن ثمَّ فلم يحدث القتال، وقد ازدادت منعة المسلمين، وظهرت مقدرتهم وقوَّتهم على حماية دولتهم وصون حدودها، ومن هنا وصلت الرِّسالة إلى كفَّار قريش بأنَّ رسول الله والذين معه أصبحوا قوَّة وهم قد قرّروا غزو مَنْ غزاهم واستولى على ممتلكاتهم ثمَّ جاء ليعبر أراضي دولتهم النَّاشئة[80].

غزوة العشيرة:

حدثتْ غزوة العشيرة بأسباب التمسّك بالحقّوق التي لا بدَّ أن تعود إلى أهلها؛ إذ إنَّ كفَّار قريش قد استولوا على أموال المهاجرين من المسلمين بعد أن تركوها في مكة وهاجروا من أجل دينهم وعقيدتهم وأنفسهم إلى

[80] المغازي" للواقدي 12/1، "السيرة النبوية" لابن هشام 240/2

المدينة؛ ولذلك كان لا مفرَّ من اعتراض قوافل قريش التي تمرّ ما بين مكّة والشَّام، لاسترداد ما سُلب أو جزءًا منه؛ لذلك كان السَّببُ المباشر لهذه الغزوة اعتراض عير قريش التي كانت تعبر إلى الشَّام دون أن تضع اعتبارًا لسيادة أهلها وحقوقهم المسلوبة والمنهوبة والمسروقة.

ولذلك خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في نحو 150 من المهاجرين، ومعهم نحو 30 بعيرًا، لاعتراض قافلة قريش المعبأة بذلك المستولى عليه والذِّهاب به إلى الشَّام؛ ولكن بعد أن وجد الرَّسُول أنَّ القافلة وقد مرَّت قبل وصولهم إليها؛ توجَّه إلى بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة وعقد معهم اتفاقًا بعدم الاعتداء[81]؛ ومن ثمَّ انتهت الغزوة بعهدٍ ودون أيِّ قتال؛ ولهذا انتهت هذه الغزوة هي الأخرى بمغزيين: المغزى الأوَّل: التبشير بالرِّسالة، والمغزى الثَّاني: إنذار المعتدين الغزاة بأنَّهم عندما يكونون في مرمى الغزو لا بدَّ وأن يتمَّ غزوهم؛ لاسترداد تلك الحقوق المصادرة بغير حقٍّ.

وعليه كل الغزوات السَّابقة لم يجرِ قتالٌ فيها، بل بسلامٍ غُزِيت تلك المساحات الشَّاسعة، وأصبحت تحت مظلة دولة المدينة ووُثِّقت المواثيق وعقدت الاتفاقيَّات بين رسول الله والذين معه وتلك القبائل وزعمائها؛ بما يرسخ السَّلام ويدعو إليه؛ اعترافًا بالرِّسالة ورسولها.

---

[81] الطبقات لابن سعد 10/2، "السيرة الحلبية" فصل غزوة ذي العشيرة، "السيرة النبوية" لابن هشام 601/2

غزوةُ بدر الكبرى:

وكما هو معروف لا معلول إلَّا ومن ورائه علَّة؛ فإنَّ العلَّة الكبرى لأهل الباطل هي الخوف مما يزهقه، ولا شيء يزهقه إلَّا الحقّ ساعة دمغه، ولأنَّ أهل الباطل لا يختنقون إلَّا مِنَ الحقِّ؛ فإنَّه لا صفة لهم إلَّا صفة الكفر؛ ولهذا فإنَّ الكافرين من القريشيين ضلوا: فنهبوا، واعتدوا، وظلموا، وقتلوا؛ وبدؤوا العداء والصِّدام حتى توّجِ اقتتالًا بين من أسلم وجهه للحقِّ مؤمنًا طائعًا ومن ضل عنه كافرًا ومشركًا.

ومع أنَّ الحقَّ واتباعه وسيادته واتساع دوائره هي القواعد القيميَّة فإنَّ سيادة الباطل استثناءً كان أكثرَ ظُلمةً وأكثر اتساعًا، ومع أنَّ البعض لا يرى الصِّدام إلَّا باطلًا فإنَّ البعض لا يراه إلَّا حلًّا؛ ولهذا أصبح الصِّدام مع الباطل حقًّا لمن أُعتدي عليه وظُلم.

ووفقًا لهذه القاعدة القيميَّة أصبحت دوائر الحقّ تتَّسع ودوائر الباطل تضيق؛ فكانت أوَّل معركة ينكسر فيها وَهمُ الظَّالمين مواجهة مع كفَّار قريش هي معركة بدر الكبرى التي جرت في السَّابعِ عشر من شهر رمضان من العالم الثَّاني للهجرة؛ إذ جرت المواجهة بين المجاهدين بقيادة رسول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام وكفَّار قريش وعلى رأسهم رأس الكفر أبي جهل.

ولأنَّه لا علّة إلَّا ومن خلفها معلولٌ فإنَّ علل المواجهة مع كفَّار قريش الذين سادوا ظُلمًا في مكَّة وما حولها في جزيرة العرب كانت بأسباب اتساع رقعة دولة المدينة التي هاجر إليها الرَّسُول والذين معه، والتي أصبحت تتمدد

وتتسع قوّةً وحُجَّة حتى أصبحت تلك الطُّرق التجاريَّة مع الشَّام تحت حُجَّتها حُجَّة.

ومن هنا كان لبسط السّيطرة والسِّيادة مع امتلاك القوَّة انكماشٌ للباطل؛ أي: أصبحت الكفَّةُ تميل ترجيحًا إلى قوّة شوكة المسلمين في مقابل انكماش شوكة الكافرين من قريش؛ وذلك من خلال قوَّة العقيدة التي غزت وسادت على حساب وهن الباطل وظلمه.

ومع أنَّ سيادة دولة المدينة وهويَّتها في زمن الرَّسُول جعلتا المواجهات مع كفَّارِ قريشٍ على مساحات جغرافيَّة واسعة؛ فإنَّ القوَّة الضَّاربة اتساعًا في الأرض كانت هي الحُجَّة (قيمة وفضيلة)؛ ولهذا فلم يكن الرَّسُول قاطع طرقٍ، بل فاتحًا لها حقًّا وعدلًا.

وعليه: كان تأمين سيادة الدَّولة يستوجب بسط القوَّة على أراضيها كلَّما اتسعت حقًّا ولا ظلم فيه؛ ولذلك بدأت قوَّة الإسلام تظهر حُجَّةً وبسط سيادة وترسيخ هويَّة.

إذن فلا مفرَّ من المواجهة مع أهل الباطل العابرين للحدود بلا إذنٍ مُسبق من أهل السِّيادة والهويَّة (سادة المدينة من مهاجرين وأنصار وهويَّتهم الإسلام الذي لا يُبشّر إلَّا بحقٍّ ويدعو إليه)؛ فأصبحت المواجهة ضرورة مع أولئك الكفَّار الذين ركبوا قوافلهم بما سلبوا ونهبوا من تلك الممتلكات التي تركها أهلها الذين هاجروا مؤمنين مسلمين مع الرَّسول الكريم إلى دولة المدينة.

وكان العابرون تجارةً وكفرًا من مكّة إلى الشَّام وَعِيرهم محمَّلة بالأرزاق المنهوبة من أولئك الذين هاجروا مع رسول الله حتى فاجأهم الخوف قوَّة متحدِّية للباطل وقادرة على غزوه وزهقه؛ إلَّا أنَّ القافلة قد نجت؛ بانحراف مسيرها إلى اتجاه السَّاحل؛ ومع ذلك كانت المواجهة شديدة بين من هدَّ جُسور الخوف، ونسف أنفاق التردّد، ومن كان عقله لا يقاتل إلَّا كفرًا عن ذلك المنهوب والمسلوب، فأنتصر أهل الحقّ وغنموا الكثير مما كان معدًّا للقتال بغير حقٍّ.

وإنَّ الغاية التي كانت من وراء المواجهة والقتال ليس لقطع الطُّرق كما يظن البعض وكأنَّ الرَّسول والذين معه لا يزيدون عن كونهم قطَّاع طرقٍ، بل الغاية استرداد المنهوب والمسروق والمستولى عليه باطلًا، وكذلك بغاية بسط سيادة دولة المدينة وترسيخ هويَّتها التي أصبحت تتسع في ربوع شبه الجزيرة العربيَّة هدايةً وبلا إكراه.

ولأنَّها الحرب فعللها وأسبابها كثيرة، وأكبر الأسباب التي كان كفَّار قريش يختنقون بها، هي: تلك التوسّعات التي بُسطت بها الهويَّة الإسلاميَّة من خلال عقد المواثيق والمعاهدات وإرسال الحُجج الحميدة سرايا ورسُل مبشِّرين وداعين للدِّين الجديد؛ ومن ثمَّ أصبحت المعارك معركة من بعد معركة حقًّا يدمغ باطلًا، حتى عمَّ الدِّين الإسلامي شبه الجزيرة العربيَّة، ثمّ تعدَّاها عبورًا للحدود. أمَّا بخصوص غزوة بدر الكبرى (معركة الفرقان)؛ مصداقًا لقوله تعلى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ}[82]

[82] الأنفال 41.

فعندما علم أبو سفيان بخروج المسلمين لأخذ القافلة، سلك بها طريق السَّاحل، وأرسل لاستنفار أهل مكة، فاستعدت قريش للخروج دفاعًا عن قافلتها، وحشدت كلّ طاقتها، ولم يتخلَّف منهم إلَّا القليل. ومع ذلك ظهرت الخلافات في جيش المشركين بعد نجاة القافلة بين راغب العودة دون قتال وبين مصرّ على القتال وكان رأس الاصرار على القتال أبي جهل، وقد غلب رأي أبي جهل أخيرًا، ومن ثمَّ فلم يعد هدف قريش نجاة القافلة، بل تأديب المسلمين، وتأمين طرق التجارة. ولما بلغ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم نجاة القافلة، وإصرار قريش على قتاله صلى الله عليه وسلم شاور أصحابه عامة؛ فكان القرار قبول المواجهة.

فكانت بداية المواجهة أنْ خرج ثلاثة من فرسان قريش للمبارزة وهم: عتبة بن ربيعة، وولده الوليد، وأخوه شيبة، فخرج ثلاثة من الأنصار لمواجهتهم فرفضوهم، وطلبوا مبارزة ثلاثة من المهاجرين، فأمر النبي ﷺ: عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي ابن أبي طالب، فخرجوا لهم وتمكَّنوا منهم فقتلوهم؛ ومن هنا؛ بدأت الاشتباكات الدَّامية التحامًا حتى فَرُغ ميدان المعركة من المنهزمين، ولم يبق في ميدانها إلَّا المنتصر، وأولئك الموتى والجرحى والأسرى من كفَّار قريش الذين تركوهم وراءهم وفرُّوا انهزامًا.

فمعركة بدر كانت معركة اللحمة الوطنيَّة (المهاجرين والأنصار) فمن أجل المعركة الوطنيَّة والهويَّة الإسلاميَّة عقد الرَّسُول ﷺ مجلسًا استشاريًّا مع أصحابه؛ فقام أبو بكر وعمر والمقداد فتكلموا وأحسنوا، فأعاد الرَّسُول ﷺ الأمر، وقال: أشيروا عليّ أيُّها النَّاس، ويريد بذلك الأنصار الذين بايعوه في العقبة على نصرته في ديارهم.

فقال سعد بن معاذ: قد آمنَّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة؛ فامض يا رسول الله لما أردت؛ فوالذي بعثك بالحقِ لو استعرضّت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منَّا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوًّا غدًا، وإنَّا لصُبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعلّ الله يريك منَّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

سُرّ رسول الله ﷺ بما قاله المهاجرون والأنصار، وقال: "سيروا وأبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين، والله لكأنِّي أنظر إلى مصارع القوم"[83].

ولأنَّ الرَّسُول الكريم لم يكن غازيًا ولا قاطعًا لطريقٍ فهو لا يتخذ قرارًا إلَّا ومشيئة الله فيه تصونه مِنَ النَّواقص، أي لو كان الرَّسُول قاطعًا لطريقٍ لكان قد أمر به تنزيلًا من العزيز الحكيم؛ فحتَّى القتال ذاته لو لم يأمره الله به ما قاتل أحدًا؛ ولهذا فقد أقرَّ الله القتال في سبيله لرسوله والذين معه، ولم يقرَّ لهم أن يكونوا قطَّاع طُرقٍ.

ومع أنَّ معركة بدر قد وقعت فإنَّ كيفيَّة التصرّف في الغنائم كانت مجهولة وغائبة حتى أمر الله بها تنزيلًا مفصَّلًا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[84]؛ ومن هنا أزيح الستار عمَّا أُختلف فيه قبل نزول هذه

---

[83] البداية والنهاية (3/ 413) ومسلم بشرح النووي، (12/ 84). الموقع الإلكتروني د. طارق سويدان، أسرار القيادة النبويَّة.

[84] الأنفال 1.

الآية الكريمة التي فَصَّلت مشروعيَّة التصرُّف في الأنفال، وكيفيَّة تقسيمها وتوزيعها شرعًا.

وعلى الرُّغم من قلَّة عدد المسلمين مقارنةً مع تلك الأعداد من كفَّار قريش فإنَّ النَّصر كان حليفهم، ومع أنَّهم حقَّقوا نصرًا مؤزَّرًا فإنَّهم يؤمنون أنَّه لا نصر لهم إلَّا من عند الله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}[85]؛ ذلك أنَّهم يقاتلون في سبيله جلَّ جلاله، فمع أنَّهم أذلة حال؛ حيث قِلَّة العدد والعدَّة؛ فآزرهم الله بنصرٍ كسر به وَهَم الكافرين بأنَّ المسلمين قليلو العدد والعدَّة ولا يكون إلَّا أذلَّاء.

ومن هنا جاء قوله تعالى (أذلة) ولم يقل: (جبناء)؛ ذلك أنَّ الذِّلة لا تكون إلَّا عن ضعف حال وليس بفقدان رجولة وشجاعة، أمَّا الجبن فلا يكون إلَّا بفقدان الرُّجولة والشَّجاعة، أي إنَّ الجبان يتثاقل في الأرض كلَّما استشعر مواجهة، أمَّا الذي استشعر الذلَّ في نفسه فسيكون أكثر شراسة من غيره إذا دخل ميادين المواجهة والاقتتال؛ لأنَّه يمتلك حيويَّة الغضب التي تمدّه بالبسالة الممكِّنة من قبول الموت من أجل الحياة.

توجَّه الرَّسُول والذين معه إلى اعتراض تلك القوافل المعبأة بالمسروق والمسلوب والمنهوب والمستولى عليه من المسلمين الذين هاجروا وتركوه خلفهم من أجل دينهم وإنقاذ حياتهم وطاعة لأمر رسولهم الكريم؛ ولكن القافلة بعد أن استشعرت وعلمت بقدوم المسلمين لاعتراضها انحرفت تجاه السّاحل

---

85 آل عمران 123.

ونجت من المواجهة. إلّا أنَّ أبو سفيان أرسل لاستنفار أهل مكّة بهدف مقاتلة المسلمين.

وعليه: كانت نتائج هذه الغزوة:

. قبول المواجهة مع كفّار قريش، وقد تحقّق النَّصر للرَّسُول والذين معه في معركة بدر، مع ضمان الجنَّة من الله تعالى: {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[86].

. تثبيت سيادة دولة المدينة على بدرٍ وما حولها، بعد أنْ أصبحت مغزوّةٌ بدين الله تعالى على يدي رسول الله والذين معه.

غزوةُ ذي أَمَرّ:

بعد أن تواترتْ إلى رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام أنباءٌ عن تحالفٍ تشكَّل بين قبيلة بني محارب وهي واحدة من أشهر القبائل العربيَّة وقبيلة بني ثعلبة واحدة من القبائل اليهوديَّة التي كانت تقطن المدينة المنوَّرة؛ وذلك بغاية الإغارة على المدينة وسيادة أهلها؛ أعدَّ لهم الرَّسُول العُدَّة، وقَبِلَ بالمواجهة وقرَّر غزو من يريد أنْ يُنزل به غزوةً، وكان ذلك في محرّم من العام الثَّالث للهجرة.

[86] آل عمران 195.

فسار الرَّسُول إليهم في أربعمائة وخمسين مقاتلًا ما بين راكبٍ وراجلٍ، ليشعرهم والأعراب بقوَّة المسلمين، وفي أثناء السَّير في الطَّريق إليهم أمسكوا برَجُلٍ يقال له: جُبَار من بني ثعلبة، فأُدْخِل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمَّه إلى بلال رضي الله عنه ليعلِّمه الإسلام، وصار دليلًا مرشدًا لقوَّات المسلمين إلى تلك الأراضي التي يتخنّدق فيها الأعداء. ولكن المشركون من بني ثعلبة ومحارب علموا بمسير المسلمين إليهم، فتفرَّقوا وفرّوا إلى رؤوس الجبال، أمَّا النبي صلى الله عليه وسلم فقد وصل بقوَّته إلى مكان تجمُّعهم، وهو الماء المسمَّى بذي أَمَر، وبقي في نجد ما يقارب الشَّهر دون أن يلقى كيدًا من أحدٍ حتى عاد بسلامٍ إلى المدينة، وقد أسلم على يديه بعض رؤوس القبائل[87].

وعليه: يفهم من هذه الغزوة أنَّ من بين مفاهيم الغزو المحمَّديَّة: الغزو وقاية، والغزو دفاعًا، والغزو هجومًا. وفي هذه المعركة بالذَّات اتضح الغزو وقاية، أي بعد أن علم الرَّسُول بإعداد العدّة من قِبل الأعداءِ لغزو المدينة أعد العدَّة وتوجَّه إليهم بغاية غزوهم قبل أن يعتدوا على المدينة ويغزو أهلها.

وتثبيتًا للقاعدة المنطقيَّة التي تقول: إذا علمت أنَّ الأعداء قد أعدوا لك العدّة لغزوك فهل تنتظرهم حتى يغزونك أم أن تعدّ لهم العدّة التي تمكّنك من غزو ما عندهم مِن عُدَّة قبل أن يغزونك بها؟

وفقًا لهذه المعطية المنطقيَّة كانت غزوات الرَّسُل تعدّ عدَّتها؛ ولهذا لم يكن الرَّسُول غازيًا معتديًا، بل غازيًا لمن أعدَّ له العدّة.

---

87 الإمام الواقدي 2/ 193 – 196. و(الدرر) للإمام ابن عبد البر، ص 148.

غزوة بحران:

عند ما علم رسول الله في ربيع الآخر من عام 3 هـ أنَّ جمعًا كبيرًا من بني سليم قد تجمَّعوا في تلك المنطقة من وادي حجر في الحجاز، وهم يعدّون العدَّةَ لغزو المدينة وأهلها، خرج إليهم ومعه 300 من أصحابه الكرام، حتى بلغوا بحران، ولكن عَلِمَ بنو سليم بذلك فأخلوا المكان وتفرّقوا؛ ولذا لم يجد رسول الله والذين معه أحدًا؛ فنزلوا المنطقة آمنين فيها حتى عادوا بسلامٍ إلى المدينة عاصمة الدَّولة الإسلاميَّة[88].

وعليه: كل المساحات التي انسحب بنو سليم منها غزاها الامتداد الإسلامي وأصبحت تمتثلُ لسيادة أهل المدينة.

ومن هنا تعدّ غزوةُ بحران غزوةُ حيطةٍ وحذرٍ، وكذلك غزوةُ لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، حيث فُسح المجال أمام تمدّد الرِّسالة المحمَّديَّة لتنتشر حقًّا على يدي رسولها عليه الصَّلاة والسَّلام، أي تنتشر في بقاعٍ جديدة من أرض الجزيرة. وأيضًا تعدّ غزوة بحران غزوة الحيطة والحذر التي جنَّبت المدينة وأهلها من غزوة بني سليم لما كانوا كفَّارًا، وهم الذين من بعد كفرهم زمنًا أصبحوا من المسلمين الذين زحفوا مبشّرين وفاتحين مع الفاتحين لشمال أفريقيا، وهكذا هي الأحوال تتغيّر وتتبدّل من سيئ إلى حسن ثمَّا إلى أحسن منه، حتى قوية شوكة المسلمين وأصبحوا سادة شعارهم في كل الغزوات والفتوحات (أسلِم تسلَم).

[88] الطبقات" لابن سعد 22/2، "السيرة النبوية" لابن هشام 50/2.

غزوةُ أُحد:

غزوةُ أُحد هي إحدى الغزوات الرَّئيسة بين كفَّار قريش ومن حالفهم ووالاهم والرَّسُول والذين معه من المسلمين، وقد وقعت هذه المعركة في شهر شوال من السَّنة الثَّالثة للهجرة، وحصلت بعد عام واحد من غزوة بدر الكبرى، وقبل يوم واحد من غزوة حمراء الأسد.

وقعت غزوة أُحد بين المشركين والمسلمين؛ حيث جمعت قريش حوالي ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة سفيان بن حرب، الذي قرَّر التوجّه بمقاتليه إلى المدينة المنوَّرة لغزوها وأهلها وإسقاط سيادتها وطمس هويَّتها، ولما علم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بنيّة المشركين وخطّتهم، جمع أصحابه واستشارهم في كيفيَّة مواجهة المشركين، وأخذ بما أقرَّوه تمامًا.

ومن الأسباب الرَّئيسة لغزوةِ أحد؛ مقت كفَّار قريش لرسُول الله وأصحابه بعد انتصارهم في غزوة بدر واستعادتهم لجلِّ ما سُلب منهم في مكَّة، فظلّت الغُصَّةُ في صدور كفَّار قريش تدور مع غُصَّة الأخذ بالثأر، فبدأوا يجمّعون الأموال لإعداد عدّة القتال ويحثّون من حولهم على التطوّع في دخول تلك المعركة، حتى استعدوا وتهيَّؤا وتأهّبوا للهجوم على المسلمين، لكنَّ عيون النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام بلغها خبر استعداد قريش للقتال، ووصل الخبر إلى النَّبيّ الكريم فاجتمع مع أصحابه مشاورًا إيَّاهم في الحال المستجدّ، فاستنفر المسلمون وبدأوا بجمع أسلحتهم ووضع المراقبة الحثيثة في مداخل المدينة وما حولها؛ استعدادًا للمواجهة وتهيّؤًا لها.

خرج الرَّسول والذين معه إلى أُحدٍ وفقًا للخطّة التي رسمها الرّسُول، وبدأت المواجهات العنيفة والقتلى من الجانبين يتساقطون وكذلك الجرحى، وكادت المعركة أن تُحسم لصالح الرَّسُول والذين معه من المقاتلين البالغ عددهم تقريبًا سبعمائة مقاتل، إلَّا أنَّ خللًا قد حدث من قِبل أولئك الرُّماة الذين طلب الرَّسُول منهم البقاء متأهّبين فوق قمّة جبل أحد، ليحموا ظهور المقاتلين وهم في سفح الجبل، ولكن أولئك الرُّماة عندما رأوا تقدّم المسلمين وإزاحة كفَّار قريش وإبعادهم مساحة مريحة عن سفح الجبل ظنوا أنَّ النَّصر وقد تحقّق، ولم يبقَ شيء أمامهم سوى جمع الغنائم؛ فنزل معظم الرُّماة وتركوا ظهر المقاتلين بلا قوَّة كافية للحماية؛ فانقض خالد بن الوليد من خلفهم بكتيبته واستولى على قمَّة الجبل، بعد أن قَتل مَن قَتل ممَّن تبقى منهم على قمَّة الجبل من الرُّماة، وأسَّر منهم من أسر، ثمَّ بدأ رُماته برمي أولئك المسلمين المتقدّمين على كفَّار قريش حتى أدمى فيهم، وأصبح المسلمون يُطوَّقونَ مِن قِبل المشركين لولا استبسالهم والقبول بدفع الثَّمن (نصرًا أو استشهادًا)، حتى فكّوا على أنفسهم، ومع ذلك ظلَّ القتال على أشدِّه متزامنًا مع الانسحاب، دون أنْ يتقدَّم كفَّار قريش تجاه المدينة.

كان القتلى من الجانبين والجرحى إلَّا أنَّ عدد القتلى من المسلمين كان يفوق عدد القتلى مِنَ المشركين، ومع ذلك انسحب كفَّار قريش إلى الخلف متفرّقين ولم يجتمع شتاتهم إلَّا في حمراء الأسد، وفي المقابل انسحب الرَّسُول والمقاتلين الذين معه إلى المدينة.

ومن هنا كان الليل فاصلًا بين المنسحبين (كفَّارًا ينسحبون تجاه مكَّة، ومسلمين ينسحبون تجاه المدينة)، وبمراجعة الانسحابين يلاحظ أنَّ المشركين

انسحبوا شتاتًا متفرّقين حتى حمراء الأسد التي تبعد حوالي العشرين كيلو مترًا تجاه مكّة، وفي المقابل انسحب الرَّسُول والذين معه أربعة كيلو مترات إلى المدينة، وظلت مقولة الرَّسُول باقيةً بين صحابته وباقية في صفحات التَّاريخ: "قتلانا في الجنة وقتلاهم في النَّار"[89]. أي لا خسارة لمن قُتلى في معركة ورجالاتها يدخلون الجنَّة، ومن هنا فلا هزيمة، بل كان الفوز للمسلمين وعلى رأسهم الرَّسُول الكريم الذي قَبِلَ ورجالته دفع الثَّمن من أجل الدِّفاع عن النّفس والدِّين وصون المدينة من العدوان الذي تراجعت رؤوسه وجنوده إلى الورى حيث لا رجعة.

إنَّ قبول الرَّسُول والذين معه بدفع الثَّمن (70) من الموتى في سبيل الله في أثناء المعركة؛ كان الثَّمنُ الحائل الكبير بين الكفَّار وهزيمة المسلمين في أُحدٍ، أي لو لم يقبل المسلمون بدفع الثَّمن لكان الكفَّار قد استولوا على أحدٍ ومن بعدها المدينة؛ ولكن عزَّة الله ونصره لرسُولِهِ كانت الضّربة البيّنة؛ حيث أنسحب المعتدون إلى الخلف حتى حمراء الأسد: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}[90].

تُبيّن هذه الآيات الكريمات:

[89] صحيح البخاري (4/ 22).

[90] الحج 38 – 40.

ـ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا؛ ولأنَّه يدافع عن الذين أمنوا لمجرد أنَّهم أمنوا، فكيف لا يدافع عنهم في معارك والرَّسُول يقودها؛ ولذا لا يمكن أنْ يُهزم من يقاتل في سبيل الله وباسم الله، ولا يمكن أن يُهزم من يدافع الله عنه.

ـ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ، ولأنَّ الله بالمطلق لا يحب كل خوان كفور، وأنَّ الذين قَدِموا عدوانًا على المسلمين في أحدٍ والمدينة هم الكافرون ورؤوسهم، فهل هؤلاء إذا واجهوا مَن يُحبّهم الله سيتحقَّق لهم النَّصر من الله الذي لا يحبَّهم؟

ـ إنَّ الله قد أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وبما أنَّ المقاتلين قد أَذن الله لهم بمقاتلة المعتدين، فهل مَنْ يأذن له الله بالقتال أنْ يخسر معركة إن كُتبت عليه؟؛ ذلك هو الله فإذا أذن بشيء تحقَّق (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).

ـ إنَّ الله تعالى قد أخصَّ المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ بالنَّصر؛ ولذا فمن يخصَّهُ الله بالنَّصر لا بدَّ وأن ينتصر (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ). وهذه الخصوصيَّة تشبه تلك الخصوصيَّة التي أخصَّ الله بها موسى وهارون عليمها الصَّلاة والسَّلام المرسلان إلى فرعون ليقولا له أمر الله ويبلغانه بالرِّسالة: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[91].

تُبيّن هذه الآيات الكريمة إنَّ الله عندما يأمر رُسُله بأمرٍ ويَقدِمونَ عليه يؤزَّرون بنصرٍ من عند الله؛ فذلك الفرعون بجبروته وطغيانه لم يستطع أن يفعل شيء بموسى وهارون؛ كونهما مَن أُمِرَ بأمر الله وهما الطَّائعان له؛ تلك هي قوَّة فرعون وجنوده وحرَّاسه تستسلم أمام أمر الله على يدي موسى وهارون (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى).

وهكذا بالتمام يوم أحدٍ استسلمت قوَّة كفَّار قريش ومن ولاهم على مقاتلة الرَّسُول والذين معه؛ فهم بعد أن جاءوا ظلمًا وعدوانًا بحملة جنودها من المقاتلين البالغ عددهم الثلاثة آلاف مقاتل تقريبًا؛ ولَّوا مدبرين إلى الورى؛ إذ واجهتهم مقاومة شديدة وعنيفة كان رجالاتها عازمين على الفداء أو النَّصر فكان الايمان والفداء هما المقدّمة للنَّصر.

معركة والمعتدون فيها قد انسحبوا إلى الاتجاه الذي جاءوا منه، ولم يتمكّنوا من البقاء في أُحدٍ ساعة واحدة بعد انتهاء الاقتتال، ولم يتقدَّموا تجاه المدينة قيد أنملة وهي التي كانت مقصدهم، فهل هؤلاء قد انتصروا؟ أم المنتصر الذي عاد إلى المدينة وهي في بهاء سيادتها؟

[91] طه 42 – 46.

وعليه: فهناك أمران مُلفتان للملاحظةِ وهما:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ كفَّار قريش الذين جاءوا غزاة للمدينة قد واجهتهم عاصفةُ الإسلام بمقاتلين في أحدٍ، حتى كادت أن تهزمهم لولا خللًا حدث من الظهير (الرُّماة الذين كانوا على قمَّة جبل أُحد).

الأمرُ الثَّاني: أنَّ الرَّسُول والذين قاتلوا معه استبسلوا في القتال مع الانسحاب إلى الخلف في اتجاه المدينة أخذًا للحيطةِ والحذرِ.

ومع أنَّ المسلمين كادوا أن يخسروا المعركة بدايتًا، فإنَّهم لم يخسروها غزوةً؛ بل الغزاة المعتدون الذين كانت خطَّتهم احتلال المدينة وإسقاط سيادة أهلها قد سقطت خطَّتهم وانكسر هجومهم فعادوا إلى الخلف منسحبين إلى الاتجاه الذي أتوا منه، ومن ثمَّ بقيت المدينة عاصمةُ الدّولة الاسلاميَّة صامدة بصمود رسولها وأهلها أمام تلك المواجهات الدَّامية يوم أحد.

فيوم أُحد لم يكن هزيمة للمسلمين أبدًا، بل كانت المعركة بين كرٍّ وفرٍّ للجانبين المتقاتلين (مقاتلة الحقِّ مع الباطلِ)، وفي النهاية بقيت أحدٌ تحت سيطرة محمَّد والذين معه ولم تبق أحدًا من بعد المعركة ساعة واحدة تحت سيطرة الغزاة: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[92].

[92] آل عمران 155.

وعليه لقد كان يوم أحدٍ يومًا لإعادة الغُزاة إلى حيث ما أتوا؛ إذ إنَّهم جميعًا قد انسحبوا متَّجهين إلى مكّة مسرعين وقتلاهم وجرحاهم على ظهور الإبل؛ ومن ثمَّ بقيت أحدٌ تحت سُلطان المدينة وهي باسطة السِّيادة عليها.

ولذا لو كان الرَّسُول والذين معه منهزمين يوم أُحدٍ لبقيت أحدٌ تحت سيطرة المهاجمين الذين جاءوا ليغزو المدينة؛ بل المنهزم هو الذي جاء غازيًا من مكَّة ثمَّ عاد منسحبًا إليها؛ وبعد أن توقّفت المعركة نهاية يوم أحدٍ، أصبحت يوم غدٍ المعركة في حمراء الأسد، وهي على بعد عشرون كيلو متر تقريبًا عن موقعة أحد التي تبعد أربعة كيلو متر تقريبًا عن المدينة، وهي التي قادها الرَّسول نصرًا من بعد نصر.

وما يلاحظ على جميع الغزوات الرَّسُوليَّة السَّابقة:

ـ أنَّ الرَّسُول لم يبدأ بغزوِ أَحدٍ من كان، بل يغزو من جاءه غازيًا، أو عدَّ عدَّته لذلك.

ـ أنَّ كلّ ما تمَّ غزوه من قِبل الرَّسُل لم يتم استرجاعه من قبل أولئك الغزاة المعتدين.

ـ أنَّ غزوةَ أُحدٌ كانت نصرًا للرَّسُول والمسلمين الذين دفعوا معهُ الثّمن غاليًا؛ من أجل الإسلام وسيادة دولتهم آن ذاك دولة المدينة، ولم تكن غزوةُ أحدٍ هزيمة وخسارة كما فسَّرها البعض، بل كانت للمسلمين غزوة والنّصرُ يتوِّجها، أي كيف لنا أن نعدّها هزيمة وخسارة وأُحدًا لم يحتلَّها الغزاة، ولم

يبقوا فيها ليلةً واحدةً، وكيف نعدَّها هزيمة ومعركة حمراء الأسد وقعت بعدها بيومٍ واحدٍ، وكان النَّصر فيها لرَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام؟!

ومع أنَّ الخلل الذي حدث في معركة أُحد من أولئك الرُّماة كان سببًا في المزيد من الخسائر في صفوف المسلمين، فإنَّه لم يؤدَّي إلى تحقيق الهزيمةً، بل كان النَّصرُ رِسَالة أُخرى قد وُجِّهت إلى كفَّار قريش الذين جاءوا من مكّة التي تبعد حوالي 385 كم، بغايةٍ في نفوسهم ولم تتحقّق، وهي:

. غَزوُ المدينة ومَن فيها مِن المسلمين، وهذه لم تتحقّق أبدًا.

. القضاء على رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، وهذه لم تتحقّق.

. رجعوا الغزّاة إلى مكَّة (من حيث أتوا)، ولم يحقِّقوا هدفًا واحدًا من هذين الهدفين الرَّئيسين، وهذه أكبر هزيمة لكفَّار قريش.

وعليه: أيعقل أن يخوض رَسُول الله غزوةٌ باسم الله وفيها يُهزم، وباستعراضنا لكلِّ الغزوات السَّابقة التي تمّ خوضها بقيادة الرَّسُول؛ كان النَّصرُ فيها حليفًا لرسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فالغزاة الذين جاءوا من مكّة لم يأتوا قاصدين أُحدًا، بل جاءوا قاصدين الدِّيار في المدينة التي تبعد عن مكَّة تقريبًا 385 كيلو متر، ولكن ملاقاة الرَّسُول لهم والذين معه في أحدٍ كانت وفق خطّة وقد رُسمت، بغاية تجنُّب المدينة والاقتتال فيها؛ وبذلك كان القتال في أُحدٍ على أشدِّه حتى انكسر العدو وعاد منسحبًا إلى الورى بدل أن يتقدَّم وفق ما خطّط له لغزو المدينة وأهلها. وفوق ذلك تمَّتْ ملاحقة العدو (كفَّار قريش) وهم منسحبون ومتراجعون في طريقهم إلى مكَّة، إلَّا أنَّهم بعد أن تجمَّعت قواتهم المنسحبة في منطقة حمراء الأسد تدارسوا

إمكانيَّة العودة هجومًا على المدينة، ولكن لما علم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بذلك جمَّع صحابته وأخبرهم بالأمر فقرّروا الخروج إليهم في يوم الغد من معركة أحد؛ لغزوهم حيث هم في حمراء الأسد، وهي الغزوة التي أصبحت تفاصيلها هي الأخرى بين أيدينا.

غزوةُ حمراءَ الأسد:

في صبيحة اليوم الذي تلا معركة أُحد طلب الرَّسول من بلال أنْ يُنادي في النَّاس للخروج إلى حمراء الأسد بعد أن عَلِمَ أنَّ كفَّار قريش جمَّعوا شتاتهم فيها وهم يفكِّرون في غزو المدينة، فنادى بلال وأكّد على كلِّ مَنْ شَهِدَ أُحدًا الاستعداد للذّهاب إلى حمراء الأسد بغاية مطاردة الغزاة وطردهم من الأراضي التي أصبحت تحت سيادة دولة المدينة وسيطرتها على الرُّغم من شدّة الجروح الدَّامية: {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}[93].

توجَّه الرَّسُول والذين معه إلى حمراء الأسد لملاحقة أولئك المنسحبين مِنْ كفَّار قريش الذين بلغه أنَّهم قد تجمعوا في حمراء الأسد ويفكّرون في العودة إلى غزو المدينة، ولكن لما علم كفَّار قريش بقدوم محمّد ومقاتليه؛ فزعوا ونزل الرّعب في نفوسهم وهم متثاقلين في جروحهم التي لحقت بهم في يوم الأمس بمعركة أحدٍ؛ ففرّوا عائدين إلى مكّة؛ ومن ثمَّ بقيت دولة المدينة حرّة ذات سيادة وهويَّة إسلاميَّة.

---

[93] النساء 104.

بقي الرَّسُول والذين معهُ ثلاثة أيَّام في حمراءِ الأسد وهم ببقائهم فيها تحدُّوا الغزاة؛ وبعد ذلك رجع الرَّسُول وأصحابه إلى المدينة وكأنَّ الجراح بلا ألم أو لم يصابوا بها، فانقلبوا من تلك المواجع والآلام؛ وذلك الانزعاج إلى معنويَّات قويَّة وهم في مرضاة الله راضون: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[94].

ونتيجةً لهذه الغزوة تبدّدت مشاعر الهزيمة واليأس التي أصابت الكثيرين منهم بعد غزوة أُحد، وأيّدهم الله -عزّ وجل؛ بقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[95].

غزوةُ الخندق:

وقعت غزوة الخندق في شهر ذي القعدة، في العام الخامس من الهجرة، بعد خيانة يهود بني النَّضير أحد سكان المدينة والحكم بإخراجهم منها إلى خيبر تجنّبًا لأيَّة فتنة داخليَّة، وبذلك قد زاد إخراجهم من المدينة من صبِّ نيران غضبهم على المسلمين؛ فبدأوا يجرون اتصالات مع كفَّار قريش في مكّة وهم الذين أهوتهم وأغوتهم هذه الدّعوة لغزو المدينة، وكذلك تواصلوا مع القبائل المحيطة بالمدينة بغاية الهجوم على المسلمين، فتحالفت جميع القبائل

[94] آل عمران 174.

[9595] آل عمران 172، 173.

المعادية للإسلام وتعصَّبت فتحزَّبت ووالت بعضها بغاية غزو المسلمين في ديارهم وأعدَّت العدّة الغازية لذلك[96].

ومع أنَّ اليهود أهل كتاب فإنَّهم عندما ذهبوا إلى كفَّار قريش ليتحالفوا معهم على غزو المدينة شهدوا لهم بأنَّهم على حقٍّ وهدى على الرُّغم من علمهم ومعرفتهم بما عليه قريش من شرك وضلال، فأنزل الله تعالى فيهم قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}[97].

بدأت أحداثُ غزوة الخندق بِخُروج الأحزاب بجميع قبائلهم، وكُلُّ قبيلةٍ مع قائِدها، فلمّا سمع النّبي –عليه الصلاة والسلام– بذلك، أمر الصَّحابة الكرام بِحفر الخندق الذي أشار به سلمان الفارسيّ –رضي الله عنه– حول المدينة.

ورابط الرَّسُول والذين معه حول الخندق استعدادًا للمواجهة وكلَّف رسول الله بعض صحابته بحماية المدينة وحراستها خوفًا مِن مزيدٍ مِن التآمر؛ ومع ذلك طرأ خلَاف بين اليهود وكفَّار قريش وفُرقة قد حدثت فأوهنت المقاتلين المعتدين حتى استسلموا وانسحبوا عائدين إلى مكّة من حيث ما أتوا.

وفوق كل ذلك كان عون الله عظيمًا فقد أرسل ريحًا عظيمًا شتّت جمع الغازين وأضعفت قوّتهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

---

[96] إسلام ويب، 11\7\2007م، غزوة الخندق وعبقرية التفكير.

[97] النساء 51.

جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}[98]. فكان النّصر بعد أن انقضت أيَّام المواجهة مع الغزاة وسلمت المدينة وانهزم الأحزاب وانسحبوا إلى المكان الذي أتوا منه.

وعليه فإنَّ هذه الغزوة وقد حدث القتال فيها على أشدِّه، وكان القتلى من الطَّرفين بين جنّة ونار، فإنَّ الغنيمة الكبرى التي غنمها الرَّسول والذين معه (رجالات الخندق) هي: كسر هيبة التحزُّب للباطل وهزيمة المتحزّبين.

ومن هنا فإنَّ مفهوم الغزوِ يدلُّ على قبول التحدّي والخروج إلى مواجهة المتحدّين؛ وكذلك يتبيّن أنَّ الغزو الحقّ لا يكون إلَّا من أجل الحقِّ وإحقاقه، وفي المقابل إنَّ الغزو الباطل عدوان يستوجب المواجهة بغزوٍ يقهره ويهزمه.

وعودٌ على بدءٍ: أرسولٌ ويُهزم؟

نقول:

الرَّسُول مُصطفيه الله، وهو حَافظه ومُرشده، ويُريده أنْ يتمَّ الرِّسالة التي لا تتم إلَّا بالتبليغ، وقبول المواجهة متى ما اعترضت سبيل المكلَّف بالتبليغ، فكيف لمؤمنٍ متيقِّنٍ لذلك ويظنُّ أنَّ الرَّسُول المكلّف من الله تعالى يُهزم أو يُغلب ويُقهر. وبخاصّة أنَّ الرَّسُول لا يمكن أن يخوض غزوة أو يدخل معركة إلَّا باسم الله؛ ولذا هل يعقل أن يُهْزَمَ محمَّدٌ رسول الله وهو يقاتل باسم الله في سبيل الله؟

[98] الأحزاب 9.

فتح مكّة (غزوة السَّلام):

بعد أن قرَّرَ الرَّسُول والذين معه التوجّه إلى مكّة لأداء العمرة؛ بعث كفّار قريش ببعضِ رجالهم إلى رسول الله يستفسرون عن سبب توجّههم إلى مكَّة؛ فبعثوا بديل بن ورقاء الخزاعي مع جماعة منهم، فسئل النَّبيَ عن نيَّتهِ تجاه مكّة، فأجابه: "إنَّا لم نجيء لِقتال أحدٍ، ولكنَّا جئنا معتمرين[99]. وكلمة معتمرين تتطلّب ارتداء ملابس الإحرام؛ حيث لا شيء مخفي مع صفاء النيَّة وصفاء المظهر وطهارته؛ حيث لا مكانة للسِّلاح ونيَّة الاقتتال.

ومع ذلك بعثت قريش المفاوضين والمحاورين لمحمّد والذين معه، كما أنَّ محمَّدًا أيضًا بعث المحاورين إليهم والمفاوضين، وبعد محاورات جرت بين النَّبي وقريش، وافقت قريش على زيارة المسلمين البيت الحرام لمدّة ثلاثة أيَّام، ولكنَّ هذه الموافقة لن تكون في هذا العام، بل في العام الذي يليه، وقَبِلَ الرَّسول ذلك وكُتب كتاب الصُّلح بينهم في الحديبية وفقًا لنص المعاهدة، وهو:

"باسمك اللهمَّ: هذا ما صُلح عليه محمَّد بن عبد الله وسهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب بين النَّاس عشر سنين يأمن فيها النَّاس ويكفّ بعضهم عن بعض. على أنَّه مَن قَدِمَ مكَّة من أصحاب محمَّد حاجًّا أو معتمرًا، أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومَن قَدِمَ المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشَّام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، وأنَّه من آتى محمَّدًا من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن

[99] سيد المرسلين: 2 / 331، نقلاً عن المغازي: 2 / 598.

جاء قريش ممن مع محمَّد لم يردوه عليه، وأنَّه بيننا عيبة مكفوفة، وأنَّه لا إسلال (لا سرقة) ولا إغلال (لا خيانة)، وأنَّه من أحب أن يدخل في عقد محمَّد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنَّك ترجع عنَّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكَّة، وأنَّه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الرَّاكب السِّيوف في القرب ولا تدخلها بغيرها، وأنَّ الهدي حيث ما جئناه ومحله فلا تقدِّمه علينا"[100].

وبعد أن تحقَّق ذلك بالتمام ونجحت الزّيارة وفقًا للمتّفق عليه خرج المسلمون من مكَّة بعد مكوثهم فيها ثلاثة أيَّام وقد أدوا زيارتهم ووفّوا بعهدهم والتزموا.

وبذلك صار الوضع السِّياسي للمسلمين قويًّا؛ إذ دخل أهل اليمن والبحرين في الإسلام، كما أنَّ علاقاتهم مع الحبشة ومصر ازدادت قوَّة ومتانة، فارتفع شأن المسلمين في شبه الجزيرة العربيَّة، في حين أصبح وضع قريش العسكري والسِّياسي يميل إلى الضّعف والوهن، وبخاصّة بعد فُقدانها لأهمّ فرسانها الذين تحوّلوا إلى معسكر الإسلام، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة[101].

---

[100] *بسيوني، محمود شريف، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، 2003.

[101] ابي الحسن الندوي (1425)، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (الطبعة الثانية عشرة)، دمشق: دار ابن كثير، صفحة 443، جزء 1

ومن ثمَّ كان صلح الحديبية السَّبب المباشر في فتح مكّة؛ فبعد أن تعاهد الرَّسُول مع قريش في ذلك الصُّلح على حرّيَّة انحياز الأفراد والجماعات إلى الطَّرف المختار، والدّخول في دينه ومعتقده، فمن أراد أن يدخل في حِلف الرَّسُول -صلّى الله عليه وسلّم- فله ذلك، ومن أراد أن يدخل في حِلف قريشٍ دخل فيه، وإنَّ أيّ اعتداءٍ على أيّ قبيلةٍ متحالفةٍ مع أحدِ الطَّرفين يُعتبر اعتداءً على الطَّرفِ نفسه، فانحازت بنو بكر إلى قريش، وانحاز بنو خزاعة إلى رسول الله، ودعمَ هذا الصُّلح الأمن بين القبيلتَين المتحاربتَين في الجاهليَّة، إلَّا أنَّه لم يدم طويلًا؛ ففي العام الثَّامن للهجرة وفي شهر شعبان بالتحديد؛ دبّرت بنو بكر مع قريش مكيدة، وخطّطوا للتآمر على بني خزاعة في مكّة؛ ظنًّا منهم بأنَّ الأخبار لن تصل إلى الرَّسُول في المدينة؛ فأغار بنو بكر على بني خزاعة ليلًا بعد أن أمدّتهم قريش بالسِّلاح، وقتلوا منهم ما قتلوا فالتجوا إلى الحرم، ولم تأخذ بنو بكرٍ بحرمةٍ البيت.

كان هذا الاعتداء انتهاكًا لبنود صلح الحديبية واعتداءً مباشرًا على المسلمين، فوصل الخبر إلى الرَّسُول الكريم، وبعد أن وصل الخبر إليه؛ أرسل رجلًا إلى قريش يُخيّرها في أنْ تدفع دية المقتولين من بني خزاعة، أو تردّ قريش على بني بكر حِلفهم، أو ينبذوا العهد مع رسول الله، فكان جوابهم نبذ العهد، وبهذا تأكّد الرَّسُول من موقفهم، واستوثق، فبرِئت ذمّة قريش من رسول الله[102].

---

[102] أحمد أحمد غلوش، السيرة النبوية والدّعوة في العهد المدني (الطَّبعة الأولى)، لبنان: مؤسَّسة الرِّسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م، ص 572.

تحرَّك رسول الله والذين معه من الأنصار والمهاجرين والقبائل العربيَّة المسلمة قاصدين مكَّة حتى وصلوا أطرافها المؤديّة إلى مداخلها، فخرج العبّاس على بغلة النبيّ؛ ليرى أمر قريش، فوجد أبا سفيان خارجًا يتجسّس الأخبار، فأخذه العبّاس إلى معسكر المسلمين، وحينما رآهم عمر أراد قتل أبا سفيان، إلّا أنَّ العبَّاس أجاره، وحضر أبو سفيان إلى النبيّ وأنكر عليه النبي بقاءه على الكفر، فأسلم أبو سفيان، فقال النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "مَن دخل دارَ أبي سفيانَ؛ فهو آمِنٌ، ومن أغلق بابَه؛ فهو آمِنٌ، ومن دخل المسجدَ؛ فهو آمِنٌ. فلمَّا ذهب لِينصرفَ؛ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: يا عباسُ احبِسْه بمضيقِ الوادي عند خطْمِ الجبلِ، حتى تمرَّ به جنودُ اللهِ فيراها". وبعد أنْ رأى أبو سفيان تلك الجنود أنطلق ينادي في أهل مكّة مُحذِّرًا بأنَّه لا طاقة لهم بالجيش القادم مع رسول الله، وسار رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام حتى وصل إلى ذي طوى، وفيها قسَّم الجيش وأصدر الأوامر ضبطًا وتنظيمًا.

توجّه المسلمون إلى مكَّةِ وهم يكبّرون حتى ارتجّت أركان مكّة بالتوحيد المعظَّم، ومعجزات الفتح وجنود الله تحوط الرَّسُول وهو يردّد بقوله: (جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ، إنَّ البَاطِلَ كانَ زَهُوقًا)، (جَاءَ الحَقُّ وما يُبْدِئُ البَاطِلُ وما يُعِيدُ) ثمَّ طاف بالبيت العتيق بعد أن حطَّم تلك الأصنام التي كانت من حول البيت[103].

---

[103] عبد الرحمن بن سعيد بن علي بن وهف القحطاني، غزوة فتح مكة في ضوء السنة المطهرة، الطبعة الأولى، الرياض: الجزء الأوّل، ص 126-127.

وعليه:

إنَّ غزوَ رسول الله والذين معه مكَّة كان غزوَ تحدٍّ للباطل ورميهِ بسهام الحقِّ حتى زُهق بإزاحة الأصنام ليبقى البيت العتيق عتيقًا من الأوثان، ومن كل ما كان يُعبد من حوله من دون الله.

فمكَّة التي كانت قبل فتحها مركزًا للكفر ورؤوسه أصبحت بعد غزوها فتحًا والبيت فيها مركزًا لنور الله في أرضه.

وفتحُ مكَّة وإنْ كان على يدي رسول الله فإنَّه فتحٌ من الله وتيسيرٌ لمحمَّد الذي على يديه فُتحت مكَّة وعلت راية الإسلام: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}[104].

إنَّ مفهوم غزوَ مكَّة (غزوةُ السَّلام) قد رسَّخ أنَّ الغزو بالسِّلاحِ مهما قوي وعظم لن يكون ذا أثرٍ عظيم مثل غزو الدِّين حُجَّة دامغة للباطل؛ ذلك أنَّ قوَّة المواجهة قتالًا لا تحسم الصِّراع والخلاف إلَّا باشتداد قوَّة الاقتتال ونزيف الدّماء، أمَّا قوَّة الحُجَّة فهي التي أظهرت قوَّة الدِّين يوم الفتح سلامًا وأمنًا.

وعليه: إذا أردت أن تكون على سُنَّة رسول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام فخذ بكل ما من شأنه أن يغلق الأبواب المدخلة للسُّفليَّة والدُّونيَّة،

---

[104] الفتح 1 – 3.

وفي المقابل خذ بكل ما يؤدِّي إلى الرِّفعة والنُّهوض في مرضاته تعالى، ومما يؤخذ به:

. أغلق أبواب الشّرك تُفتح لك أبواب التوحيد.

. أغلق أبواب الكذب تُفتح لك أبواب الصّدق.

. أغلق أبواب العبوديَّة لغير الله تُفتح لك أبواب الحريَّة.

. أغلق أبواب الظُّلم تفتح لك أبواب التسامح.

. أغلق أبواب الحرام تُفتح لك أبواب الحلال.

. أغلق أبواب الاتكال على غير الله تُفتح لك أبواب التوكل عليه.

. أغلق أبواب الحسد تُفتح لك أبواب المحبَّة.

. أغلق أبواب الظّن تُفتح لك أبواب اليقين.

. أغلق أبواب الجحود تُفتح لك أبواب الاعتراف والتقدير.

. أغلق أبواب التكبُّر تفتح لك أبواب التواضع.

. أغلق أبواب الذُّل تفتح لك أبواب العزَّة.

. أغلق أبواب الخيانة تُفتح لك أبواب الثّقة.

. أغلق أبواب الخوف تُفتح لك أبواب الطَّمأنينة.

. أغلق أبواب المعصية تُفتح لك أبواب الطَّاعة.

ـ أغلق أبواب الشّقاء تفتح لك أبواب السّعادة.

ـ أغلق أبواب الشُّح تُفتح لك أبواب المكارم.

ـ أغلق أبواب الشرّ تُفتح لك أبواب الخير.

ـ أغلق أبواب الرَّذيلة تُفتح لك أبواب الطّهارة.

ـ أغلق أبواب الحقّد تُفتح لك أبواب الرّحمة.

ـ افتح أبواب الرّحمة تفتح لك أبواب الجنَّة.

ولأنَّ الفتح يُستمد من الفتَّاح العظيم، فعلى العباد أنْ لا يتأخروا عن استمداد هذه الصّفة الحسنة منه تعالى، وهذه ليست بمستحيلة، ولأنَّها صفةٌ من صفات الله فهي قابلة لأن تستمد منه حتى تتجسّد في السُّلوك والفعل، ولأنَّها كذلك فالذي خَلقه الله في أحسن تقويم قادرٌ على استمدادها.

وحتى لا يعم اللبس والغموض بعض معاني الكلمات وما تدلّ عليه من مفاهيم، علينا أن نميّز بين الفتح وبين الحرب.

ـ فالفتح يؤسّس على معطيات إنسانيَّة من أجل الهداية والمساواة لا من أجل المغالبة، ومن هذه المعطيات:

ـ التبشير بالحقّ الذي يقضي على الفساد في الأرض؛ وذلك لأجل البقاء والاستخلاف فيها حتى النّهاية؛ قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ}[105].

105 الأعراف، 169.

ـ التبشير بالجنّة للذين رضوا بأن يكونوا خُلفاء في الأرض ولم يرضوا أن يكونوا مع الخوالف عندما تدقّ ساعات الفتح المبين. قال تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ لَكِنِ الرّسول وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[106]، وقال: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[107].

ـ الإنذار بالعيوب والتحريض والعمل على إصلاحها بالتي هي أحسن؛ قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[108].

ـ الإنذار بالنَّار في الحياة الآخرة لكل من كذَّب وتولَّى أو أقترف ذنبًا أو سفك دمًا أو أكل مالًا حرامًا أو شهد شهادة زور بهتان بغير حقّ؛ قال تعالى: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى}[109]؛ وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[110]؛ وقال عزّ

---

106 التوبة، 87، 88.

107 البقرة، 25.

108 القصص، 77.

109 الليل، 12 ـ 17.

110 المائدة، 8.

وجلَّ: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا}[111].

. إعلان المحبة في الله تعالى والعمل بها لأجل تقوية اللحمة والقضاء على التفرقة: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[112].

وفي حالة ما إذا أحسَّ المسلمون بخطر على دينهم من أيِّ مصر من الأمصار المحيطة بهم كانوا لا يعلنون الحربّ ولا يدخلونها إلّا إذا كُتبت عليهم؛ ولذا فالإحساس بالخطر هو الذي كان يُحفِّزهم للفتح الذي من معطياته:

. القضاء على الكفر والشّرك بالله تعالى: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}[113].

. إنذار المستهدفين بالفتح وإبلاغهم بموضوعه: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[114].

---

111 المائدة، 33.

112 آل عمران، 103.

113 التوبة، 12.

114 آل عمران، 63.

. تبشيرهم بالرِّسالة: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[115].

. تقديم الحُجَّة التي دعتهم إلى التداعي لمستوجبات الفتح: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً}[116].

. التأكيد على الغاية وهي تحقّيق السَّلام بين النَّاس ليعيشوا إخوة متحابين في الله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}[117].

. استيعاب الأقوام المفتوحة قراهم وأمصارهم دون إكراه في الدِّين: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[118]. يُفهم من هذه الآية الكريمة أنَّه لا غاية شخصانيَّة أو طمعًا في سلطة أو ثروة من وراء الفتح، بل الغاية من ورائه هي الإيمان وتقوى الله تعالى.

. إعداد القوَّة وإظهارها مع الميل إلى التفاوض الذي يُمكِّن من دخول الأمصار بدون قتال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا

115 آل عمران، 84.

116 البقرة، 208.

117 النساء، 94.

118 الأعراف، 96.

لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}[119].

أمَّا الحربّ فتؤسّس على معطيات المغالبة، والمخادعة والدّهاء وتقليب الأمور فتعلن الحروب وتشب نيرانها، ممّا يجعلها تؤسّس على الآتي:

. السَّيطرة على مقاليد القوَّة من ثروة ومنجزات ماديَّة.

. التوسع الجغرافي من أجل مستقبل بعيد.

. القضاء على ما يُخيف أو يُنذر بخطر.

. اختلافات فكريَّة أو ثقافيَّة أو عرقيَّة أو دينيَّة.

. بسط سيادة القوي على الضّعيف وجعله في حالة تبعية وقهره بالمغالبة.

. الخوف من التحكُّم في مصادر الحياة كمنابع المياه ومنابع النفط.

. الحيلولة بين أصحاب القضايا وامتلاكهم لمقاليد القوّة.

وعليه فالفرق كبير بين الفتح الذي تكمن غايات السّلم فيه، والحربّ الذي تظهر غايات الاضطهاد والاستعباد والاستعمار فيه؛ ولذا فإنَّ الفتح وضوح بالمصادق والحربّ غموض بلا حُجَّة، والفتح لا تترتّب الأضرار عليه، والحروب والاقتتالات نيرانها لا تقف إلا بمغالبة وضرر شديد وخسائر مؤلمة وموجعة، وخير مثال على ذلك للمقارنة: فتح مكّة الذي تم بسلمٍ دونما

119 الأنفال، 60 . 62.

أضرار أو خسائر؛ حيث لم توجَّه ضربّة واحدة لإنسان، فالضربّات التي وجِّهت يوم فتح مكة هي تلك التي بها هُدِّمت الأصنام وجعلتها دكًا وهي تتهاوى بين أيدي الفاتحين وهم يعلنون أنَّ الله واحدٌ أحدٌ لا شريك له، وأنَّ المسلمين أخوة، وأنَّه لا إكراه في الدين، أمَّا الحربّ فنيرانها تأكل الأخضر واليابس تضر ولا تبقي.

قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[120]. تُثبت هذه الآية بأنَّ فاتح الرّحمة هو الذي بيده مفاتيحها وهو الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي إن فتح رحمته فلا أحد قادر على منع وصولها لمن يُراد لها أن تصله بإرادته تعالى. وإن أراد أن يحجب رحمته عن أحدٍ فلا راحم له غيره؛ ولذا فهو العزيز الذي إنْ فتح رحمته على من يشاء يعزّه بها كيف يشاء وإن أراد إذلاله فيمسك رحمته عنه فيظل في فاقة إلى أن يرحمه الله العزيز الحكيم، والحكيم: هو الذي يعلم الأسرار من وراء عطائه بفتح أبواب رحمته على مَنْ يشاء، وإغلاقها عمّن يشاء؛ فهذه أسرار والأسرار هي التي تكمن فيها الحكمة والعلل المفسّرة لأسباب العطاء والرّحمة ولأسباب الإمساك والمنع: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[121].

علم الغيب سر نحن لا نعلمه، أبوابه مقفلة ومفاتيحه بيد من يعلم أسراره، يعلم ما في البر والبحر، ويعلم متى تسقط الورقة من نبتتها قبل أن

---

120 فاطر، 2.

121 الأنعام، 59.

تسقط ويعلم الحبَّة في مكمنها كيف تنمو؟ وكيف تمتصّ غذاءها؟ ومتى تنضج؟ ومتى تجف؟ ومتى تؤكل؟ ومن الذي سيأكلها بالتحديد؟ ومتى سيأكلها بالتحديد؟ وأين يأكلها؟ ولذلك فهو علاَّم الغيوب فكل شيء أحصاه وعدّه عدًّا، رطب أو يابس أو غيره ممّا خلق هو الذي يعلمه ويعلم مواقيت نهاياتها مثلما يعلم مواقيت بداياته وإلى ما يصير إليه قبل أن يصير على ما سيصير عليه.

فالغيب أسرار من ورائها حِكم، ومع أنَّنا لا نعلم الغيب إلَّا أنَّنا نعلم به ونؤمن، وللغيب ثلاث معطيات:

الأولى المعطية المطلقة: وهي لا يعلم الغيب بالمطلق إلَّا الله؛ ولذلك كل شيء أحصاه وعدّه عدًّا وكل آتيه يوم القيامة فردًا؛ قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[122]، ومِن علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلَّا هو:

. قيام السَّاعة: قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}[123].

. علم الموت: الموت نهاية مجهولة لبداية معلومة، ومع أنَّ كل العباد يؤمنون بالموت نهاية لبداية، إلَّا أنَّهم جميعًا لا يعلمون متى يموتون بالتحديد

---

122 مريم، 93 . 95.

123 الأعراف، 187.

الدّقيق، ولا يعلمون أين سيموتون بالتحديد، ولا يعلمون كيف سيموتون بالتحديد؛ ولذا فالجميع ترك هذا الأمر لمن يعلمه ولن ينشغل به إلَّا إذا ضاقت الدُّنيا به واشتدّ عليه الألم قد نجده في حالة انتظار لمتى؟ وأين؟ وكيف؟؛ قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[124].

. العلم الخَلقي: فالله وحده يعلم متى تحمل الأنثى، وممن ستحمل، وبم تحمل، وهل ما ستحمله سيكون ذكرًا أم أنثى؟ أمَّا نحن بني الإنسان فلا نعلم إلَّا بالحمل إذا ما تم بإذن من الله تعالى، فبعدها تكون المتابعة والرِّعاية والعناية. قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ}[125] وقال عزّ وجلّ: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}[126].

. **أمرُ الرُّوح**: الرُّوح التي تنبعث في جسم الكائن الحي أمرها مجهول بالنّسبة إلى البشر الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، أمَّا بالنّسبة إليه فأمرها معلوم؛ قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[127].

. أمرُ الرَّحمة: فمع أنَّنا نعلم أنَّ الرَّحمة توهب هبةً، إلَّا أنَّنا لا نعلم على من ستكون الرّحمة؟ ومتى ستكون؟ وأين تكون؟ فهذه جميعها تقع في دائرة

---

124 لقمان، 34.

125 الرعد، 8.

126 الحج، 5.

127 الإسراء، 85.

علم الغيب الذي لا يعلم أمره إلّا الله تعالى؛ ولذا فأمور الغيب يُبشر بها الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين تبشيرًا؛ قال تعالى: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ}[128]. وقال تعالى: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[129].

. **أمرُ العقاب**: مع أنّ أمرَ العقاب أمرٌ معلوم وأنّه حدث ويحدث وسيحدث، فإنّنا لا نعلم كيفيّته حتى وإن وقع؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[130] هذا الأمرُ هو حال قوم عاد وثمود، وكذلك أصحاب الأيكة من بعدهم الذين كذّبوا شعيبًا فأخذهم عذاب يوم الظّلة؛ وهكذا فالعقاب الذي لم يحدث بعد فإنّنا لن نعلمه، ولا نعلم على من سيكون حتى وإن ظننا فإنّ بعض الظّن إثمٌ؛ ولذلك قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}[131].

. **أمر الثواب**: بما أنّ من النّاس من يعمل شرًّا فيعاقب عليه فكذلك من النّاس من يعمل خيرًا فيثاب عليه بالجزاء الأوفى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا

---

128 التوبة، 21.

129 الأنعام، 12.

130 النحل، 36.

131 الرعد، 42.

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[132]. وقال عزّ وجلّ: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ}[133].

. **أمرُ السّماء:** المؤمنون يعلمون بأنَّ السّماء سيأتي عليها يوم تكون فيه وردة كالدِّهان، وردة لم تكن حمراء ولا صفراء ولا خضراء، بل ستكون بلون الدِّهان في جماله وروعته: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[134]؛ ولأنَّ المؤمنين يعلمون من علم الغيب يقينًا بأنَّ السّماء ستنشق وتصبح وردة كالدِّهان إلّا أنّهم لا يعلمون ساعته ولا كيفيَّته ولا روعته وحسنه.

. **الأمرُ الآتي مستقبلًا:** كل مفكّر عاقل يعلم علم المستقبل وفقًا لانتظامه في الزّمان والحركة، ولكن لا أحد يعلم أنَّ ما يتوقّعه للمستقبل قد يقع، فدون شك إنْ لم يحدث أمر الغيب سيكون غدًا الجمعة بما أنَّ اليوم الخميس، وسيسقط المطر غدًا بما أنَّ للسّحب تكاثف وتلبُّد بالماء، ولأنَّنا نعلم علم المستقبل فإنَّنا نعلم أنَّنا سنتعلّم ونعمل ونتزوّج فنبني مسكنًا ونسعى دون كلل ولا ملل للحصول على العيش الرَّغيد، ومع ذلك نعلم إنَّنا سنموت يقينًا وأنَّنا سنجازى على أعمالنا ثوابًا أو عقابًا ونعلم أنَّ الله غفور رحيم ودود، ولكنَّنا لا نملك مقاليد الأمور ومفاتيح الغيب حتى نضمن بأنَّنا سنتعلَّم ونعمل ونبني مساكنَ لأسرنا المتوقّعة وأنَّ الخميس سيأتي غدًا ممطرًا، وأنَّنا سنجازى كما نحن نتمنَّى.

---

132 الأعراف، 128.

133 النساء، 17.

134 الرّحمن، 37.

ـ أمرُ البعث: المؤمنون يعلمون بالبعث كما هم يؤمنون به؛ ولذا فلو لم يعلموا بأمره ما كانوا مؤمنين به، أمَّا المنكرون فلا يعلمون بأمره حتى يفاجؤا به؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[135].

الثَّانية المعطية الخاصَّة: إنَّها معطية الرُّسُل والأنبياء الذين يُوحى لهم ويُنبؤون بما لم يُنبَّأ الآخرون به؛ قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[136]، وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ}[137]. أي ما أطلعتك عليه بالوحي يا محمَّد هو من أنباء الغيب، وإلَّا هل كنت تعلم بأمر زكريا ومريم لو لم أوحي إليك أمر كل منهما؟؛ ومن هنا فقوله (نوحيه إليك) تعني نُطلِعُك عليه مسلمات وبراهين وحُجج مثبتة ذات دلالة؛ حتى لا يأتيك الظَّن؛ ولتكون على اليقين بالبيّنة.

ولأنَّ الوحي هو إظهار على علمٍ من علمِ الغيب؛ فأوحى الله إلى نوح عليه الصَّلاة والسَّلام أن يصنع الفُلك فصنع، وهكذا أوحى إلى يوسف وهود عليهما الصَّلاة والسَّلام، وأوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسله فآمنوا، كما أوحى ربّك للنحل أن يتخذ من الجبال بيوتًا: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

---

135 الروم، 55، 56.

136 آل عمران 179.

137 آل عمران، 44.

وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}[138] هكذا في حدود التخصيص أوحى الله عزَّ وجلَّ لمن شاء من خَلقه ما شاء.

الثَّالثة المعطية النّسبيَّة: السَّاعة معطية ومسلَّمة لا شكَّ في وقوعها بالنّسبة إلى المؤمنين وهؤلاء هم القلّة الذين يعلمون بأمرها، أمَّا الكفرة والمشركون فلا علم لهم بها، فهم يعلمون بالموت الذي يشاهدونه ولا يؤمنون بالبعث من بعده فهؤلاء هم الكثرة: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}[139].

تدلُّ هذه الآية على أنَّ بعض النَّاس وهم ليسوا بأكثرية يعلمون بالسَّاعة مع أنَّهم لا يعلمون العلم المطلق الذي يُمكِّنهم من معرفة الزّمان الذي ستقوم فيه: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[140].

ترشدُ هذه الآية إلى أنَّ أمر الإحاطة بعلم الله المطلق مقصور عليه، أمَّا ما هو نسبي منه فمنقوص وهو بيد عباده مع درجات التفاوت النسبي بين من أوحي إليهم ومن وهب لهم رحمة العلم وأنبأهم بما لا يعلم البعض وبين علم المؤمنين وغير المؤمنين، فقد مكَّن الله من يشاء من عباده ممّا يشاء علمًا ولم يُمكِّن الجميع من علمه: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[141]؛ وعلى سبيل المثال: أمرُ انشقاق القمر الذي أنبأنا به الله تعالى في مُنزل كتابه الحكيم فآمنا به بالمطلق قد شهده غزاة الفضاء بأمهات

---

138 الجن، 26، 27.

139 الأعراف، 187.

140 البقرة، 255.

141 يوسف، 76.

عيونهم؛ ومن ثمَّ فهو علم غيب بالنسبة إلى غير المؤمنين إلى أن تم اكتشافه حقّيقة بين أيدي العلماء والبحاثة في علوم الفضاء.

غزوةُ حُنين:

وقعت غزوة حنين في العاشر من شوال من عام 8هـ، عند وادٍ يبعد عن مكةِ عشرةَ أميال تقريبًا يسمى حُنين، وكان ذلك بعد أيَّام قليلة من الانتصار العظيم بفتح مكة وتحطيم الأوثان؛ حيث بلغ رَسُول الله صلَّى الله عليه وسلّم أنَّ عددًا من القبائل قد احتشدوا؛ لمقاتلة المسلمين والهجوم عليهم في مكّة[142]. فكانت الاستجابة أن وصل المسلمون إلى وادي حُنين وعسكروا فيه، وتجمّع الصَّحابة المهاجرون بالرَّايات السّوداء والبيضاء، والأنصار بالرَّايات الخضراء والحمراء حول النبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- فأعجبتهم كثرتُهُم، حتى أنَّهم قالوا: "لن نُغلب اليوم مِنْ قِلّة"، وهذه مغرّة وقد ألمت بهم، فكان الدّرس أنَّ عدوهم كان متربّصًا بهم خدعة ورماية، حتى كاد أن يهزمهم وهم ينسحبون إلى الخلف وكأنَّ بعضهم يريد أن يعود إلى مكَّة أو يفرَّ إليها لو لم ينادي رسول الله فيهم مناداة ترفع الهمم وهو يقول: (شَاهَتِ الوُجُوهُ)، ويقول أيضًا: (أنا النَّبيُ لا كّذِبْ أنَّا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ)[143]، فاشتدت وطأة القتال حتى انهزم الأعداء وفرّوا متشتتين إلى الطَّائف والمسلمين يلاحقونهم من خلفهم حتى كُتِبَ النَّصرُ للمسلمين وكُتِبت الهزيمةُ على كفَّار قريش ومن حالفهم ووالاهم؛ وهنا نزل قول الله تعالى: {لَقَدْ

---

[142] فتح الباري، ابن حجر، 27/8.

[143] أحمد أحمد غلوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م، ص 596-601.

نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}[144].

تُبيّن هذه الآيات الكريمة أنَّ الغرور بالأنفس يُقع أصحابه في الفخّ كما أوقع المقاتلين المسلمين يوم حنين في مصيدة الأعداء لولا فضل الله وهِمَّة رسوله والرِّجالات الذين كانوا معه وما بدلوا تبديلًا.

وقد أكَّدت الآيات السَّابقة على:

. إنَّ غزوة حُنين قد كُلِّلت بالنَّصر على الرُّغمِ مِنَ الغرور الذي لَحِقَ بالمسلمين وكثرتهم (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ).

. كما أكَّدت الآيات السَّابقة أنَّ الكثرة ليست مَنْ يَصنع النَّصر، بل الإيمان التَّام، وإعداد العدّة والاستعداد والتأهب والاستبسال مع أخذ الحيطة والحذر من المخادعات في أثناء القتال؛ ولهذا جاء الاستثناء بأنَّ يوم حنين كادت الهزيمة أن تلحق المسلمين على الرُّغم من كثرتهم التي بها تباهوا حتى وقعوا بين فكّي فخِّ الأعداء، حيث كانت المباغتة التي فرَّقت حشود المسلمين، وجعلت البعض يولِّي مدبرًا اتجاه مكَّة، إلَّا أنَّ الرَّسُول لم يبرح

---

[144] التوبة 25، 26.

مكان المعركة والرِّجالات الأفذاذ من حولة، وهو يقول: (أنا النَّبِيُ لا كّذِبْ أنَّا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ)[145].

كان هذا النداء يصلُ إلى آذان المقاتلين وكأنَّه البلسم الملفت إلى أهميَّة العودة إلى المواجهة وقبول دفع الثَّمن نصرًا أو قتلًا في سبيل الله (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)؛ ومن هنا نزلت السّكينة على رسول الله والمؤمنين فارتفعت الرُّوح المعنويَّة وبدأت الكفَّة في مواجهة الكفَّة تتوازن (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ).

ولأنَّ الرَّسُولَ لم يتَّجهُ إلى غزوةٍ ولم يدخل قتالًا إلَّا باسم الله وبأمره تعالى؛ فلا إمكانيَّة لأن يُهزم أبدًا، ولهذا أنزل الله جنوده يوم حنين حتى حُسِمَ أمر القتال، وكان النَّصر مؤزَّرًا في يوم حنين؛ مصداقًا لقوله تعالى: (وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ).

كان للجنود المنزّلة من عند الله الدّور الكبير في حسم المعركة التي ذاق الكافرون فيها الويل تقتيلًا وتعذيبًا؛ وتلك هي مشيئة الله وذلك هو نصره (وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ).

وعليه: نقول: إنَّ غزوةَ حُنين لو لم يعدّ الأعداء العدّة للهجوم على مكّة ما كانت، ونقول أيضًا: إنَّ غزوات الرَّسُول كانت لغزو الغازين أو كفّ المعتدين، أو رد العدوان بالعدوان.

---

[145] أحمد أحمد غلوش، السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م، ص 596-601.

وتعد غزوة حنين أوَّل غزوةٌ غزاها المسلمون وهم سادةُ مكَّة، ومن ثمَّ فلم تعد الغزوات كما كانت عليه في حدود دولة المدينة، بل الأمر تعدى تلك الحدود إلى حدودٍ أوسع؛ إذ أصبحت الغزوات لبسط السِّيادة على شبه الجزيرة العربيَّة تحت راية (أسلم تسلم).

ومن هنا فإنَّ مفهوم غزوة حنين والطّائف يرمي إلى ما يدلّ على بسط السِّيادة وترسيخ الهويَّة الإسلاميَّة، وإظهار قوَّة الحقّ؛ إذ لا مجاملة للباطل وأهله.

ومن الملاحظ: أنَّ الله تعالى كلَّما مالت كفَّة القتال إلى الأعداء قليلًا مدَّ رسوله محمَّد بجنودٍ حاسمة في كل المعارك؛ ومن هنا قلنا: إنَّ رَسُول الله لم يغزُ ولم يدخل معركة كُتبت عليه إلَّا باسم الله؛ ولهذا لا يمكن أن يُهزم، أي كيف يكون لغازٍ أنْ يُهزم وهو لا يغزو ولا يقاتل إلَّا باسم الله.

غزوةُ تبوك (غزوة العُسرة):

يذكرُ المؤرّخون أنَّ السَّبب الرَّئيس والمباشر لغزوة تبوك وصول الأخبار للنَّبي عن حشْدِ الرّوم لقوّاتِها وجُنُودها من الشَّام بقيادة القيصر هِرقل؛ لمهاجمة المسلمين ومقاتلتهم؛ فقرّر النبي –عليه الصَّلاة والسَّلام– استنفار المسلمين لغزو الرّوم قبل أن يأتوا إليهم غزاة[146].

ومع أنَّ المسافات طويلة والفصل صيفٌ والحرّ فيه شديدٌ، فإنَّ قوَّة العزم وشدّته كانت أقوى من أيِّ قسوةٍ وشدَّةٍ، ولهذا لقد أعزَّ الله نبيّه الكريم

---

[146] محمود شيت خطابْ الرسول القائد (الطبعة السادسة)، بيروت: دار الفكر، 1422هـ، ص 397.

والذين معه (مهاجرين وأنصارًا) في ساعة العُسرة التي جاء النَّصر من بعدها مؤزَّرًا: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[147].

وتعدُّ غزوة تبوك آخر غزوة خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وقعت في شهر رجب من العام التاسع الهجري الموافق 630م، إنَّها غزوةٌ وحرّ الصّيف على أشدِّه حتى سميت غزوة العُسرة.

اقترب الجيش من تبوك في مشهد يعكس القوَّة والهيبة، ويبثّ الرُّعب في قلوب العدو، الذي قوَّته العدديَّة تفوق قوَّة المسلمين البالغ عددها ثلاثون ألفًا تقريبًا، ولمَّا رأى الرّوم جيش المسلمين بهذا العدد الذي قطع المسافات البعيدة، حتى وصل إلى تبوك وكأنَّ الحرَّ على الرُّغم من شدّته بلا شدّة؛ ففروا هاربين مذعورين وتحقّق الغرض من الغزوة دون قتال وأخلوا مواقعهم للمسلمين؛ فتحقّق النَّصر بلا قتال وما هو إلَّا نصرًا من عند الله تعالى.

وعليه: مع أنَّ كلمة الغزو واحدة ومستمدَّة مِن (غزَا يغزو غزوًا) ومفردها غزوةً، وجمعها غزوات فإنَّ المفاهيم مختلفة وفقًا للآتي:

غزو الممتلكات: التي حالها كما هو حال ممتلكات أولئك المهاجرين التي جرى عليها ما جرى بعد أن فرَّ أهلها مهاجرين إلى المدينة من أجل سلامة أنفسهم ودينهم. إنَّها الممتلكات التي نهبها كفَّار قريش واستولوا عليها، ثمَّ عملوا على تصديرها للشَّام واستبدالها بما يُشبع حاجاتهم المنقوصة،

[147] التوبة 117.

والتي كانت سببًا في بعض مواجهات الرَّسُول والذين معه مع أولئك الغزاة الذين استولوا على تلك الممتلكات التي تركها أهلها وهم فارون بجلدتهم ومن أجل دينهم.

غزوُ المغزو وغزواته:

يأتي مفهوم غزو المغزو (غزو الممتلكات)، وكذلك غزو غزواته (غزوات الذين يتاجرون بالممتلكات التي تمَّ غزوها): وهذا المفهوم حاله كما هو حال غزوات الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام، التي جرت من أجل استرداد المسلوب والمستولى عليه ظلمًا وعدوانًا كما هو الحال الذي جرى بالتمام في غزوة بدر الكبرى؛ حيث تمَّ غزو الغزاة وغزو ما تم غزوه من المسلمين في مكّة وهو المنقول والمرحَّل تجارة ظالمة.

غزو الأراضي:

غزو الأراضي غزو توسّعي على حِساب الغير (على حِساب سيادة الغير وهويَّته)، وكان هذا الأمر كما هو حال الغزوة التي أعدَّها هرقل رأس الرّوم لغزو المدينة لو لم يفاجئه الرَّسُول بقوَّاته التي استردّت تلك المواقع التي كانت قوات هرقل تعسكر فيها وهي تستعد للتقدّم تجاه المدينة.

غزو الاسترداد:

وهو الغزو الذي أقرَّته الأعراف وشرَّعته الأديان جميعها، بل أكَّد الدِّين الإسلامي على الجهاد في سبيل استرداد الأراضي وصون السِّيادة والهويَّة، ومن يقتل في سبيل ذلك يفوز بالجنَّة، وفي المقابل من يُقتل غازيًا معتديًا بغير حقٍّ فمصيره جهنَّم: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

عَلَيْكُمْ}[148]، وقال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[149].

غزو العقول:

غزو الأفكار والآراء وهو في دائرة الممكن غزوٌ وصراعٌ بين حقٍّ وباطلٍ، وهو أيضًا صراعٌ بين غزو جهلٍ وعلمٍ وبين أميَّة ودراية؛ ذلك أنَّ الدِّراية وعيًا لا غزو فيها إلَّا للمعجز والحُجَّة التي تدمغ الباطل، وفي المقابل الأميَّة عدم دراية بما يجري من أمرٍ عظيمٍ.

غزو الأميَّة:

الأميَّة لا تدلُّ على شيءٍ يحوطنا ونحن لم ننتبه له، أو نتعرَّف عليه، أو ننهل منه ونتعلَّم، بل تدلُّ على إنَّ ما نحن منه على أميَّة لم يولد بعد، أو لم يوجد؛ ومن ثمَّ فلم يكن في دوائر تفكيرنا وتوقّعاتنا؛ ومن هنا فالأميَّة تغزو عقولنا بكل ما لم ندريه، ونحن نجهل أمر ما لم ندريه ما دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره.

ولأنَّ الأميَّة تعني: لا دراية بالأمر، فإنَّها تعني غيابًا كاملًا عن الموضوع الذي نحن من دونه تغزونا الأميَّة، أي: لا وجود لجزء ولا متجزئ لمعلومة وإن عظم في الصّغر حتى نتمكّن من درايته.

---

[148] البقرة 194.

[149] التوبة 41.

ومن ثمَّ فغزو الجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا غزو الأميَّة فلا وجود للمعلومة على الأرض حتى نسعى إليها بحثًا.

ولذا نجد من بين الذين آمنوا (لا أميَّة فيهم) لا زال بعضهم في دائرة الجاهليَّة؛ كونهم لم يتعلّموا القرآن ويتدبَّروه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[150].

جاء في هذا الآية الكريمة استغراب بقوله: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ) أي: لو تدبروه لعلموا الحقَّ حتى غزى عقولهم، ولأنَّهم لم يتدبروه فهم يجهلون، أي: هم بالنّسبة إلى الذين يتدبرونه غير متدبِّرين؛ وقوله: (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) القلوب التي عليها أقفالها هي القلوب التي لم تتدبَّر القرآن؛ ولأنَّها كذلك فهي لم تُفتح بما يجب أن تتعلّمه وتتدبَّره، فبالتدبّر تدخل الحكمة إليها؛ ولهذا القرآن الكريم لا يقتصر أمرهُ على القراءة والكتابة، بل يمتد ليشمل التدبُّر؛ ولذلك فالأميّ الذي تغزوه الأميَّة هو الذي لا يعرف الأمر الذي يُسأل عنه.

وبالعودة إلى القول بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام (أميٌّ) على معنى أنَّه من الأميين، أي: من غير اليهود"[151]. إنَّه رأيٌ قد يكون على دلالة من الصّواب باعتبار أنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام وبني قومه ليسوا من الذين جاء استثناؤهم من الانتساب للأمَّة الأميَّة والرَّسُول الأميُّ؛ فاليهود بوصفهم

---

150 محمَّد: 24.

151 موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج 6، ص 3.

أصحاب ديانة ورسالة خاصّة فقد لا يشار إليهم بالأميّين؛ فهم لم يكونوا من الذين لا يدينون بها (الأميّون)، أقول: نعم إنَّ العرب والرَّسول الكريم هم أميّون بالنّسبة إلى الرِّسالة قبل نزولها على الرَّسول الكريم، وهم الذين أصبحوا غير أميّين بعد تلقيهم الرِّسالة وتعلمهم الكتاب والحكمة وتدبّرهم القرآن وإسلامهم لله ربّ العالمين، ومع ذلك بينهم ومنهم جاهلون بها.

ويكون الأميّونَ من بعدهم هم الذين كانوا غير أميّين قبل نزول الرِّسالة الخاتمة للنَّاس كافَّة، فاليهود الذين آمنوا برسالة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام هم غير أميّين، وهم من بعد رسالة عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام أصبحوا أميّين إن لم يؤمنوا بها، وهكذا حال اليهود والنَّصارى فهم أميّون إنْ لم يؤمنوا بمحمَّد ورسالته التي جاءت للنَّاس كافَّة؛ ولذا في دائرة الأميَّة النسبيَّة من كان يشار إليه بالأميَّة أصبح عالما بأمور دينه ودنياه أمرًا ونهيًا، وحلالًا وحرامًا، ومن كان يشار إليه بغير ذلك أصبح أميًّا في دائرة النسبيَّة إن لم يؤمن برسالة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّ القرآن وحيٌ موحى، فهو لم يكن معرفةً سابقةً لمن هم على قيد الحياة، ولم يكن مسطَّرًا في ألواحٍ أو كتبٍ؛ وذلك لخروجه عن دائرة الممكن التي تحصره بين متوقّعٍ وغير متوقّعٍ، فالوحي لا يأتي إلَّا من آفاق المستحيل الذي لا يحوطه شيء؛ ولذلك فكل السَّابقين على نزوله عليهم أو إليهم هم أميّون، وكل الذين آمنوا به بعد نزوله هم غير أميّين بعد أن غزتهم الدّراية.

وفي دائرة الأميَّة النسبيَّة قد يقول قائلٌ أو يتساءل: أين المسلمون في دائرة الأميَّة النّسبيَّة من التقدُّم العلمي والتّقني الذي يشهده العالم المتقدّم علميًّا وتقنيًّا؟

أقول: بالنّسبة إلى الرِّسالة الخاتمة مَن لم يؤمن بها ما زال عقله تحت غزوة الجهل في دائرة النّسبيَّة، وهكذا من يؤمن بها ولا يأخذ بما بلغه العلم والتطوّر التقني سيكون من الجاهلين الذين غز الجهل عقولهم.

وقد يتساءل آخر: ألا يكون الاتصاف بالأميَّة علامة من علامات النقص الذي يَلحق بالإنسان المخلوق في أحسن تقويم؟

في هذا الأمر يقول ابن تيميَّة: "الْأُمِّيَّةُ صِفَةُ نَقْصٍ لَيْسَتْ صِفَةَ كَمَالٍ؛ فَصَاحِبُهَا بِأَنْ يَكُونَ مَعْذُورًا أَوْلَى مِنْ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا"[152].

مع التقدير التَّام لمحاولة العلَّامة ابن تيميَّة تفسير مفهوم الأميَّة فلا إمكانيَّة للاتفاق مع رأيه هذا؛ ذلك لأنَّ النقص يعود للشّخص الذي لم يسعَ، أو يبحث؛ كي يتخلّص من النقص، أو الجهل، أو عدم المعرفة، مع العلم أنَّ النقص لا يكون إلَّا في مواجهة الكمال الذي لا يكون إلَّا لله وحده.

وعليه: لا يلحق الأمي أيُّ نقص بما أنَّه ما زال في مرمى الأميَّة، فعلى سبيل المثال: هل يحقّ لنا أن نسائل، أو نحاسب، أو نعاقب أحدًا على لا شيء؟ ومع ذلك يجوز لنا أن نحاسب أو نعاقب من لا يعلم بما أنَّ أبواب

152 مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

المعرفة والعلم مفتوحة لمن يسعى، ومن هنا يتّضح الفرق بين غزو الأميَّة في مواجهة غزو الدِّراية، وغزو الجهل في مواجهة غزو العلم.

الأميَّةُ تغزو الأمَّة:

الأمَّة التي تغزوها الأميّة هي الأمَّة قبل الرِّسالة؛ وهي الأمَّة التي كانت متفرِّقة شيعًا وأحزابًا وقبائل والفتن والعداء والفُرقة واقعة بينهم، وذلك مع تعدد ما يعبدون من دون الله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّة يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[153]. آيات تبيّن وتقارن بين عصر الأمَّة الأميَّة، وعصر الأمَّة العَالِمة؛ فالأمَّة الأميَّة لم تكتب تاريخًا، ولم تصنع هويَّةً، ولم تحسب حسابًا لِما كانت تقوم به، ولم تَحسِب حسابًا لعاقبة الأمور؛ ولذا قال فيهم: (كُنْتُمْ أَعْدَاءً)، وقال: (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ)؛ ولهذا فهم الضّالون الذين قال فيهم تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ}[154].

والقول بأنَّ العرب أمَّة أميَّة إشارة إلى ما كانت عليه الأمَّة قبل الرِّسالة؛ ولهذا جاء القرآن حريصًا على الأمَّة العالمة، فأوجب الكتابة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ

---

153 آل عمران: 103 . 105.

154 البقرة: 198.

وَلْيَكْتُبْ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا}[155].

وعليه فإنَّ الأمَّة العالمة هي التي تَعلم ما يجب وتَقدم عليه بعلمٍ يغزو عقولها، وما لا يجب وتمتنع عنه أو تتجنَّبه أو تُغيِّره؛ ولهذا قال فيهم: (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) وقال: (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا) ولأنَّهم أمَّة عالمة فهم يحسبون لكلٍّ حِسابه؛ فيدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ وهؤلاء هم المفلحون: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[156]، وعليه أتساءل: هل يمكن أن تثقل موازين الخيرات إنْ لم يحسب المؤمن ألف حِسابٍ لما يقول ويفعل ويعمل ويسلك؟

وقد يتساءل البعض: من المتهيؤون لأنْ يكونوا من المفلحين؟

بطبيعة الحال هم الذين يحسبون ألف حِساب لما يقولون ولما يفعلون أي: هم الذين يميّزون بين ما يجب ويقدمون على قوله أو فعله وعمله، وما لا يجب ويتجنبون قوله أو فعله، وهؤلاء هم الذين موازينهم بالخيرات ثقلت وتثقل؛ ومن ثمَّ فهم المفلحون بأعمالهم وحساباتهم بعد أنْ علموا الحقَّ الذي من قبله كانوا أميِّين.

إذن: العرب قبل الرِّسالة أميُّون، أمَّا من بعدها فكانوا أميَّين، أي إنَّهم أميُّون عندما كانت الأميَّة تغزوهم، أمَّا بعد أنْ غزت الدِّراية عقولهم واطمأنت

155 البقرة: 282.

156 المؤمنون: 102.

قلوبهم بها أصبحوا يعلمون ويعلِّمون؛ ولذلك فالأميَّة تدلُّ على عدم الدِّراية بالأمر.

ولأنَّ أساس البقاء الحقّ الدِّراية بما يجب واتباعه، وما لا يجب والتوقُّف عنه والابتعاد؛ بعث الله محمَّدًا بالرِّسالة الخاتمة وللكَّافة؛ ليعلِّمهم الكتاب والحكمة، وليخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور.

وقد يتساءل المتسائل، بقوله: على من ينطبق مفهوم الأمَّة الأميَّة، ومن هو الأميّ؟

أقول: على احتمالين:

الأوَّل: إنَّ الأمَّة الأميَّة هي الأمَّة التي لم تنزل عليها رسالة من الله تعالى، وهذا الأمر ينطبق بالتمام على جميع الأمم قبل الرِّسالة الخاتمة للنَّاس كافَّة، وبما فيهم محمَّد صلوات الله وسلامه عليه: {تِلْكَ أُمَّة قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[157]، وقال تعالى: {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّة عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[158]، وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّة رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[159].

الثَّاني: إنَّه لا أمَّة أميَّة بعد الرِّسالة الخاتمة، ولكن هناك جاهلون؛ منهم من يقرأ ويكتب، ومنهم ما دون ذلك لا يقرأ ولا يكتب؛ قال الله تعالى:

157 البقرة: 143.

158 الأنعام: 108.

159 يونس: 47.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[160].

وعليه: فالأمَّة الجاهلة هي الأمَّة التي لم تُدرِك الحالة التي هي عليها من كفرٍ وشركٍ وضلالٍ وجهلٍ بأمور الدَّارين، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم وتطوّراتها من أجل إصلاح الأرض وإعمارها، حتى يتمكَّن كل فرد من أخذ نصيبه منها دون أن يطمع في نصيب الآخرين أو يُحرم من نصيبه وهنا قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّة وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس وَيَكُونَ الرَّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[161]، ومعنى قوله: (أُمَّة وَسَطًا)، أمَّة عدلٍ؛ تقول الحقَّ وتعمل بأفعالهِ، فلا تظلم أحدًا ولا تنحاز إلَّا لإحقاق الحقّ؛ قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}[162]؛ فقوله: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ) جاءت (إذا) أداة شرطيَّة أي: إذا قبلوكم فاتخذكم النَّاس حكَّامًا لتحكموا بينهم فلا تميلوا، ولا تنحازوا، واحكموا بينهم بالعدل؛ ولهذا كان جواب شرطه قوله تعالى: (أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ).

إذن: فمن هي الأمَّة التي يمكن أن تحكم بالعدل؟

بالتأكيد لا أمَّة تحكم بالعدل غير الأمَّة الوسط التي أصبحت تدري بعد أن كانت على الأميَّة؛ ولهذا الرسول الذي بُعث من الأمَّة الوسط هو

---

160 سبأ: 28.

161 البقرة: 143.

162 النساء: 58.

الرَّسول الذي لا يميل ولا ينحاز إلا للحقِ وإحقاقهِ؛ ولأنَّه كذلك كانت رسالته للكافَّة وكان رسولًا خاتمًا.

ولذا فمن يؤمن برسالتهِ الخاتمة قيمًا وفضائلًا ليس له بدٌّ إلَّا أنْ يكون حكمًا عدلًا، وإذا كان كل من يؤمن برسالة محمَّد لا شرط له في الحياة الدُّنيا إلَّا أن يكون عادلًا، فإذن كل من يؤمن برسالته هو من الأمَّة الوسط التي تحق الحقَّ وتدمغ الباطل حتى يزهق، وإذا كان كلّ واحد من أبناء الأمَّة التي تدين برسالة الكافَّة حاكمًا بالعدل بين النَّاس، إذن بطبيعة الحال لا بدَّ أن يكون شاهدًا على الذين حكم بينهم بالحقِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس)؛ ولأنَّ الرَّسول الكريم محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام هو الذي نَزل عليه دين الحقّ، وبَشَّر به وأنذر فهو الشَّاهد على الشّهداء من النَّاس الذين حكموا؛ بينهم مصداقًا لقوله: (وَيَكُونَ الرَّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) أي: يكون الرَّسول شهيدًا على المبشَّر والمبشِّر.

وعليه قد يتساءل البعض:

هل الأمَّة الأميَّة هي أمَّة الوسط؟

أقول: لا.

ومع ذلك قد يتساءل البعض الآخر: لمَ لا؟

أقول: الأمَّة الأميَّة هي الأمَّة العربيَّة قبل الرِّسالة.

أمَّا أمَّة الوسط فهي (أمَّة محمَّد) عليه الصَّلاة والسَّلام؛ ولذلك فأمَّة الوسط هي (أمَّة المركز) التي لا تدور العجلة إلَّا بها، ولا يتمركز قلب الرَّحى

إلَّا عليها، ولا تصلح الأرض إلَّا بها؛ ولذلك فأمَّة الوسط لا تُفرِّق بين أحدٍ من رسلهِ، فهي الأمَّة التي تبشّر بدين التوحيد ولا تُكره أحدًا عليه، وتُصلح الأرض ولا تُفسد فيها ولا تسفك دمًا بغير حقٍّ؛ ولأنَّها أمَّة المركز الوسط فهي حاملة الأطراف على إحقاق الحقّ؛ ولهذا في الميزان العدل لا يكون الأمر بينها إلَّا شورى.

وبناء على ما تقدَّم سائلًا ويسأل:

هل ما كُتب في هذه الصَّفحات عن الأمَّة الوسط (الأمَّة المركز) هو على قيد الحياة يُفعل؟

أقول: (نعم) إنَّه على قيد الحياة، ولكن يا ليته يُفعل، والذي يُطمئن أصحاب القلوب هو اليقين بأنَّ ما جاء به محمَّد هو الحقّ، والحقُّ طال الزَّمن أم قصر لا بدَّ أن يُحقّ، والله دائمًا مع الصَّابرين؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}[163].

إذن من هو النَّبي الأميّ؟

الإجابة على أربعة احتمالات:

---

163 ق: 39، 42.

الاحتمال الأوَّل: محمَّد قبل الرِّسالة مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[164].

الاحتمال الثَّاني: النَّبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام بعد الرِّسالة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}[165]. أي إنَّ الله نزَّل على نبيِّه محمَّدًا آيات الذِّكر الحكيم، التي بها أصبح محمَّد داريًا وعالما بالحقِّ المطلق ولم يكن ذلك الأميّ، وفي هذه الحالة لم يعد محمَّد ذلك الأميّ كما هو حال بني قومه، مما أوجب عليه التبشير بالآيات البيّنات في اللوح المحفوظ، وهداية النَّاس من حوله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}[166]؛ فقوله: (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)؛ للتأكيد على أنَّه لم يكن من بناة أفكار محمَّد، ولأنَّه وحيٌّ من عند الله تعالى فهو على غير سابق معرفة به؛ ولهذا كان محمَّدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا بالنّسبة إلى الوحي قبل أن يُعلِّمه له شديد القوى، وقوله: (قرآنًا عربيًّا) نزل بلغة العرب؛ لما فيها من الوضوح والبلاغة والجمال في إظهار العبر والقصص والحكم التي تمدَّ العقل بالاستقراء والاستنباط الممَكِّن من التفكُّر والتذكُّر والتدبُّر.

وبما أنَّ القرآن مُوحى لمحمَّدٍ وحيًا، إذن لا شكَّ في أنَّه كان أميًّا بالنّسبة إليه (بالنّسبة للقرآن)، أي: لا يعلمه أبدًا؛ ولذا فمن بعد وحيه إليه لم يعد

---

164 العنكبوت: 48.

165 الحديد: 9.

166 الشورى، 7.

أميًّا باعتباره أصبح يعلمه، ومن يعلم الوحي (القرآن) لا يمكن أن يوصف بالأميّ، بل يوصف في دائرة النسبيَّة بالعالم به.

ولأنَّ محمَّدًا قد أُعلم بالرِّسالة وعَلِم بها فأصبح نبيًّا ورسولًا يهدي بها للتي هي أقوم، ويجادل بالتي هي أحسن، وينذر ويحرض ويبشر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسارع في أفعال الخيرات، آمرًا بإصلاح الأرض وعدم الإفساد فيها، وعدم سفك الدّماء بغير حقّ؛ ولذلك كيف يقبل أو يصدَّق أنَّ رسولًا يأمر بما أمر الله به، وينهى عمَّا نهى عنه ويوصف بالأميّ.

الاحتمال الثَّالث: الرَّسول الأميّ هو رسول الكافَّة عالميها وجاهليها ومسلميها وكافريها؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[167]، فقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِلنَّاسِ) تعني: أرسلناك رسولًا لكلِّ الأمم من مشارق الأرض ومغاربها؛ ولهذا يكون هذا الاحتمال الثَّالث أنَّ الأميّ هو من يُنسب أمميًا، أي: هو النّبي الذي يوحِّد الأمم على كلمة سواء، وهو الذي لا يغالب أمَّة على أمَّة لعرقٍ أو لنسبٍ، بل هو العادل بين النَّاس ليحكم بينهم بالعدل فيما يختلفون فيه؛ ولذلك جاء وصف محمَّد رسولًا أميًّا مثلما جاء وصف إبراهيم أمَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّة قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[168] أي: وكأنَّ إبراهيم أمَّة بأسرها؛ وذلك لأنَّه يحسُّ بحالها ويفرح

---

167 سبأ 28.

168 النحل 120.

لفرحتها، ويتألم لآلامها؛ ولهذا وصف بالأمَّة على سبيل الإطلاق لا على سبيل التخصيص.

وعليه: فالنَّبي الأميّ هو نبيُّ الأمَّة في العموم وليس في الخصوص؛ ولهذا بعث الله محمَّدًا رسولًا ونبيًّا للنَّاس، ولم يخصّ به المسلمين، وبعثه للجنِّ مثلما بعثه للإنس؛ مصداقًا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[169] قال: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ) دون أي استثناء أي: إنَّ المستهدفين بالكلم الفصل الذي يفصل بين الحقِّ والباطل هم جميع العالمين، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأميّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[170]، فقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)، تؤكد هذه الآية الكريمة على أنَّ الرَّسول الأميّ يقصد به أنَّه رسولُ النَّاس جميعًا، وليس من لا يقرأ ولا يكتب كما يظن البعض أو يفسّرون، وأيضًا فهو لم يكن لأمَّة خاصّة، بل هو رسول الأمَّة على العموم.

الاحتمال الرَّابع: الرَّسول الأميّ هو مستهدف الأميّين بالرِّسالة، والأميّون هم الذين لا يعلمون الرِّسالة الخاتمة، وهم على احتمالين:

الأوَّل: الذين لم يسبق أن خُصّوا برسالة من عند الله، وهؤلاء هم الأميّون على المطلق عرب وغير عرب.

---

169 الفرقان 1.

170 الأعراف 158.

الثَّاني: الذين خُصّوا وسبق إبلاغهم برسالات أو إنباء من عند الله تعالى وهم اليهود والنّصارى ومجموعة من الأمم والأقوام والشّعوب السّابقين، ومع أنَّ هؤلاء سبق إبلاغهم أو إنبائهم فإنَّهم بالنّسبة إلى الرِّسالة الخاتمة أميّون لا يعرفونها أبدًا.

ولذا فالنَّبي الأميّ هو محمَّد قبل الرِّسالة الذي في ذلك الوقت لم يصلِّ الله وملائكته عليه فهو كسائر النَّاس، أمَّا محمَّد بعد الرِّسالة فهو الذي صلى الله عليه، وأمرنا أن نصلي عليه ونسلم، فالحمد لله أنَّنا من المصلين والمسلِّمين عليه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[171]، وعلينا أن نميز بين قوله: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) وقوله: (صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)، فالأولى: إنَّ الله وملائكته يصلون على النَّبي ولا يُسلِّمون عليه، والثَّانية: يُصلُّون عليه ويسلّمون تسليما؛ ولأنَّ الصَّلاة على النَّبي مباركة، وهي تقدير له فالله وملائكته يباركون الرَّسول ويرضون عنه؛ ولأنَّ التسليم طاعة فالله يُطاع ولا يَطيع؛ ولهذا الذين آمنوا يباركون الرَّسول ويطيعونه ويسلمون عليه تسليمًا، إيمانًا وتسليمًا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[172]؛ ولأنَّ أمر التسليم طاعة واتباع للرّسول، قال الحواريّون لعيسى وهم طائعون ومصدِّقون له كما جاء على

171 الأحزاب: 56.

172 النساء 59.

لسانهم في قوله تعالى: {رَبَّنَا آَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسول فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}[173].

محمَّدٌ وغزوُ الأميَّةِ:

الأميّ هو الذي لا يعرف ولا يعلم بما لم يُعْلِم أو يُعلَّمَ به، والنّبي الأميّ هو محمَّد الذي لم يعلم بأمر الرِّسالة التي كُلِّفَ بها قبل نزولها عليه؛ ولذا فالذي لا يعلم بالشّيء لا يقول شيئًا، أمَّا الذي يَعلَم فإنَّه يُعلِم بما أُعلِم به ويُعلِّمَه لمن هم لا يعرفون عنه شيئًا.

والأميُّ هو "المنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه، أي: لا يَكتُبُ، فهو لأَنَّه لا يَكتُب أميّ؛ لأنَّ الكِتابة مُكْتسَبَةٌ؛ فكأَنه نُسِب إلى ما يُولد عليه، أي: على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه"[174].

مع أنَّ التفسير السَّابق يربط بين مفهوم الأم والأميَّة، فلعلّه يميل إلى المتقاربات، أمَّا القول: بأنَّه لا يكتب فهو أميّ، فهنا لا علاقة للتقارب بينهما؛ ذلك أنَّ الأمي هو الذي لا يدري، أمَّا الذي لا يكتب فهو الذي يجهل أمر الكتابة؛ ومن هنا سبق أن بينَّا الفارق المفاهيمي بين الأمرين وقلنا: الأميَّة في مواجهة الدِّراية، والجهل في مواجهة التعلّم.

ووفقًا للتعريف السَّابق تظهر علاقة قويّة بين (الأميّ والأمَّة والأمّ) فكما أنَّ الأمّ أصل الحمل والرّضاعة والعناية، كذلك الأمَّة هي أصل لكل

173 آل عمران 53.

174 لسان العرب، ج 12، ص 22.

هويَّة اجتماعيَّة ونسب، والأميُّ هو المنسوب إلى الأم، وهي الأصل والمنسوب إلى الأمَّة وهي أيضًا الأصل؛ ولذلك فالنَّبيُّ الأميّ هو الأصل الذي يجب العودة إليه؛ لمعرفة ما نسخ أميَّته بالدِّراية والنبأ اليقين.

والأميُّ هو الصَّافي الذي لا تشوبه شائبة من إثر قراءة أو كتابة مُسوَّقة لخدمة غرض من الأغراض الدِّينيَّة أو الدِّنيويَّة، وهو من لا تلتصق به التّهم فيما لا يعلم وإن نُعت بها.

والأميَّة حالة غزو غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة النِّسبيَّة ودائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فمن يكن أميًّا يصبح في دائرة الممكنِ عالما متى ما غزاه العلم واستنار عقله؛ فما بالك باستنارة النَّبأ اليقين الذي نسخ أميَّة محمَّد بعد أن أمره الله بالقراءة فقرأ باسم الله ما لم يكن يقرأ ويعلم؟!

وعليه: فإنَّ مفهوم الأميَّة جاء في مواجهة مفهوم الدِّراية (ولا اشتقاق من الأميَّة إلّا مفهوم عدم الدِّراية)، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[175]، وقال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[176].

جاءت هاتان الآيتان مبيّنتين لمفهوم الأميَّة بأنَّها عدم الدِّراية بالمطلق، وهذا يخالف الجهل؛ إذ لا جهل بالمطلق، ولا علم بالمطلق؛ ومن هنا فالجاهل وإن لم يتعلّم فإنَّه يدري.

---

175 الأحزاب: 63.

176 عبس: 3.

وهذا يدلُّ على أنَّ الأميَّة أكثر بعدًا من المعرفة؛ ولذا فالنَّبي محمَّد قبل الرِّسالة لا دراية له بها، كما أنَّ مفهوم الدِّراية يدلُّ على: (العلم، والمعرفة والخبرة والتيقُّن من الشّيء)، وفي المقابل، الأميَّة: (ما يخالف ذلك كلَّهُ)، فالذي لا يتكلَّم اللغة الفرنسيَّة بالنّسبة إلى المتحدثين بها هو جاهل، والذي لا يعرف لغة الحاسوب واستخداماته فهو بالنِّسبة إلى هذا الأمر جاهل، حتى وإن كان من المتحصّلين على الشَّهادات العالية والدَّقيقة، أو كان عالما في علوم الفقه والدّين، وهكذا في المقابل بالنِّسبة إلى من يجيد اللغة الفرنسيَّة، أو أيِّ لغة وهو لا يعلم أو لا يعرف شيئًا عن علوم الفقه والدِّين أو الأديان، فهو لا يخرج عن دائرة الجهل النسبيّ؛ ولذلك كل العلماء والمتعلِّمين في دائرة عدم المعرفة النّسبيَّة، ومع ذلك فالجهل لم يكن أعظم حالًا من الأميَّة، بل الأميَّة أعظم؛ كونها تدلّ على عدم الدِّراية بالمطلق، وليس على عدم المعرفة؛ ذلك لأنَّ المعرفة عقليَّة؛ ولذا فالكل في دائرة النّسبيَّة يعرف ما يعرفه، أمَّا الأميَّة بالشيء فلا معرفة ولا علم ولا دراية به، وبخاصّة أنَّ أمر الشيء كان بأمرٍ يتعلَّق بالسَّماء، ومن هنا فأمر الدِّين (الوحي الموحى) لا يأتي إلَّا من خارج العقل (من السّماء إلى الأرض)؛ ولأنَّه يأتي من خارج العقل إليه من السَّماء فلا أحد يعلم أو يعرف أو يدري شيئًا من ذلك؛ ولهذا فالكل أميٌّ بأمر السّماء، وما محمَّدٌ إلَّا واحدٌ من الأميّين بأمرها إلى أن أعلمه الله، وأنبأه بالأمر (كن)، فكان محمَّدٌ قارئًا بالأمر (اقرأ) فقرأ، وهذه معجزة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ومن هنا علينا أن نميّز بين أمرين اثنين، هما:

الأوّل: أمرُ القراءة: إنَّه الأمر الذي صدر لمحمَّدٍ من الله تعالى بقوله؛ (اقرأ فقرأ)، ومع أنَّه قرأ؛ فهو لو لم يقرأ باسم الله ما كان قارئ، وفي هذا الأمر كانت القراءة عن غير تعلُّم.

الثَّاني: أمرُ التعلّم: إنَّه الأمر الذي يتطلّب معلّمًا سبق وأن تعلّم من معلّمٍ سابق عليه. ومن هنا فالتّعلُّم قد يكون تعلم المكتوب والمسموع، وقد يكون تعلّم ما يشاهد من سلوك.

وعليه: فإنَّ الرّسول الكريم بالنّسبة إلى علم القرآن قبل نزوله كان أميًّا قراءة وكتابة ومعرفة ودراية؛ مصداقًا لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[177].

إنَّه الأمر الأوّل الصَّادر للنَّبي الأميّ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)؛ ولأنَّ محمَّدًا -عليه الصَّلاة والسَّلام- أميّ، فقال: ما أنا بقارئ فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فقرأ ما قيل له فأصبح بما قرأ غير أميّ.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أميّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[178] فـ(منهم أميّون) للتبعيض وهي عائدة على بعض ممن يجهلون ما جاء في الكتاب المبين، ويقصد اليهود الذين هم أميّون بالنّسبة إلى من عُلِّمَ

---

177 العلق: 1 . 5.

178 البقرة: 78.

أو تعلَّم الكتاب المبين أو آمن به. وهناك من يرى أنَّ الأميّين هم العرب وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن وأمر الرِّسالة الخاتمة للنَّاس كافَّة، وهناك من يقول: "(ومنهم أميّون)، أناس من يهود"[179].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[180] العرب الأميّون والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ)؛ ولأنَّه الرَّسول فهو المصطفى للرِّسالة الخاتمة، ولأنَّه النَّبي فهو الذي أنبأه الله: {النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}[181]، ولأنَّه الأميّ فهو لم يكن له سابق علم ولا دراية بما أُعلم به وأنبأ وكُلّف؛ وجاء قوله تعالى: (النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ). ولم يقل: (النبإ الذي فيه سيختلفون) لأنَّ المختلفون فيه هو ما كان قبل، أمَّا ما بعدها وهو الذي جاءت به وأخبرت عنه فلا اختلاف عليه إلَّا من كافرٍ وجاحدٍ.

أمَّا قوله: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ) فهم أصحاب التَّوراة والإنجيل الذين يعلمون أنَّ رسولًا خاتمًا ودينًا للكافَّة سيكون على لسان الأميّ أحمد صلوات الله وسلامه عليه.

---

179 تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

180 الأعراف: 157.

181 النبأ: 2 3.

ولأنَّ الرَّسُول صلوات الله عليه وسلم لم يعد أميًّا بعد الرِّسالة الخاتمة، فقوله حقّ يستوجب الاتباع؛ قال تعالى: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)؛ ولأنَّ هذا الأمر من الله أعطاه لمحمَّد حقًّا في سبيل إحقاق الحقّ، فاتباعه واجب، ومن يعصي أمر محمَّد صلوات الله وسلامه عليه بالمعروف يعصي أمر الذي أصدر له الأمر وهو الله جلَّ جلاله؛ ولذا لا يعتقد في أنَّ الله تعالى يعطي أمره لمن يجهل أمره (أمّيّ)؛ ولهذا لا يعد محمَّد أميًّا وبين يديه أمرُ الله مكلّفٌ به.

ولأنَّ محمَّدًا بعد أنْ أغزاه الله درايةً لم يعد أميًّا؛ لكونه أصبح يمتلك المعرفة الواعية بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النّهي عن المنكر وتحليل الطّيبات وتحريم الخبائث؛ مصداقًا لقوله تعالى: (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)؛ ولذا عندما كان محمَّدٌ أميًّا لم يُعط له هذا الحقّ أو هذه الصَّلاحيَّات كما تسمّى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلَّا هل يُقبل أن يكون أمر التصرُّف بأمر الطَّاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يقبل التحليل والتحريم والنهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحَلّل أو يُحرّمُ؟

بالطبع: لا.

ولهذا فمحمَّد صلّى الله عليه وسلّم بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى فهو القارئ وليس الأميّ؛ ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرِّسالة.

وعليه: فإنَّ الكلام أو الحديث عن محمَّد قبل أن تغزوه الرِّسالة كلام أو حديث عن أميّ، والكلام أو الحديث عن محمَّد بعد أن غزت الرِّسالة عقله وقلبه حديث أو كلام عن رسول عالم يدري؛ ولذلك على المسلمين

أن يفرّقوا بين الحديثين والشّخصيّتين (شخصيّة محمَّد الأميّ، وشخصيّة محمَّد الرَّسول النَّبي العالم) وإلَّا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأميّ، ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء الأجلاء؟!!

وكيف يُقبل أن يكون محمَّد هو صاحب الرِّسالة الخاتمة للنَّاس كافَّة وهو المرجعيَّة للرّسالة ونقبل أن يوصف بالأميّ؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوَّل: أمرُ محمَّد الأميّ.

الأمر الثَّاني: أمر الذين تعلَّموا ممَّا علَّمهم به علماء وحكماء؟

وعليه: أيقبل أنْ يكون للرِّسالة مرجعيَّة ورسولها أمّيّ!؟

ولأنَّ محمَّدًا رسولٌ للنَّاس كافَّة؛ قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأميّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[182] أي إنَّ محمَّدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولًا خاصًّا بالعرب، بل هو للكافَّة: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[183].

إذن كيف يُقبل أن يكون رسول الكافَّة أميًّا والنَّاس يعلمون؟

---

182 الأعراف: 158.

183 سبأ: 28.

أقول: رسول الكافَّة ليس بأمّيّ، بل هو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلل وحرَّم، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النَّبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه، ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه: فالقول بـ(الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّدٍ) هو إقرار بأنَّه لم يعد ذلك الأميّ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[184] قال (يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) ولم يقل: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ صلّوا عَلَى النَّبِيِّ) أي: إنَّ الله وملائكته صلاتهم على النَّبي لا تنقطع أبدًا، ومن ثمَّ الأمر هنا لو أردنا المقارنة بقصد التبيان يختلف عن أمر سجود الملائكة لآدم الذي حدث أمرًا وتسليمًا بما ميَّزه الله به من نبأ لا يعلمه الملائكة، فكان السّجود طاعة لأمر الله ساعة الخطاب والإنباء، وهكذا سيكون هو الأمر لو جاء قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ صلّوا عَلَى النَّبِيِّ)، أي: لكانت صلاةُ ماضٍ (صلاة وقد انتهت)، ولكنَّها جاءت صلاة دائمة باقية، وهذه من أعظم معجزات النَّبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّنا من الذين أسلموا وجههم لله ربّ العالمين وآمنوا به واحدًا أحدًا لا شريك له، وبمحمَّد رسولًا خاتمًا فإنّنا نصلّي ونسلّم عليه مباركة وإقرارًا بأنَّ ما جاء به هو الحقّ من الحقّ المطلق جلَّ جلاله؛ ولذا فالصَّلاة والسَّلام على محمَّد هي اعتراف واعٍ بأنَّه الرَّسُول الذي اصطفاه الله للنَّاسِ كافَّة بالرِّسالة

184 الأحزاب: 56.

الخاتمة؛ ولأنَّه يعلم بأمر الرِّسالة أكثر من الذين آمنوا بها على يديه، أو آمنوا بها من بعده؛ ولهذا فالصَّلاة والسَّلام إعلان تسليم بالحقِّ والرَّسُول الحقّ المصطفي من الحقِّ المطلق.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[185]. الأميّون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، بل تدل وتعني: أنَّ الأميَّة هي في دائرة النّسبيَّة، وليس في دائرة المطلق (ما يتعلّق بأمر الدِّين الرِّسالة الخاتمة)، وإلَّا هل كان جميع العرب لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنَّهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلَّا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا مع أنَّهم حقًّا أميّون إلَّا أنَّ البعض منهم يقرؤون ويكتبون؛ وهم بالنِّسبة إلى الدِّين الجديد (القرآن) فهم جميعهم أميّون، وأنَّ أوَّل من أُعلِمَ هو رسولهم النَّبي محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميًّا قبل نزول القرآن، ولأنَّه أوَّل من أُعلم كان مكلّفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم وبتعليمهم الكتاب والحكمة بوصفهم كانوا أميّين بما أُنزل.

وعليه: فالرَّسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– كما جاء في الآيات السَّابقة يتلو القرآن، ولأنَّه كذلك فكيف يحقّ لنا أنْ نصفه أميًّا؟ أي: هل يحقُّ لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنَّه أميّ؟ وأيضًا كيف نصف من يزكّي

185 الجمعة: 2.

ويُعلِّم المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنَّه أميّ؟ أي: كيف نقبل بأنْ يوصف المعلِّم بالأميّ، ويوصف المتعلَّم منه بالعالِم؟

وفي هذه الآية الكريمة تتضح بعض المهام الرَّئيسة للرَّسول الكريم وهي:

. **أنْ يتلو القرآن على الأميّين**؛ ليعلموا الحقِّ ويتبعوه، والقرآن الذي يتلوه عليهم لم يَتعلَّمه بالقراءة والكتابة كما نحن نتعلَّم، بل تعلَّمه غزوة وحيًا مُوحى، وبهذا فقد عَلِمَه، أي: أُعْلِمَ به إعلامًا والإعلام بالشّيء كالخبر به، والفرق بين هذا وذاك هو أنَّ الإعلام بالشّيء يكون أمره (هو كما هو عليه)، والإخبار به للعلم بالشيء أو ما يتعلَّق به دون إلزام الأخذ به، والعلم بالشيء الإلمام به دون غفلة عن شيء منه؛ ولهذا قد علَّمه شديد القوى ما لم يكن يعلم حتى غزته الدّراية بالرِّسالة كاملة.

وعليه: فالإعلام بالقرآن لا يتمّ إلَّا مع من يجهله، ومن يجهله (أمّيّ) وتعليم القرآن يتمّ مع راغب أو أمّيّ؛ ولهذا كان محمَّدٌ قبل نزول القرآن أميًّا به، أي: لا يعلمه، ولا يعلم عنه شيئًا ولا يدري بخلاف سيدنا عيسى والذين آمنوا برسالته؛ فهم يعلمون أنَّ رسولًا سيصطفيه الله برسالته اسمه أحمد؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[186]؛ ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام كان أميًّا بالرِّسالات السَّابقة للرِّسالة الخاتمة فهو لم يعلم بالرِّسالة الآتية التي يعلم بها موسى وأتباعه قبل إعلامه وعلمه بالقرآن؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ

186 الصف: 6.

مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[187]. إنَّه القول الحقّ؛ فلو كان يعلم بالأمر مسبقًا ما كان أميًّا بأمر الرِّسالة، وهو أيضًا لم يكن يعرف الكتابة التي تخط بأيدي الكتَّاب؛ ولذا فلو كان قارئًا لكان كاتبًا لما يقرأ، ولَكان في دائرة الموصوفين بالتعلّم بدلًا من دائرة الموصوفين بالأميَّة.

ـ **أنْ يزكيهم**، وتزكيتهم باتباع الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وتجنب ما نهى الله عنه واتباع ما أمر باتباعه والأخذ به، وبتحليل ما أحلَّه الله لهم، وقول الحقِ وفعله وعدم الإفساد في الأرض أو سفك الدِّماء فيها بغير حقٍ، فمن يتبع ذلك يعدّ مزَكّيًا؛ حيث لا ذنب عليه في شيء؛ والمزكّون هم المطهَّرون.

ـ **أنْ يعلِّمهم الكتاب والحكمة**، وهذه خطوة مترتّبة على الخطوة الأولى (العلم بالقرآن) والعلم بالقرآن يعني: عدم الجهل به؛ والعالم به هو من لا يجهله.

فكلمة: (يُعلِّمهم) تدلُّ على أنَّه متعلّم بعلم الكتاب وعلوم الحكمة، أي إنَّه بالعلم كان سابقًا على الأميّين بعلمه الذي به غزته الدِّراية، وإلَّا ماذا سيعلّمهم لو لم يكن عالما متعلمًا؟! وبما أنَّه المتعلم بما علمه الله به؛ لذا لا يحقّ أنْ يوصف بالأميّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

187 العنكبوت: 48.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أميّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[188]. (ومنهم) جاءت للتبعيض؛ وذلك لإظهار الجزء من الكل، وهذا يدل على أنَّ البعض الآخر غير أميّ، فالذين يعلمون بالكتب والرُّسُل ورسالاتهم غير أميّين، والذين لا يعلمون شيئًا من هذا هم الأميّون؛ ولذلك فبعض من اليهود، وبعض من النصارى، وبعض من العرب أميّون لا يعلمون الكتاب.

ولذلك "الأمَّة الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ إلَيْهَا مِنهم مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ وَقَدْ بُعِثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنْ الْحِسَابِ مَا فِيهَا، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنُ اللتبية حَاسَبَهُ. وَكَانَ لَهُ كُتَّابٌ عِدَّةٌ -كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَزَيْدٍ وَمُعَاوِيَةَ - يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ، وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ، وَيَكْتُبُونَ كُتُبَهُ إلَى النَّاس إلَى مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤوسِ الطَّوَائِفِ، وَإِلَى عُمَّالِهِ وَوُلَاتِهِ وَسُعَاتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ"[189]. وعليه: كان الرّسُول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام أميًّا قبل نزول الرّسالة عليه، أي إنّه أميّ قبل الرّسالة مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[190]، أمَّا بعد نزول الرّسالة عليه فليس بأميّ؛ وذلك لأنَّه أوّل مَن قرأ القرآن، وأوّل من أعلم به النَّاس، وأوّل من علّمه لهم، وأوّل من صلى بهم قارئًا، قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ

188 البقرة: 98.

189 مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

190 العنكبوت: 48.

يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[191].

ولأنَّ البعض أميّ قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[192]، ولأنَّه قرآن كريم نزل ليُحقّ الحقَّ ويبطل الباطل، قال: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) أي: بعض من أهل الكتاب وليس كلهم، فلا تعميم؛ حيث البعض يؤتمن جانبه والبعض لا يؤتمن جانبه، ومن لا يؤتمن جانبه إذا داينته بدين لا يردّه إليك؛ فهؤلاء هم مثل الذين يأكلون الرِّبا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}[193]، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}[194].

ولأنَّ النَّبي محمَّد هو المعلِّم فقد علّم المسلمين ممّا علَّمه الله من علمه الواسع، ومنه:

ـ علَّمهم الكتاب.

---

191 البقرة: 151.

192 آل عمران: 75.

193 البقرة: 275.

194 النساء: 10.

ـ علَّمهم الحكمة.

ـ علَّمهم تلاوة آيات الذّكر الحكيم.

ـ علَّمهم كيف يرفعون الآذان عند مواقيت الصَّلاة.

ـ علَّمهم كيف يتطهّرون وكيف يتوضؤون.

ـ علَّمهم كيف يقيمون الصَّلاة عند إقامتها وكيف يصلون.

ـ علَّمهم كيف يركعون وكيف يسجدون عند كلّ صلاة.

ـ علَّمهم الزّكاة، وكيف يخرجونها، وعن ماذا يخرجونها، وزمن إخراجها.

ـ علَّمهم الحجّ، وكيف يُحرمون، وكيف يطوفون، وكيف يسعون، وكيف يقفون بعرفات، وكيف يرجمون، وكيف يفدون، وعمَّا يفدون، وبماذا يفدون.

ـ علَّمهم الجهاد، ومتى يجاهدون، وبماذا يجاهدون، وعلَّمهم تفضيلات كلّ جهاد، وعن ماذا يجاهدون، وفي من يجاهدون.

ـ علَّمهم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

ـ علَّمهم إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

ـ علَّم الشُّورى وكيفيَّتها.

ـ علَّمهم الهداية وكيف يهدون الآخرين، وفقًا لقاعدة (لا إكراه في الدِّين).

وعليه فإنَّ تعليم محمَّد للآخرين هو ممَّا علَّمه الله وأعلمه وحيًا، أمَّا تعليمه هو فهو تعليم مباشر من عند الله عزَّ وجلَّ عن طريق وحي موحى، وهكذا يكون الفرق كبير بين من علَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، وبين من علَّمه مجتهد من المجتهدين الأكارم.

إذن من هو الذي يستطيع أن يُخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور؟

هو علّاَم الغيوب الله العليم جلَّ جلاله بقوَّته وقدرته وأمره (كن) ثم من علَّمه من علمه الواسع (الرَّسُول الكريم) الذي أذِنَ له الله بذلك؛ مصداقًا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[195].

إذن الذي عُلِّم كيف يُخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور قادر على أن يُعلِّم الماكثين فيها كيف يخرجون منها، ويُعرِّفهم الشّيء الذي به يتمكَّنون من الخروج من الظُّلمات إلى النُّور (من الجهل إلى العلم ومن الكفر إلى الإيمان)؛ قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[196]. نعم إنَّه محمَّد رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى؛ ذلك لأنَّ معلّمهِ الذي علّمه الوحي كان علمه شديد القوى، أي إنَّه العلم الذي عراه لا تنفصم؛ أية من بعد آية، وحُجَّة من بعد حُجَّة، ومعجزة من بعد معجزة.

---

[195] – الحديد 9.

[196] النجم 3 – 5.

مُحمَّدٌ تغزوه الدِّرايةُ:

الدِّراية إلمام رفيع بالمدرى به إنباءً، مع وافر الوعي مقدرة واستطاعة، ولا مضاد لمفهوم الدِّراية إلَّا الأميَّة، التي كانت صفة للنّبي محمَّد، قبل أنْ يتم إنباءه بالمدرى به، والذي من بعده أصبح النَّبي المدري بعلم السَّماء يقينًا.

والدِّرايةُ لا تكون إلَّا بعلم الغيب من عالم الغيب، وهو العلم الذي لا يُمكن معرفته إلَّا بالنبأ المنزَّل على الرُّسُل الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّ علمَ الغيبِ بيد عالم الغيب والشَّهادة، فلا إمكانيَّة لمعرفة شيء منه إلَّا وحيًا يُوحى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[197]. أي: مع أنَّ الله قد أظهر للنبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ما أظهره عليه من وحي مُنزَّل، فإنَّه لم يظهره على كل الغيب وعلمه؛ ومن هنا فإنَّ علم السَّاعة ما زال علم غيب ولا دراية لنا به مع علمنا وتسليمنا.

إذن: الدِّراية هي العلم بالشّيء يقينًا، وعن وعيٍ واستطاعةٍ، وهي الدَّالة على إحداث الغزوة النَّاقلة من حالة الأميَّة إلى حالة الإلمام بالعلم المنزَّل درايةً.

والدِّرايةُ لا تكون إلَّا غزوة استنارة بعلمٍ كان مجهولًا كما تستنير الظُّلمة بنورٍ يضيء مساحتها وإنْ عظُمت.

---

[197] الأحزاب 63.

ولهذا فإنَّ علم الدِّراية لا أميَّة فيه أبدًا؛ ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم الأميَّة يعطي مفهومًا مضادًّا لمفهوم الدِّراية، وفي المقابل يصبح مفهوم العلم مضادًّا لمفهوم الجهل؛ ولهذا مع أنَّه لا وجود لأمَّة أميَّة بعد الرِّسالة الخاتمة والرّسُول الخاتم، فإنَّ الجهل بين أفراد الأمم قيدٌ على كلِّ بداية ونهاية، وغزواته وإن انخفضت وقلّت فإنَّها لم تنه بعد.

والأمَّةُ الجاهلة هي الأمَّة التي تعيش التخلُّف ولا تُدرِك الحالة التي هي عليها من تخلّفٍ، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم ولا تسهم في إحداث النُّقلة وبلوغ الأمل ونيله دراية.

ومع أنَّ غزوة الأميَّة على العقل قيدٌ؛ فإنَّ غزو الدِّراية قادرٌ على كسر قيدها؛ وذلك كما كسرت أميَّة النّبي محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام- الذي كان قبل الوحي أميًّا والذي أصبح من بعده نبيًّا مدريًا.

الدِّرايةُ تغزو الأميَّة:

إذا أردنا أن نعرف مفهوم غزو الأميَّة وغزو الدِّراية علينا أن نميِّز بين المفاهيم التَّالية:

. **الجهل** في مواجهة **العلم** (الجهل قيد دون العلم)؛ والجهل لا يعني عدم المعرفة، بل يعني أنَّ جزءًا كبيرًا من المعرفة غائبٌ؛ فالذي يعلم بمحمَّدٍ رسولًا، ولا يعلم عن رسالته إلَّا قولًا مسموعًا يعدُّ جاهلًا، وليس بأميٍّ؛ ذلك لأنَّ الجاهل هو من تحوطه العلوم والمعارف والأنباء ولا يسعى إلى معرفتها، ومن هنا يعد غزو الأميَّة في مواجهة غزو الدِّراية (ولا اشتقاق من الأميَّة إلّا مفهوم عدم الدِّراية).

ـ **الشَّك** في مواجهة **اليقين** (الشَّك قيد دون اليقين).

ـ **الغفلة** في مواجهة **الصَّحوة** (الغفلة قيد دون الصَّحوة).

ـ **الوعي** في مواجهة **الغيبوبة** (الغيبوبة قيد دون الوعي).

ـ **الضلال** في مواجهة **الهداية** (الضلال قيد دون الهداية).

ـ **التيه** في مواجهة **المعرفة** (التيه قيد دون المعرفة)؛ ذلك لأنَّ التائه هو الذي ليس له من الدّليل شيءٌ ليستدل به على الشَّيء معرفة.

ـ **الدِّرايةُ** في مواجهة **الأميَّة** غزوًا هي إلمام معرفي بلا نواقص، وهي الممكِّنة مِن معرفة العلاقة بين السّماء والأرض، وهذه خاصيّة خصَّ الله بها الرُّسُل والأنبياء الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام وحيًا وإنباءً.

ومع أنَّ الدِّراية خاصيَّة خصَّ الله تعالى بها الأنبياء والرّسُل، فإنَّ المؤمنين بمعجزاتهم يدرون بها علمًا ومعرفةً تمكّنهم مِن التمييز بين العلم الممكن، والعلم المعجز، والعلم المستحيل؛ ومفهوم العلم هنا ليس كما يظنُّ البعض ذلك التعليم الممنهج، بل هو علم الدِّراية يقينًا واستنارةً.

والدِّراية غزوًا لا تكون استنارةً إلَّا من بعد الإلمام التَّام بما ينبغي الإلمام به، وأنَّ المدرىَ به سيكون قيدًا على من التزم به أوامر ونواهٍ؛ ولذا فالدّراية رفعة عن كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة؛ وذلك بغاية بلوغ ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة، التي:

ـ تغذي الرّوح سموًّا.

. تطمئن النّفس سكينة.

. تخاطب العقل دراية.

. ترضي القلب يقينًا.

. تشبع البدن حاجة.

. تزيد الذّوق رفعةً وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا وبما فيها من دراية عقليَّة، إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا لا تزيد عن كونها حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر فأصبح الصِّدام والاقتتال انحدارًا بين بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خَسِرَ ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه درايةً؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا يُنبئ بما عُلّم به من قِبل خَالقه؛ ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنَّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلَّا بالعمل الصَّالح عقلًا ودرايةً.

ولذلك أصبح العمل ارتقاءً أمل المصلحين السَّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود؛ والسَّاعون ارتقاءً مهما بلغوا من المراتب والقمم فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم؛ ولهذا وجب اتقان العمل إخلاصًا ودرايةً، حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السَّماء جنَّة.

عليه: وجب العمل الممكِّن درايةً من بلوغ الأحسن وغزوه ارتقاءً، شريطة ألَّا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن

يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامَّة؛ ذلك أنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرضٌ خاصٌّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرّفعة، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطّريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

ومن هنا فإنَّ بني آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودرايةً، ومتوقَّع الدُّونيَّة غفلةً وشهوةً، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه قيدًا، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاءً؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية واستنارة.

ومن ثمَّ ينبغي على بني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلةً، وتحقّق لهم العيش السَّعيد قيمةً، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلَّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار غزوة.

إذن: فعلى العقل الآدمي درايةً أنْ يعي إمكانيَّة بلوغ السَّماء ارتقاءً كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتمّ نيلها، ولكن إنْ أحسّ العقل وهو منفردٌ بشيءٍ من التّعب، فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاء.

فالارتقاء عقلًا ودرايةً مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدفًا فوق هدف، وغرضًا فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأملًا من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناةِ ارتقاءً، والهادمين له انحدارًا؛ ولأنَّ الخالق خَلقنا على الاختلاف فلا بدَّ أن نظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[198]، ولهذا فالصّراعُ والصّدامُ بين أهل العقول والدِّراية وبين أهل الشّهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل قيدًا ساريًا بين حقٍّ وباطلٍ.

ولذا فإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي عقلًا ودرايةً أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً ونُقلة.

ومن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمَّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن قيود وضياع فرصة، والزّمن قد لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف دراية واستنارة، ومن

---

[198] هود: 118، 119.

يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم قيد وعندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فقيد النّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما غلبت الشَّهوة عقل الإنسان وغزته انحدر غفلة، ومتى ما قوي عقله وغزته الدِّراية تذكَّر، فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر درايةً حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، وغاية من ورائها مأمول يتم نيله.

إذن: وجب التدبُّر درايةً بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين، فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّةً وارتقاءً.

فرجالات الدَّولة عقلًا ودرايةً هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنَّ العصبيّة قيدٌ ومقبرة للذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما

حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسُفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدَّولة ورفعتها ارتقاءً لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ؛ ولهذا ينبغي أن يتمَّ استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة، ومع ذلك ينبغي أن يتم إخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك فهم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وخُلقًا؛ وذلك أوَّلًا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً، وثانيًا: محاسبة من انحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السَّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن

سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجبت الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنَّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ حُرقة الجهل والظّلم والعدوان والكيد والمكر والحسد عندما تشتعل نيران غضبها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلّا الرّكون للتخلّف قيدًا، وفي المقابل الشّعوب التي تغزوها الدِّراية يرتقون علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، حتى يغزوا الأرض سلامًا، ويغزوا السّماء بحثًا وارتقاءً.

إذن: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه سيُسهم في إحداث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أنْ يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم

بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسئوليَّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

مع أنَّ بنو آدم وهم تحت قيد العقل وغزو الدِّراية يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغ ما يأملون رفعة وقمّة، فإنَّهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكِّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

والارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنَّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنَّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودراية من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)،

فبنو آدم عقلًا ودرايةً لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يقيّدون أمل عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدَّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاءً[199].

الدِّرايةُ تغزو الكُفر:

مفهوم الكفر ليس مرادفًا لمفهوم الشّرك ولا مضادًّا لمفهوم الإسلام، بل ذا مفهوم خاص، تُقدَّر معرفته بما يَقدم عليه البشر في مواجهة الحقِّ وإحقاقه.

ولهذا فلم يكن مفهوم الكفر كما ارتأه البعض على معكوس مفهوم الإيمان أو الإسلام، وكأنَّ معكوس الإيمان وحده المبيّن لمفهوم الكفر والدّال عليه، فكما أنَّ للإيمان مفهومًا به يُفهم ويُميّز وضوحًا دون الالتجاء إلى استدعاء معكوس مفهومه فكذلك للكفر مفهومٌ به يُميّز دون أن يرتبط بمفهوم الإيمان أو الإسلام، وكأنَّه ليس للكفر مفهومٌ وبه يتّضح ويُميَّز؛ ومن هنا فلا يكون مفهوم المؤمن والمسلم في مقابل مفهوم الكافر وتضاده أبدًا؛ فأهل الأديان السّماويّة جميعهم مسلمون؛ يؤمنون بالله –تعالى– وإنْ أشرك منهم من أشرك بما أشرك أو كفر، ومن ثمَّ فلا يليق بنا أن نقول: إنَّ مفهوم المؤمن أو المسلم يعني: معكوس مفهوم الكافر؛ ذلك لأنَّ لكلٍّ مفهومه ودلالته ومعناه، وهذا ما نحن بصدده بحثًا وتبيانًا.

---

[199] عقيل حسين عقيل، الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م، 6 – 16.

وعليه: فمفهوم الكفرِ يدلُّ على عدم الاعتراف بالحقيقة، مع مضادّة شديدة للحُجج والبراهين التي تُثبتُ صواب ذلك أو خطأه؛ ومع أنَّ الحقيقة تكشف الزّيف فإنَّ المتمسّكين بالزّيف حُجَّة (يكفرون بالحقيقة)، وفي المقابل المتمسِّكين بالحقيقة حُجَّة (يكفرون بالزّيف).

ومن هنا فمن يكفر بالزّيف والطّغيان والظّلم والعدوان ليس بالضّرورة أن يكون مؤمنًا بواحديّة الله أو ليس بمؤمنٍ بها، فمن يكفر بالزّيف والطَّاغوت والظّلم والعدوان، سواء أكان موحّدًا أم مشركًا أم لا دين له بالمطلق فهو كافرٌ.

إذن: فالكفر اعتقاد رفضي مع إنكار للحقيقة، وامتناع عن قولها، وتكذيب لأصحابها، وفي المقابل الإيمان اعتقاد تسليمي مع الاعتراف بالحقيقة، والأخذ بها، وتصديق لأصحابها، ومن هنا يشترك الكفر مع الإيمان في صفته إيمانًا؛ إذ كلٌّ منهما يعكس عقيدة المعتقد التي تخالف ما يعتقده الآخر، أمَّا اختلافهما فكان في دائرة التصديق والتكذيب والإصلاح والإفساد، أي: ما يؤمن به المفسد يَكفر به المصلح، وما يؤمن به المصلح يكفر به المفسد، وهذه لا تقتصر على من لا دين له ولا إيمان، بل تحتوي المؤمنين أيضًا.

وبين هذا وذاك تتشتّت المفاهيم دلالة ومعنى؛ فَتُجسِّد الكفر في عقول الخائفين والقلقين والشّاكين والظّانين، وفي المقابل تُجسِّد الإيمان في عقول المطمئنين والذين دخلت السَّكينة في قلوبهم.

ولسائل أن يسأل: ومن هم الخائفون والظَّانون؟

أقول: هم كلّ الأطراف الذين يدينون بدين التوحيد ويكفرون بغيره، وكذلك الذين لا دين لهم ويكفرون بمن دينهم التوحيد؛ ذلك لأنَّ الخوف والظّن لا تمحوه الأديان من عقول البشر وقلوبهم، وكذلك الكفر لا يمحو من العقول ظنًّا وخوفًا.

ولذا فدلالة مفهوم الكفر بدلالة أفعاله، فمن يَقدم على ما نهى الله عنه متحدّيًا لأمر الخالق فلا وصف له إلَّا كافرٌ، ومن يُطع أمر الله لا وصف له إلَّا مؤمنٌ طائعٌ، وفي المقابل من يعصي أمر من عصى أمر الله تحدّيًا فلا وصف له إلَّا كافرٌ.

وعليه: فإنَّ الإيمان يتعلّق بما يتمّ الإيمان به تسليمًا؛ فمن يؤمن بالله وحده لا شريك له ليس كمن يؤمن مع الله شريكًا، وأيضًا ليس كمن يكفر بالله وبما أمر به ونهى عنه.

ومن ثم فإنَّ مفهوم الكفر لا يكون إلا نسبيًّا؛ ذلك لأنَّ ما يراه البعض حقًّا وفقًا لما هم عليه من معتقدٍ يراه غيرهم باطلًا ويكفر به، وبالتمام فإنَّ ما يراه البعض حلالًا يراه البعض حرامًا ويكفر به؛ فشرب الخمر على سبيل المثال: لا يراه المؤمن بالرِّسالة الخاتمة إلَّا محرَّمًا ومع ذلك من المسلمين من يشرب الخمر، وهكذا بعض المسيحيين لا يرونه إلَّا في مرضاة الرَّبِّ، وفي المقابل بعضهم يخالفه تمامًا ولا يراه في مرضاة الرّبِّ أبدًا، ومن ثمَّ فمع أنَّ كلًّا من المسلم والمسيحي يؤمنان بالله فإنَّ ما يكفر به المسلم من شركٍ بالله لا يكفر به بعضٌ من المسيحيين.

ولسائل أن يسأل:

ما مقياس الكفر في دائرة النّسبيَّة؟

بالنِّسبة إلى المؤمنين بالرَّسُول الخاتم ورسالة الكافّة مَنْ يشرك بالله فقد كفر (من يضع الخالق في مستوى المخلوق فقد كفر)، أمَّا بالنسبة إلى المسيحي الذي لم يأخذ بما أمر الله به فلا يرى الإيمان إلَّا تثليثًا، أمَّا الكافر بالمعتقدين معًا فلا يؤمن بوجود الألوهيّة، بل لا يرى مِن مُسيّرٍ للكون إلَّا الكون ذاته؛ وذلك بقوله: الكون خَلق نفسه ولا خَالق من ورائه؛ ولذا فهم يؤمنون بخلق الكون لنفسه ويكفرون بالله جلَّ جلاله.

إذن: فمفهوم الكفر يتعلَّقُ بالمعتقد تسليمًا وتسفيهًا، وطاعة وعصيانًا، واعترافًا وإنكارًا، واتباعًا واعتراضًا، ومن هنا فإنَّ (التسليم والطّاعة والاعتراف والاتباع للحقِّ) يشير إلى الإيمان ويدلُّ عليه؛ حيث لا كفر، وفي المقابل (التسفيه والمعصية والإنكار والاعتراض على الحقِّ وإحقاقه) يشير إلى الكفر ويدلُّ عليه.

ولكن أيُّ إيمانٍ وأيُّ كفرٍ؟

إنَّه الإيمان بما يُعتقد، والكفر بما لم يُعتقد؛ وهذين الأمرين لا يقتصران على معتقدٍ بعينهِ، بل أيِّ معتقدٍ؛ ولذلك فما يراه البعض كفرًا يراه البعض إيمانًا.

ومع أنَّ الحقّ واحد (لا إله إلَّا هو)، وأنَّ الحقيقة واحدة (هِي كما هِي) فإنَّ مَن يعتقد في شيء ويكفر بغيره فلا يرى غيره إن اتخذ ما يكفر به

من معتقدٍ إلَّا كافرًا، وفي المقابل هو أيضًا سيكون منعوتًا بالكفر من قِبل مَن يكفر بما قد آمن به؛ ولذا فمع أنَّ الحقيقة واحدة فإنَّ مقاييسها في دائرة الممكن نسبيَّة؛ ولهذا دائمًا وفي كلِّ المرَّات العيب لا يلحق إلَّا المقاييس، ولا يلحق الحقيقة مرَّة واحدة.

ولأنَّ المقاييس نسبيَّة فلا يجوز الاحتكام بها إلَّا في دائرة الممكن؛ ولذا فلا مُطلقيَّة لها أبدًا؛ ومن ثمَّ فالحكم على الكفر وكأنَّه مفردة إسلاميَّة مطلقة وليس بمفردة لغويَّة لا يُمْكِنُ أنْ يُمكِّنَ من معرفة حقيقة الكُفر ودلالته مفهومًا ومعنى، ومن ثمَّ فالكفر لا وضوح لمفهومه إلَّا بما يدلُّ عليه من قولٍ وفعلٍ وعملٍ وسُلوكٍ.

وبالتوقّف عند كلمة (الكفر) يلاحظ أنَّ مفهومها يتأرجحُ بين سالبٍ وموجبٍ، فهو:

ـ **السَّالب**: عندما يَدلُّ على إنكار الحقِّ، وارتكاب الباطل، وإنكار الخالق وواحديَّته والكفر بربوبيَّته، ورفض رسالة الكافَّة والرَّسُول الخاتم، والتفريق بين رُسُل الله وأنبيائه، والكفر بأنعم الله، وإنكار البعث والحساب والعقاب والجنَّة والنَّار.

أمَّا الموجب: فعندما يَدلُّ مفهوم الكفر على الباطل، وكذلك عندما يدلُّ على الشّرك، والكفر بإنكار الواحديَّة، والكفر بالطَّاغوت، والكفر بالظُّلمِ والعدوان، والكفر بالأعمال الشّيطانيَّة، والكفر بإزهاق الحقّ، والكفر بمن يفرّق بين أنبياء الله ورُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام، والكفر بكلّ ما يؤدّي إلى فتنة بين النَّاس وإفسادٍ في الأرض.

ووفقًا لهذه القاعدة فإنَّ الكفر هو حطبُ نار الصّراع والاقتتال والافتتان بين أهل الحقِ والباطل، ومن هنا فإذا حاول الكافرون في دائرة السّلبيَّة امتدادًا على حساب سيادة الكافرين في دائرة الإيجابيَّة؛ حدث التَّماس ونشب الصِّراع بينهم والاقتتال فتنة، وكأنَّه قانون فطرة وقد فطر الإنسان عليها؛ قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}[200]، أي: لو لم يكفر البعض بالفتنة وبموقدي نارها لفسدت الأرض، ولسادت الفتنة بين النَّاس وكأنَّها المأمولة بينهم غاية.

وعليه: فإنَّ تفسير هذه الآية الكريمة لم يكن كما يظنُّ البعض أنَّ الدّين الإسلامي يأمر بقتال الكافرين لا لشيء إلَّا لأنَّهم لم يكونوا من المسلمين، بل الاقتتال هنا قانون فطرة جعل النزاع والاقتتال بين الحقّ والباطل أمرًا مفعولًا ولا فرار منه، ولأنَّ القرآن مصدر المعرفة الحقّة والدِّراية الحقَّة؛ نصَّ على وجوب ما ترتضيه الفطرة التي خُلق النَّاس عليها، وهي: وجوب مقاتلة أهل الفتنة سواء أكانوا مسلمين أم ليسوا بمسلمين؛ ذلك لأنَّ أهل الفتنة (من يكونوا) لا يمكن أنْ يهدأ لهم بال إلَّا بإيقاد نارها بين النَّاس، ومن ثمَّ أوجب الله –تعالى– مقاتلتهم؛ حتى تطفئ نيرانها وإلَّا فالظلم يسود، والأرضُ تفسد.

ومع أنَّ الكُفر إنكارٌ للحقيقةِ فإنَّ التكفير عن الكفرِ ينفض الغبار عنها (ينفض الغبار عن الحقيقة، ويُمكِّن من العودة إليها والأخذ بها)، ومن

[200] البقرة 193.

هنا فالكفر في دائرة النسبيَّة متحرّك بين امتدادٍ وانكماشٍ، وبين اعترافٍ وإنكارٍ، وبين إقدامٍ وإحجامٍ؛ ففي دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كل شيء قابل للتغيير حُجَّة وجدلًا وبرهانًا، ومن ثمَّ فالتكفير في مرضاة الله واتقائه يمحو ما يُرتكب من سيئات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[201].

إذن: فكلمة الكفر لا مفهوم لها وضوحًا إلَّا بما تدلُّ عليه من معنى، أو فعلٍ، أو عملٍ، أو سُلوكٍ، وبهذا يكون الكفر اتخاذ موقف مما لا يجب، سواء أكان مرضيًا للبعض أو مغضبًا لهم، ومن هنا فالكفر لا يخرج عن دائرة النّسبيَّة والممكن، ومن ثمَّ فما يبدو لك محبَّبًا ومرغوبًا ومفضّلًا قد يبدو لغيرك مكروهًا ومرفوضًا ولا يؤخذ به، ومع ذلك لا ينبغي أن تصدر الأحكام على المخالفين هكذا جزافًا، بل وفقًا للمعياريَّة الأخلاقيّة والإنسانيَّة التي لا مكان فيها للانحياز والمظالم.

إذن: فبالنِّسبة لأهل الحقّ يعدُّ الكفر بالحقِّ باطلًا، وفي المقابل لا يعد كذلك بالنّسبة إلى من لا يرى في إحقاق الحق إلَّا قيدًا عليه، ومن هنا فبالنّسبة إلى أهل الحقّ جاء الكفر في مواجهة مفهوم إزهاق الحقِّ حقًّا، أمَّا بالنّسبة إلى من تمسّك بالباطل فلا يرى التمسُّك بالحقِّ والعمل على إحقاقه إلَّا كفرًا وباطلًا، وهكذا أهل الشّرك لا يرون التمسّك بالشّرك كفرًا، بل يرون من ينكر ذلك هو من يشار إليه كافرًا.

[201] الأنفال 29.

وعليه: فإنَّ كُفر الإنسان بالباطل لا يعدُّ إلَّا حقًّا، ومن ثمَّ فكفره بالظّلم والظّالمين هو الآخر لا يعد إلَّا حقًّا، وفي المقابل كفره بالعدالة يعدُّ باطلًا؛ ولأنَّ مفهوم الكفر ليس بمتضادٍّ مع مفهوم الإيمان، فإنَّ بعض المؤمنين يرتكبون الباطل، ويفسدون في الأرض، وفي المقابل غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام أو لا يؤمنون به يمتنعون عن ارتكاب مثل هذه الأفعال التي يجب الكفر بها وبمن يرتكبها.

ومن هنا جاء مفهوم الكفر بالله باطلًا، والكفر بالشِّرك حقًّا، وهكذا الكفر بالحَقِ باطلًا، والكفر بالباطل حقًّا، والكفر برسالة محمَّد باطلًا، والكفر بمن كفر برسالة محمَّد حقًّا، والكفر بالأعمال الشيطانيَّة حقًّا، والكفر بمن يكفر بالأعمال الشيطانيَّة باطلًا.

إذن: مما تقدَّم نرى أنَّهُ من بابِ الوجوبِ أن يكفر المسلم بكلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الكفر بالحقيقة، وهنا لا يصحُّ أن نُشير أو نصف (الكفر) بأنَّه سالبٌ، أو أنَّه لا يكون صفة إلَّا لمن لم يكن مسلمًا؛ ولهذا فدائمًا الكفر بالباطل حقّ، والكفر بالظّلم حقّ، والكفر بقتل النّفس بغير حقٍّ حقٌّ، وهذه جميعها موجبة الاتباع والأخذ بها.

ومن ثمَّ فالفرد المسلم، والجماعة المسلمة، والدَّولة المسلمة يجب أن يكونوا هم أوَّل من يحافظ على هذه الصّفة الحميدة (الإسلام دين المحبَّة)؛ إذ لا إكراه، ومن ثمَّ فيجب أن يكونوا هم أوَّل النَّاس الكافرين بالظّلم والعدوان وقتل النَّفس بغير حقٍّ، وبكل ما يؤدّي إلى الإفساد في الأرض، وفي المقابل إنْ ظلموا واعتدوا بغير حقٍّ وأفسدوا الفضائل الخيّرة والقيم

الحميدة فليس لهم من صفة ينعتون بها إلَّا صفة (الكفر)، مع العلم أنَّ هذه الصّفة لا تلحق المواطنين الذين ليس لهم يدٌ بما يجري من مفاسد ومظالم على أيدي من يتولّون زمام الأمور في أوطانهم ويمتلكون القرار فيها دون غيرهم.

وبما أنَّ الكفر وفقًا لما تقدَّم ليس بالمفهوم المضاد للإيمان إذن: فما هو المفهوم المضاد لمفهوم الكفر؟

أقول: إنَّ الكفر (غضبٌ على قولٍ، أو معتقدٍ، أو فعلٍ، أو عملٍ، أو سلوكٍ مع وافرِ الرَّفض وقبول التحدّي بغير حقٍّ)، وفي مقابل هذه المفاهيم الدّالة على الكفر يأتي مفهوم (الرِّضا عن القولِ، أو المعتقدِ، أو الفعلِ، أو العملِ، أو السُّلوكِ وتقبُّله مع وافر المناصرة الحقَّة)، وبهذه المفاهيم المتضادة يكون مفهوم الرِّضا في مواجهة مفهوم الكفر، وليس الكفر في مواجهة الإيمان أو الإسلام.

ولأنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه (القول والفعل والعمل والسُّلوك) وليس بمفهومٍ مجرّدٍ في ذاته، إذن يحتوي مفهوم الكفر في مضمونه (الغضب والإنكار) وهذا الأمر يجعل مفهوم (الرِّضا والاعتراف) في مواجهة صريحة مع مفهوم الكفر.

وكما أنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه على مفهومي: (الغضب والإنكار) فهو كذلك يحتوي على مفهوم (الرَّفض) جنبًا إلى جنب مع مفهومي (الغضب، والإنكار)، وفي مقابل هذه المفاهيم تأتي مفاهيم أخرى

لتضاداها، ومنها: (القبولُ، والاعترافُ)، أي: ما يرفضه البعض معتقدًا يقبله البعض الآخر وبه يعترف.

وكذلك فمفهوم الكفر يحتوي في مضمونه (الخروج عن الطَّاعة الحقَّة) الذي يؤدِّي إلى مواجهة مع مفهومي: (السَّماع والاتباع صوابًا)، ومن هنا فمفهوم الكفر يدلُّ عند البعض على التأبِّي والترفُّع على الحقِّ بغير وجه حقّ، وفي المقابل عند البعض الآخر يرى الكفر حقّ لمن يكفر بمن كفر بالحق وتأبَّى عليه.

إذن: الكافر في غير مرضاة الله هو من يركب رأسه نكايةً وكرهًا وكيدًا وظلمًا وعدوانًا على الغير وما يعتقدون أو يعملون ويفعلون، وفي مقابل هذا المفهوم الكفري يأتي مفهوم من أناخ بعيرهُ مسلِّمًا بما يجب مع الأخذ به واجتناب ما يُنهى عنه، أمَّا الكافر في مرضاة الله فليس براكبٍ لرأسه، بل هو الذي إذا ما تمسَّك بالحقِّ فلا يحيد عنه ولو كانت نفسه فداء له.

وعليه: فمع أنَّ الكفر عند عامَّة المسلمين كما سبق تبيانه لا يكون إلَّا باطلًا، فإنَّ مفهوم الكفر في ذاته ليس بباطلٍ؛ ذلك لأنَّ الكفر يعني: عدم التسليم بما لا يجب التسليم به أو التسليم إليه، وبهذا المفهوم لا يكون الكفر إلَّا موجبًا، أمَّا ما يكون عليه في مضادة لهذا المفهوم فلا يكون الكفر إلَّا سالبًا.

ولأنَّ مفهوم الكفر ليس بمفهومٍ مطلقٍ جاء أمر التكفير عنه ميسّرًا لنسخ أثره، وفي معظم القضايا يصبح الكفر وكأنَّه لم يكن؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ

يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[202].

إذن: فمن يتّقي الحقّ من بعد كفرٍ ويتجنَّب الباطل يكفّر الله عنه سيئاته التي كانت سبب كفره وعلَّته، ثمَّ يعظِّم له أجرًا: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}[203].

ولسائل أن يسأل: وما هو مفهوم التكفير؟

أقول: مفهوم التكفير هو: التخلّي عمَّا كان يعمله الكافر من مفاسد ومظالم وأعمال هدميَّة (شيطانيَّة) لا تُرضي الله، ولا تليق ببني الإنسان، وتتعارض مع القيم الحميدة والفضائل الخيّرة، التي ترسِّخ قيمة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؛ ولهذا فإنَّ التكفير لا يكون إلَّا من بعد وعيٍ بما يجب والإقدام عليه، ومن ثمَّ فهو بالإخلاص التَّام يُمكّن من التّوبة التي لا عودة إلى الكفر من بعدها؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}[204].

إذن: فالتّكفير فعل تتحقّق به المراجعة الواعية لما سبق؛ بغاية فرز الصَّفحات ذات المعلومات المشوَّهة والخاطئة من الصَّفحات ذات المعلومات الصَّائبة؛ وذلك لأجل عدم العودة إلى قراءة تلك الصَّفحات أو الأخذ بما كُتب فيها من أقوالٍ تكفيريَّة.

---

[202] التغابن 9.

[203] الطلاق 5.

[204] التحريم: 8.

ومع أنَّ بعض المفسِّرين ارتأوا ومالوا إلى أنَّ مفهوم الكُفر هو التغطية والستر فإنَّ ما نراه أنَّه ذو مفهوم آخر؛ وذلك لأنَّ مفهوم التغطية والستر والتغليف كما جاء في تفسيرهم هو أقرب إلى مفهوم الكلمة الإنجليزيّة وهي: كفر (cover)، ومن ثمَّ فهذا المدلول في اعتقادنا لا يتعلَّق بمفهوم الكُفر في اللغة العربيَّة، وبخاصَّة أنَّ مفهوم الكُفر يشيرُ إلى كشف الزّيف عن الحقيقة وتقديمها كما هي؛ إذ لا غموض، وإلَّا هل يُمكن أن يكفر الإنسان بالباطل وهو غير قادرٍ على كشف زيفه؟؛ ولذا فلا إمكانيَّة لإظهار الحقيقة إلَّا بكشف الزيّف عنها، ومَن يتمكَّن مِن كشف الزّيف موضوعيًّا ليس له بدّ إلَّا الكفر به، ثمَّ اتباع الحقّ والأخذ بالحقيقة موضوعيًّا.

وإذا سلّمنا بأنَّ الكفر ستر وتغطية كما جاء في اللغة الإنجليزيَّة (cover) فإنَّنا كمن يسلِّم بحجب الحقيقة التي لا ينبغي لها أن تُحجب، ولتبيان ذلك وتوضيحه نعرف أنَّ الإيمان بالله وحده حقّ، والعدل حقّ، واتباع الرَّسُول محمَّد النَّبيّ الخاتم حقّ، والجنَّة حقّ، والنَّار حقّ، والحساب والعقاب حقّ، والبعث حقّ؛ ومن ثمَّ أتساءل:

إذا شاءت نفس الإنسان أن تكفر فهل ستكفر (موضوعيًّا) بما هو حقّ، أم ستكفر بما هو باطل؟

في اعتقادنا ووفقًا لما سبق تبيانه فإنَّه في الحالتين يُمكن لنفس الإنسان أن تكفر؛ ولكن إن كفرت النَّفس بالحقِّ فإنَّها بهذا الكفر قد غطَّت الحقيقة وحجبتها مع أن الحقيقة موضوعيًّا لا تُحجب أبدًا، وهي في هذا السِّياق: مثل الشّمس التي وإن غربت مساء كلِّ يومٍ فأنَّ غروبها لا يلغي بقاءها على

قيد الحياة وجودًا؛ قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}[205]؛ وقال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}[206].

أمَّا إذا كفرت النَّفس بما هو باطل، فإنَّها بكفرها هذا قد كشفت حقيقته (أنَّه الباطل)؛ ومن ثمَّ أخذت بالحقِ، ثمَّ استطاعت إظهاره حقيقة للعيان وإخضاعًا للقياس، الذي يُمكِّن من المعرفة الواعية والدِّراية التَّامَّة، وهي في هذا السّياق كمن يدعو مَن يدعو من دون الله وهو ظانٌّ بأنَّه القادر على كشف الضرّ عنه في الوقت الذي تكون فيه حقيقة هذا الأمر باطلًا: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا}[207]؛ وقال تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}[208].

ولنميّز بين أهل الحقِ وأهل الباطلِ، نقول: إنَّ أهل الحقّ هم (الرِّجال القوَّامة) الذين يكفرون بالباطل، وبأعمالهم الحسنة يتولَّاهم الله ويخرجهم من الظُّلمات إلى النّور، وفي المقابل أهل الباطل هم الذين يكفرون بالحقّ، ويتولَّاهم الطَّاغوت، وبأعمالهم السّيئة يخرجهم من النّور إلى الظّلمات؛ قال

---

[205] آل عمران: 98.

[206] البقرة: 89.

[207] الإسراء: 56.

[208] غافر: 12.

تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}[209].

إذن من يغزوه الكفر بالشّيء (أيّ شيءٍ) يكفر به، ومن يغزوه الإيمان بأيّ شيء يؤمن به، وهكذا هو الصِّراع بين من يغزو عقله وقلبة الحقّ، ومن يغزو عقله وقلبه الباطل.

وعليه: فكما يكفر أهل رسالة الكافَّة والرَّسُول الخاتم بالظّلم والعدوان، فإنَّهم يكفرون بالشِّرك والطَّاغوت، وكل ما من شأنه أن يكون سببًا في إفساد الأرض؛ ولذلك فأهل الحقّ مأمورون بالكفر بكل الأعمال الشيطانيَّة: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[210].

ومن هنا فمفهوم الكفر المأمور به كما جاء في الآية السَّابقة ليس دائمًا كما يظن البعض بمفهومٍ سالبٍ، وليس بمفهومٍ ملتصق بمن نعتوا به أنَّهم كفرة، ومن ثمَّ فلم يكن مفهوم الكفر ملتصقًا بستر الحقيقة، بل إنَّه الكاشف لها والمبيّن.

ومن ثمَّ فالخلاف غزوةٌ دائمًا معركة بين من يكفر ومن يكفر (من يكفر بالطَّاغوت، ومن يكفر بالله)، أي: بين من يؤمن ومن يؤمن (من يؤمن بالله، ومن يؤمن بالطَّاغوت)، ومن هنا يحدث الخلاف والصّدام والاقتتال، ولم يكن الاقتتال كما يظن البعض أنَّه المكتوب بين المسلم وغير المسلم، بل الاقتتال لا يكون إلَّا بين من يتّبع الحقّ ويتمسّك به ومَنْ يكون،

[209] البقرة: 257.

[210] النساء: 60.

وبين من يتّبع الباطل ويتمسّك به ومَنْ يكون، ومع ذلك فالاقتتالات تُكتب كرهًا على من لا يؤمن بالاقتتال وكأنّه الحلّ أو المخلّص والمنقذ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[211]، أي: لو لم يقاتلكم أهل الظّلم والعدوان، وأهل الفتن والإفساد في الأرض، وأهل الطَّاغوت فلا تقاتلوهم أبدًا؛ ولهذا جاء التوضيح بقوله تعالى: (وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)، وهكذا جاء دين الهداية بالحقّ؛ حيث لا إكراه لمن خُلق في أحسن تقويم: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[212].

إذن: فَمَن يؤمن بالله ورُسُله ويكفر بالطَّاغوت، ويؤمن بالعدل ويكفر بالظّلم، ويصلح في الأرض ولا يفسد فيها فلا يعدُّ إلَّا من أهل الحقِ، وفي المقابل من يكفر بالله ورُسُله ويؤمن بالطَّاغوت، ويؤمن بالظّلم ويكفر بالعدل، ويفسد في الأرض فلا يعدُّ إلَّا من أهل الباطل: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[213].

---

[211] البقرة: 190.

[212] البقرة: 256.

[213] إبراهيم: 22.

يُفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ الشّيطان موحِّدٌ؛ فلا يُشرك بالله أحدًا، وفي المقابل مع أنَّ أهل الدِّيانات الواحديَّة يؤمنون بالله فإنَّ بعضهم بالله يشرك، أمَّا الشّيطان بكل ما لديه من أعمال شيطانيَّة فلم يشرك بالله، بل بشرك الله –تعالى–يكفر: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ)، أي: لقد كفر الشّيطان بما ارتكب بعض بني آدم من أعمال شركٍ أشركوه فيها مع الله؛ ذلك لأنَّ بعض النَّاس استعانوا بالشّيطان في قضاء في الوقت الذي فيه حاجاتهم لا تقضى إلَّا بأمر الله وإذنه.

ومن ثمَّ فهم عِوضَ أن يستعينوا بالله –تعالى–استعانوا بالشّيطان وكأنَّه شريك لله جلَّ جلاله، وهذه الإعانة التي كشف سرها الشّيطان قد كفر بها؛ لأنَّه يعلم أنَّه لم يكن شريكًا لله؛ ومن ثمَّ فالكفر الذي ينبغي أن يكون أوَّل من يكفر به هم بنو آدم، كَفَر الشّيطان به وترك لهم المجال فسيحًا لمن شاء أن يُشرك كفرًا، ومع ذلك فقد تبرَّأ من الذين أشركوه مع الله بغير حقّ (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ) فهذه الآية بهذا المفهوم تدلُّ على استهتار الشّيطان واستهزائه وكفره بمن أشركه مع الله بغير حقٍّ.

ولأنَّ مفهوم الكفر يحتوي في مضمونه الضّلال عن الحقيقة فإنَّ مفهوم الهداية يأتي متضادًّا لمفهوم (الكفر)؛ ذلك لأنَّ الهداية لا تكون إلَّا عن دراية ومعرفة واعية بما يجب وما لا يجب مع حسن الاختيار والاتباع، ومن ثمَّ فالكفر في دائرة السلبيّة لا يزيد الصدور إلَّا ضيقًا من بعد ضيق، وفي المقابل الهداية في دائرة الإيجابيَّة لا تزيد الصُّدور إلَّا انشراحًا: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}[214]؛ ولهذا فالكفر في دائرة السلبيَّة لا يزيد الإنسان إلَّا ضيقًا وضلالًا، أمَّا الهداية فلا تزيده إلَّا ثباتًا ودراية؛ قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[215].

ومع أنَّ الله أنزل آياته المعجزة حقائق ماثلة للمشاهدة والملاحظة فإنَّ الكافرين بها يفسقون، أي: لها يجحدون وينكرون، وعلى الرَّغم من حقيقتها شاهدة أمامهم فهم بها يكفرون: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}[216].

ولذا فالكفر في دائرة السّلبيَّة علَّته إنكار الحقيقة، ومن ثمَّ فلا بدَّ أنْ يكون الخلاف مع مَن ينكر الحقيقة، سواء أكان على دين الله موحّدًا، أم على دين الله مشركًا، أم ليس له دينٌ سوى الضّلال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[217].

يُفهم من الآية الكريمة السَّابقة أنَّ مفهوم الكفر جاء متضادًّا مع مفهوم الشُّكر {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}؛ ولذا فلا كفر إلَّا عن إنكار وعصيان، ولا شكر إلَّا عن اعتراف وطاعة واتباع؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[218]، فعبدًا شكورًا (عبدًا طائعًا موحِّدًا ومعترفًا

[214] الأنعام: 125.

[215] النساء: 146.

[216] البقرة: 99.

[217] الإنسان: 3.

[218] الإسراء: 3.

بفضل الله عليه)، ومن ثمَّ فمفهوم هذا المعنى (شكورًا) يأتي في مضادة تامَّة لمفهوم الكفر.

ومع أنَّ الشّكر دليل اعترافي بالمشكور، فإنَّ منافع الشّكر ومكاسبه لا تعود إلَّا على الشَّاكر: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[219]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[220]؛ ولهذا فالله –تعالى– على الرُّغم من شكرنا له فشكرنا له لا يزيده شيئًا ولا ينقص منه شيئًا؛ وهو المنعم والمطعم بنعمه التي لا تحصى وهو الكريم الذي لا يريد منَّا جزاءً ولا شكورًا: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}[221].

ولأنَّ مفهوم الكفر مفهوم (عصيان وإنكار لما يجب الاعتراف به) جاء مفهوم الشُّكر متضادًّا مع مفهومه (اعترافًا بما يجب الأخذ به طاعة)؛ ومن هنا يولد الاستكبار الذي هو الآخر لا يكون إلَّا عن معصية، والمعصية للحقّ لا تكون إلَّا عن كفرٍ؛ قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ

---

[219] النمل: 40.

[220] لقمان: 21.

[221] الإنسان: 9.

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[222].

يُفهم من هذه الآيات الكريمة أنَّ إبليس يؤمن بخالقه تعالى (خَلَقْتَنِي)، وفوق ذلك يتفاخر بخلقهِ له من نارٍ، وفي المقابل يسخر من خلق آدم ويقلل من شأنه؛ كونه المخلوق من طين (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ).

ولأنَّ إبليس يؤمن بالله تعالى فقد أقرّ بذلك وهو يترجّى الله أن يمنحه الفرصة ويمهله حتى يوم البعث الذي تنكشف فيه الأوراق الممتلئة حسنات بعد أن تفرز منها تلك الصّفحات الممتلئة سيئات أمام أعين فاعليها ومرتكبيها (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

كما أنَّ هذه الآيات تكشف أنَّ مفهوم الكفر معصيةً جاء متضادًّا مع مفهوم (الطَّاعة والاتباع)، ومن ثمَّ فإنَّ معصية إبليس لأمر الله بالسّجود لآدم جعلته عاصيًا كافرًا: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}؛ ولذا فلم يأتِ مفهوم الكفر بعدم الإيمان بالله، بل جاء فقط بمفهوم المعصية، وإلَّا لو لم يكن إبليس مؤمنًا بواحدية الله تعالى لما قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[223].

---

[222] ص: 71 – 83.

[223] ص: 82، 83.

وعليه: فمفهوم الكُفر مفهوم معصية، وعدم طاعة، وعدم اعتراف بما يجب، وعدم الإيمان بالحقِّ وتكبّرًا عليه؛ ومن ثمَّ فلم يكن مفهوم الكفر كما يعتقد البعض بأنَّه الكفر بالله، فلو كان الأمر كذلك ما وُصف إبليس بالكفر في الوقت الذي هو فيه يؤمن بالله واحد أحد.

ومن هنا ماذا يُقال لعبدةِ الشّيطان الذين يؤمنون به ويكفرون بالله تعالى؟

أقول لعلّ القول يكون: كيف تكفرون بالله وتؤمنون بالذي يؤمن به ولا يشرك معه أحدًا؟

نعم. مع أنَّ عبدة الشّيطان يكفرون بالله، فإنَّ الشّيطان الذي يعبدونه يؤمن بالله ولا يشرك به أحدًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[224].

إذن: مع أنَّ إبليس يؤمن بالله –تعالى–فإنَّه قد وُصف بالكافر؛ وذلك لعلَّةٍ رئيسة في نفسه؛ وهي استكباره وعدم طاعة أمر السّجود لآدم عليه السَّلام {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[225].

[224] إبراهيم: 22.

[225] ص 74.

وهكذا بالتمام لقد جاء مفهوم الكافر في عمومه بدلالات التكذيب والمعصية والتكبُّر والتأبِّي على الحقِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ}[226]، أي: إنَّ الذين استهزءوا بعمل نوح –عليه السَّلام–وكذّبوا أن يكون نوحٌ صانعًا للفُلكِ العظيمِ؛ فبعد صُنعه للفُلك وجريانه في البحر أصبحت الحقيقة التي كذّبها من كذّبها (الذين كفروا بها وبنوحٍ وصُنعهِ) ماثلة أمام الأعين معجزة جزاءً لمن كان مكذّبًا (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ).

ولأنَّ الكافر هو من لا يحتكم بالحقّ، إذن فمن يحتكم به ليس بكافرٍ، ومن ثمَّ فإنِ احتكم المؤمن أو المسلم بالحقِ فلا شكَّ أنَّ من يخالفهما في ذلك سيكون هو من يشار إليه بالكافرِ، وفي المقابل إذا أخذ بالحق من لم يكن مسلمًا ولا مؤمنًا ولم يأخذ به المؤمن والمسلم فسيكون من يشار إليه بالكفر في مثل هذه الحالة هو من يدَّعي الإسلام والايمان؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[227]، في هذه الآية ارتبط مفهوم الكفر بالعمل الذي لا يكون فعله وأثرهُ إلَّا خيراً، ومن ثمَّ فلا يُمكن أن يوصف فاعل الخير بالكافر حتى وإن لم يدخل الإسلام، مع العلم أنَّ أصحاب الأعمال الخيّرة في معظم نهايات حياتهم يؤمنون ويسلمون: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[228].

---

[226] القمر: 13، 14.

[227] التغابن: 2.

[228] الكهف 29.

في هذه الآية الكريمة ارتبط مفهوم الإيمان والكفر بقول الحقّ: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ)، ولأنَّه لا حقّ بالمطلق إلَّا بمقاييس الخالق ومعاييره التي لا تكون إلَّا متطابقة مع أمره تعالى، نجد التمسّك بالقول الصّادق والعمل الصّادق عند كثير من الذين لا يدينون بالإسلام إلى جانب إخلاصهم في الأعمال التي تناط بهم، وفي المقابل نجد ما يخالف ذلك لدى بعضٍ من المسلمين، ويا ليتهم يهتدون إلى ما يجب اتباعه والإقدام عليه، والتخلي عن كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الكفر بأنعم الله.

ولأنَّ الكفرَ ذو مفهوم متضاد مع مفهوم التكذيب جاء التكذيبُ للحقّ بمفهومِ الكفر: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[229]، فقوله: (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) ليس بمفهوم (منهم من دخل الإسلام ومنهم من لم يدخل الإسلام)، بل جاء بمفهوم (منهم من كذَّب ومنهم من صدَّق)، أي إنَّ الذين (جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)، والبيّنات هنا (الحقائق) فهم لو أخذوا بها ما اختلفوا (وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) أي: منهم من صدّق البيّنات (الحقائق) وأخذ بأمرها واتبع هداها، ومنهم من كذَّب وبها كفر؛ ولهذا فهم اختلفوا بين مصدّقٍ ومكذِّبٍ.

ولأنَّ الكفر ليس بمفهومٍ متضادٍ لمفهوم الإيمان والإسلام؛ قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}[230]، أي: قد كَذَبَ من قال: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، وقد كَذَبَ من قال: إنَّ الله ثالثُ

---

[229] البقرة 253.

[230] المائدة: 17.

ثلاثة: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}[231]، فَمِن مفهوم الآيتين السَّابقتين أنَّ الذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)، والذين قالوا: (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) لا شكّ أنَّهم يؤمنون بالله ولم يكفروا به، أي: مع أنَّهم يؤمنون بالله تعالى (مسلمون) فإنَّهم أشركوا به، أي: مع أنَّهم لم يكفروا بالله (لم ينكروه) فإنَّهم لم يأخذوا بأمره كلِّه، ومن هنا جاء التكذيب الذي به وصفوا كافرين (مكذِبين)، ومن ثمَّ فمن كفر فعليه كفره: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}[232].

يُفهم من الآية السَّابقة أنَّ مفهوم الكفر قد جاء متضادًّا مع مفهوم العمل الصَّالح {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}، ومن ثمَّ فلم يأتِ مفهوم الكفر متضادًّا لمفهوم الإسلام أو الإيمان.

إذن: فهناك من يؤمن بالله وفي الوقت الذي يؤمن فيه بالله يكفر بما آتاه الله من نِعَمٍ: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}[233]، فقوله: (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) أي: على الرّغم من أنَّهم يؤمنون بالله –تعالى– فلم يقدِّروا النِّعم التي آتاهم إيَّاها، ومن ثمَّ فلم يقفوا عند حدود (ما يجب والأخذ به، وما لا يجب والانتهاء عنه)؛ وبذلك وُصفوا بالكافرين؛ كونهم كفروا بما أتاهم الله من نعم وفضائل؛ قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً

---

[231] البقرة: 73.

[232] الروم: 44.

[233] الروم: 33، 34.

مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[234]، جاءت هذه الآية الكريمة لتبيّن أنَّ الكفر لم يكن بالله تعالى، بل جاء مفهوم الكفر هنا بأنعم الله التي لا تُحصى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[235].

وعليه: فإنَّ الكفر دائمًا لا يكون إلَّا فعلًا لاحقًا لمفعولٍ سابقٍ؛ فالنّعم المكرّم بها الإنسان لو لم تكن سابقة عليه ومشبعة لحاجاته المتطوّرة والمتنوِّعة ما عبث بها الإنسان وكفر، وهكذا أمرُ الله الحقّ الذي لو لم يكن سابقًا على كلِّ سابق ما كفر به من بعده لاحقٍ.

ومن هنا سيظل مفهوم الكفر نكرة ما لم نبيّن الكفر بماذا؟، فالكفر لا يكون إلَّا صِفة لموصوف، كالكفر بالحقّ، والكفر بالعدلِ، والكفر بالأنعمِ، والكفر بالله، والكفر بالطّاغوتِ، والكفر بالأنبياءِ والرُّسُلِ الكرام؛ والكفر بالظّلم، والكفر بالفسق والكذب، والكفر بكل من يكفر بالحقّ؛ ولهذا بلغت درجة الكفر لدى البعض بأن يكفر المخلوق بالخالق، وهكذا بالتمام البعض يكفر بآيات الوجود الذي هو جزءٌ من آياتها.

وعليه: في الوقت الذي فيه مفهوم الكفر يدلُّ على وجود قناعة بموجود في الوقت ذاته يُكفر بهذا الموجود على حساب وجود آخر يخالفه في الحقيقة تمامًا.

---

[234] النحل: 112.

[235] النحل: 18.

ومن ثمَّ فالكفر في دائرة المتوقَّع الإيجابي لا يكون إلَّا بما لا يطمئن النَّفس والعقل والقلب، أمَّا الكفر في دائرة المتوقَّع السّلبي فلا يكون إلَّا بما يُظهر سيادة الباطل على حساب سيادة الحقّ، ومن هنا فالكفر يعني: أنَّ الإنسان يعرف الحقّ ولا يأخذ به، ويعرف الباطل ولا يحيد عنه؛ ومن ثمَّ فالكفر إعراض عمَّا لا يجب الإعراض عنه، والأخذ بما لا يجب الأخذ به في مرضاة الله.

ومع أنَّ مفهوم الكفر عند عموم النَّاس ذو مفهوم سالب فإنَّ الكفر في ذاته ليس بسالبِ المفهوم لو لم يكن تابعًا لموصوفٍ سالبٍ يؤدِّي بأصحابه إلى إنكار الحقيقة، سواء أكانت الحقيقة محمولة في الكلمة والمحتوى، أم إنَّها مضمونة في الفكرة، أم إنَّها بالعمل تُفعل، أم إنَّها متجسّدة في السُّلوك، أم إنَّها آيات معجزة.

ولذا فمفهوم الكفر الذي لا ينبغي الخلاف حوله -وهذا ما ينبغي- هو عدم التسليم بما لا يجب التسليم به أو التسليم إليه موضعيًّا، وفي مقابل هذا المفهوم يصبح مفهوم الإيمان في دائرة النسبيّة بين موجبٍ وسالبٍ، فعلى سبيل المثال: من يؤمن بالله واحدًا أحدًا لا شريك له فقد آمن بالحقِّ، ومن يكفر بالله ويشرك به فقد آمن بالباطل؛ ولذا فمن يؤمن بالطَّاغوت ليس كمن يكفر به.

ولأنَّ للإيمان مقاييس فكذلك للكفر مقاييس وجميعها ترجع إلى:

. **المستحيلُ**: الذي لا يكون إلَّا بأمر الله ومشيئته، ومع ذلك كفر به من كفر وآمن به من آمن.

. **المعجزُ**: الذي بيد الله، وقد مكَّن الأنبياء والرُّسُل منه ومن معرفته، والتبليغ به، والدّعوة إليه، وقد آمن به من آمن، وكفر به من كفر.

. **الممكنُ**: الذي لا يكون إلَّا وفق مقدرة وهو المجاز من النَّاس عرفًا، وقيمًا، ودستورًا وقانونًا، ومع ذلك النَّاس منهم من يؤمن به ومنهم من يكفر: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[236].

وعليه:

. أعوذ بالله من الذين لا يكفرون بمن يكفر بالحقِّ وإحقاقه، وأعوذ به من الذين يؤمنون بالباطل ولا يكفرون به.

. أعوذ بالله ممن يمكر بالنَّاس ويوقد نار الفتنة بينهم ولا يكفر بها، وأعوذ به ممن لا يكفر بالظّلم ويؤمن بالعدوان ظلمًا.

. أعوذ بالله ممن لا يكفر بحرمان النَّاس من ممارسة حقوقهم، وأدائهم لواجباتهم، وحملهم لمسؤوليّاتهم، وأعوذ به ممن لا يعترف بالإنسان قيمة وقد فضلَّه الله على ما خلق، وأعوذ به ممن لا يكفر بإقصاء النَّاس والهيمنة عليهم والتأبّي.

---

[236] هود: 118، 119.

-أعوذ بالله من الذين يَكِيدُونَ للنَّاس كَيْدًا، ويمكرون بهم مكرًا، ويكفرون بالصّلح والصَّفح والعفو والتسامح ويفرِّقون بين النَّاس، ويأكلون أموالهم بالباطل، ولا يكفرون بارتكاب المحرَّمات والمجرَّمات[237].

أرسولُ الكَّافَّة ويغزو الكَّافَّة؟!

نعم؛ ذلك لأنَّه الرَّسُول المرسل إليهم ولا خيار له في ذلك، ومن ثمَّ ليس له إلَّا أن يغزوهم آية من ورائها آيات، وحُجَّة من خلفها حُجج، وفضيلة تتبعها فضائل، وقيمة تتولَّد منها القيم؛ وبهذا فغزو الرَّسُول للكافَّة لم يغزوهم ليأخذ شيئًا منهم على حساب خَلقهم في أحسن تقويم، بل جاءهم مرسلٌ بما يحافظ على حُسن التقويم، الذي لن يتغيّر ما لم تتغيّر الأخلاق وتنقلب القيم وتنكسر منظومتها.

بُعث رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام بالنّبوَّة في السَّابع والعشرين من شهر رجب يوم الاثنين، وعمره أربَعون سنة، وكان قبيل البعثة يختلي للعبادة في غار في أعلى جبل يقال له: (حراء) على بُعدِ ثلاثة أميال من شمال مكَّة؛ وفي ذلك الغار نزل عليه الوحي، وروى البخاري ومسلم أنَّ أوَّل ما بدئ به رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة في النّوم؛ ثم حبَّب إليه الخلاء؛ فكان يأتي حراء فيتعبّد فيه حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء؛ فجاءه الملك فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ ربّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ

[237] عقيل حسين عقيل، الرجال القوامة، المصرية للطاعة والنشر، القاهرة: 2022م، ص 152 – 177.

وَربّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[238]، فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على السيدة خديجة؛ فقال: "زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع؛ فقال: "يا خديجة ما لي؟" وأخبرها الخبر، وقال قد خشيت عليّ، فقالت له: كلا، ابشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ أنَّك لتصل الرَّحم، وتصدِّق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ.

بُعث محمَّد ليدعو إلى الواحديَّة، ولا يُكره في الدِّين، ولا يقف عن الدَّعوة والتحريض؛ ذلك لأنَّه المأمور تبشيرًا وهداية دون أن يستثني أحدًا؛ كونه رَسُول الكافَّة؛ ومن هنا بُعث برسالة لا بدَّ وأن تغزو عقول الكافَّة وقلوبهم محبَّةً ومودَّةً.

ولأنَّ الرَّسُول مأمور بالتبليغ فليس له إلَّا أن يبلِّغ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولأنَّه رسول الكافَّة فلا خيار له في تبليغ الكافَّة، ومن ثمَّ فلا سبيل له إلَّا أنْ ينتهج السُّبل التي بها تُغزى العقول والقلوب رغبة وإرادة.

وعود إلى ما بدأناه استفسارًا وتعجُّبًا: أرسول الكافَّة ويغزو الكافَّة!

نقول: نعم. إنَّه يغزو؛ ذلك لأنَّه رسول الكَّافَّة.

وما قصدناه بقولنا نعم أنَّه رسولٌ ويغزو، جاء مقصدنا وفقًا لما تمَّ تحديده من مفهوم ومغزى لكلمة (يغزو)؛ ذلك أنَّ محمَّدًا مُرسلٌ للكافَّة، وهو المأمور بتبليغها وإلَّا سيكون مقصّرًا تجاه ما أُمر به أمرًا من الله تعالى:

---

238 العلق 1. 5

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}[239]. ولأنَّه المأمور بالتبليغ فليس له إلَّا أن يبلّغ وإنْ واجهته الصِّعاب والشَّدائد، وليس له إلَّا القبول بدفع الثَّمن.

ومن هنا لم يكن محمَّدًا غازيًا من أجل حُكمٍ أو سيادةٍ شخصيَّةٍ، بل جاء غازيًا بالرِّسالة التي أمرهُ الله بأنْ يجعلها غازية هدايةً للكّافَّة؛ ولذلك فمن أجل أن تصل الكَّافة كان غازيًا وشعاره (أسلم تسلم)؛ أي إنَّه كان غازيًا وفقًا للأمر الصَّادر له من الله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[240]، ووفقًا لقوله جلَّ جلاله: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[241].

ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام رَسُول الكافَّة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[242]، إذن فلا خيار له إلَّا التبليغ بما أُرسِل به كتابًا منزَّلًا، فقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) يعني ممّا يعنيه: أنت يا محمَّد تختلف عن الرّسُل الكرام الذين سبقوك؛ فهم رُسُل خاصّة فلا يغزون بما أمروا به إلَّا الخاصَّة؛ أمَّا أنت يا محمَّد فرَسُول الكافَّة الذي رسالته لا بدَّ أنْ تغزو الكل وتجمع الكلّ برسالة الكلّ؛ ومن هنا كان محمَّدٌ يبشّر بدين الكلّ للكلّ ولا إكراه في الدّين.

ولأنَّ محمَّد خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته للكافَّة؛ فالكافَّة كلمة ذات مفهوم جامع للأنس والجن؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ

---

[239] المائدة 67.

[240] البقرة 256.

[241] يونس 99.

242 - سبأ 28.

نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}[243]. ولأنَّها للإنس والجن، وقد بلَّغ محمَّد الرِّسالة حتى آمن بها من آمن مَن الثِّقلين، وما زالوا يؤمنون حتى يوم الجمع؛ فهل غزى محمَّد الجنّ وقاتلهم بالسِّيوف مكرهين حتى يؤمنون، أم أنَّ معجزة محمَّد ثاقبة للعقول وغازية لها تبشيرًا وإنذارً؟

نقول:

الرِّسالة المحمَّديَّة حُجج إعجازيَّة تغزو العقول بالكلمة المسموعة، والمكتوبة، وهي التي سمعها الجن وصغى إليها فآمن مَن آمن منهم وكفر مَن كفر، ومفهوم الكفر هنا إنكار للحقيقة والأخذ بما يخالفها؛ إذ لا دليل ولا حُجَّة.

ومع أنَّ مفهوم كلمة الكافَّة يحتوي على الجمع دون استثناء؛ فإنَّه ليس دائمًا دالًّا على المفهوم المطلق؛ فعلى سبيل المثال: عندما نقول المؤمنون كافَّة؛ فإنَّنا لم نشر إلى غيرهم من الكافَّة، وهنا نلاحظ الاستثناء؛ أي استثناء المؤمنين كافَّة من الكافَّة غير المؤمنين، وهكذا عندما نقول المشركون كافَّة؛

243 – الجن 1 . 7.

فإنَّنا استثنينا الكافَّة من الكافَّة (كافَّة المشركين من كافَّة النَّاس) مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}[244].

يفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ المعنى يعود إلى الكافَّة الخاصَّة وليست الكافَّة العامَّة؛ أي نجد في هذه الآية كافَّتين: كافَّة المشركين، وكافَّة المؤمنين؛ ومن هنا فإنَّ التفسير يسمح لنا أن نقول: على المؤمنين كافَّة أن يقاتلوا المشركين الذين يقاتلونهم كافَّة، وهذه الكافَّة تستثني المشركين الذين لم يكونوا من بين أولئك الذين يقاتلون؛ وفقًا لقاعدة التعامل بالمثل، أي: مثلما يقاتلونكم المشركين كافَّة عليكم أنتم المؤمنين كافَّة مقاتلة من يقاتلكم من المشركين كافَّة، وهذا المفهوم يُقصِر المقاتلة على مقاتلة من يقاتلكم من المشركين، أي: إنَّ هذا المعنى يستثني من لم يقاتلكم منهم.

وعليه: من يغزوك بالكافَّة الخاصَّة به، عليك بغزوه بالكافَّة الخاصَّة بك، ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام رسول الكافَّة المطلقة فهو رسول للمشاهد والملاحظ (الإنس والجن): {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[245]

---

[244] التوبة 36.

[245] الأحقاف 28 – 32.

وعليه: فإنَّ مهمَّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام مهمَّة تبليغ، والذي يُكلَّف بهذه المهمّة يتَّصف بها وهو لا يزيد ولا ينقص ممّا كُلِّف به، فإن زاد أو أنقص فما بلَّغ رسالته تعالى (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)، وإن فعلت فقد بلَّغت رسالته: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[246].

محمَّدٌ تغزوهُ الهداية:

ولأنَّ غزو الأميَّة كان سابقًا على غزو الدِّراية، فكذلك غزو الضَّلال كان سابقًا على غزو الهداية؛ فمحمَّد رسول الله بعد أن كان أميًّا أصبح داريًا، وبعد أن كان ضالًّا أصبح مهتديًا: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}[247]، ولهذا يحقّ لنا أن نصف محمَّدًا رسول الله بعد أن غزته الهداية أصبح مُهدى من الحقّ تعالى إلى الحقّ المطلق الذي لا يعلمه إلَّا الله عزَّ وجلَّ؛ ولذا فالفرق كبير بين من يهديه الله مباشرة والذي لا يُهدى إلَّا على أيدٍ هادية.

إنَّ الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورُسُله، وبيَّن لهم الطُّرق ووضَّح لهم السُّبل حتى يتبيَّن النَّاس الرُّشد من الغي، والهدى من الضَّلال: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحقّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحقّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[248]، قل يا محمَّد للمشركين: هل من

246 - الأعراف 58.

247 - الضحى 7.

248 - يونس 35.

شركائهم من يهدي إلى الحقّ؟! لذلك فإنَّ القادر على الهداية إلى الحقِّ أولى بالاتباع والطَّاعة؛ ومن هنا فإنَّ الهداية التي غزا الله بها عقل محمَّد وقلبه هي التي غزا بها محمَّد العقول والقلوب هدايةً.

وعليه فإنَّ الهادي مِن الخَلق بالضَّرورة أن يكون مهتديًا؛ لأنَّ الهادي إذا لم يكن مهتديًا في نفسه لا يصلح لأن يكون هاديًا لغيره؛ ولهذا فإنَّ الهادي بالإضافة وهو خليفة الله في أرضه وجب عليه أن يبصّر عباد الله ويعرّفهم طريق معرفته حتى يقروا بالهادي وصولًا إلى الهدى؛ ذلك أنَّ الهادي بالإضافة (الإنسان المهتدي) هو الدَّليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطَّاعات؛ قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[249]؛ وهنا تتجلَّى هداية التأييد من الهادي التي تمثَّلت بالفضل، فلولا أنَّ الله تفضَّل على نبيّهِ بالوحي ورحمه بالإدراك النَّافذ، لأرادت طائفة منهم السَّعي إلى الإضلال، ولكنَّهم لا يضلّون إلَّا أنفسهم، لأنَّ الله أطلع نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام على تدبيرهم، وجعل بصيرته نافذة إلى الحقِّ، فلا ضرر عليه من تدبيرهم وتضليلهم، وقد أيده الله تعالى بنور الهداية بما أوحى إليه، الذي هو ميزان الحقّ ومصباح الهدى وسبيل الرَّشاد، وأودع قلبه الحكمة وعلَّمه من الشَّرائع والأحكام ما لم يعلمه إلَّا بوحيٍ منه؛ حيث كان ضمان الهداية من الله تعالى مخاطبًا نبيه: إنَّ فضل الله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدى في توخي طريق العدل، وأنَّ وبال ذلك الإضلال يرجع عليهم بسبب

---

249 - النساء 113.

تعاونهم على الإثم، ومردُّ ذلك إلى هداية الله تعالى وحكمته في أنَّه يعصم المؤيدين بالهدى ممّن يحاول إضلالهم، فمن تولاه الله بفضله وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أراده بسوء فلا سبيل إلى فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[250] وإرادة الفتنة من الله تعالى هنا لا تدخل في المشيئة، وإنما تدخل في باب العلم من الله تعالى أنَّ هؤلاء لن يهتدوا أبدًا بما تقدّم أيديهم من باب الاختيار بين الخير والشّر والهدى والضَّلال والغي والرَّشاد، فَتَرْك الخير والهدى والرَّشاد، واتباع الكفر والضَّلال والغي، هو من قبيل التمسّك بالجهل المؤدِّي إلى المهالك، فهؤلاء لا يؤسف عليهم بصنيع أفعالهم من تركهم طريق الهدى الموصل إلى الهادي، فهم ينتقلون في مراتب الضَّلال من أدناها إلى أعلاها مسارعين فيها، من هؤلاء المخادعين الذين قالوا: آمنا بألسنتهم ولم تذعن للحقِّ قلوبهم فمن يرد الله ضلاله لانغلاق قلبه؛ فلن تستطيع أن تهديه، أو أن تنفعه بشيء لم يُرده الله له، وأولئك هم الذين أسرفوا في الضَّلال والعناد لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم من دنس الحقّد والعناد والجهل والضّلال، ولهم في الدُّنيا ذلّ بالفضيحة والهزيمة، ولهم في الآخرة عذاب شديد عظيم.

إنَّ الله سبحانه وتعالى هو الهادي، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، وذلك بخلق أفعال الهدى وأفعال الضّلال، وعلى هذا يكون الخَلق من الله وممّارسة الفعل من الإنسان، سواء أفعال الهدى والرَّشاد أم أفعال الغي؛ قال

250 - المائدة 41.

الله جلَّ ذكره إخبارًا عن كليمه موسى عليه الصَّلاة والسَّلام في مناجاته له: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}[251].

والهداية تكون على معنيين: أحدهما: بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانًا الطَّريق، أي: أرشدّته إليه، والآخر بمعنى التوفيق؛ قال الله عزَّ وجلَّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[252] أي إنَّك لا تستطيع يا محمَّد أن توفّق للهداية من أحببت، ولكنَّ الله يوفِّق إليها من يشاء؛ ولهذا فالنبي عليه الصَّلاة والسَّلام أرشد وبيَّن وأوضح وبلَّغ من يحب ومن لا يحب، فبيَّن بذلك هدي الرِّسَالات السّماويَّة التي قبله، والرِّسالة التي جاء بها صلّى الله عليه وسلّم؛ إذ لا خلاف أنَّ الدِّين عند الله الإسلام، وجميع الرِّسالات السَّماويَّة مصدرها الهادي، وهنا نستطيع أن نقول:

إنَّ الهدى الذي غزى الله به قلب النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام هدى تكليف، وأمَّا بالنّسبة للمبلّغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة؛ فالرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام هو الخليفة، وهو الهادي بالإضافة، ولأنَّ الهادي هادي الطّريق، والهدى واحد من الطّرق التي تؤدّي إلى النَّجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلى نجاتهم وفوزهم.

251 - الأعراف 155.

252 - القصص 56.

الأسوةُ تغزو محمَّد وبها يغزو:

أُسوةُ محمَّد جاءت من تلك المكانة الرَّفيعة التي بوَّأه الله بها بين الكافَّة؛ فكانت القدوة الحسنة تغزوه وبها يغزو العقول قولًا وعملًا وفعلًا وسُلوكًا؛ ولذا فمَن تغزوه الأسوة الحسنة هو من يكون مثالًا للآخرين في قوله للحقّ وفعله، واهتدائه به عملًا وسلوكًا: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[253]. والأسوة الحسنة هو من يضربّ المثل به في الصِّفات الحسان المستمدّة من صفات الله الحسنى؛ لتكون معاملة بين النَّاس في الهداية، وكان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أسوةً حسنةً من حيث:

أ. اتباعه لأمر الاتباع الذي أمره الله به، وانتهائه عن الأمر المنهي عنه.

ب. اتباعه لسنن الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه بالدّعوة: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[254].

ج. تكوينه وإعداده الأخلاقي؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[255].

---

253 - الأحزاب 21.

254 - الممتحنة 4.

255 - القلم 4.

ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام تغزو قلبه وسلوكه الأسوة الحسنة؛ فإنَّه لين القلب طيب النّفس: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[256]، وبهذا اللين ليس لك بدٌّ إلَّا أن تعفو عنهم وتستغفر لهم وتشاورهم في كل أمرٍ يتعلّق بهم، وهكذا كان محمَّد لينًا تغزوه الأسوة الحسنة قولًا وعملًا وفعلًا وسلوكًا.

ولأنَّ محمَّد أسوة حسنة من عند الله اتخذه النَّاس لهم مثالَ حُسْنٍ وقدوة؛ ولهذا أصبح موصوفًا بما وصفه الحقّ به: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[257]. في هذه الآية الكريمة دلالة على فضل الاقتداء بالنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام.

وعليه: فإنَّ محمَّدًا لم يغز ظلمًا ولا عدوانًا على من لم يعتد عليه أو يعدّ العدَّة للعدوان على المدينة أو الدَّولة النَّاشئة، بل كان محمَّدٌ غازيًا بالقرآن بغاية الإبلاغ به والتبشير والهداية؛ ولهذا فهو القدوة الحسنة لمن شاء أن يكون مبشّرًا أو داعيًا وهاديًا للحقّ واتباعه؛ ومن هنا فمحمَّد مطاع عن رغبة وإرادة؛ ذلك أنَّ الطَّاعة الحقّ لا تكون إلَّا للحقِّ، والذي يأمر به؛ ولذا فالطَّاعة لا تغزو إلَّا بحجّةٍ فيكون من بعدها الاتباع ونيل التقدير ونيل الاحترام ونيل الاعتراف وتحقّيق الاعتبار، وفي معكوس المعنى اللغوي للطَّاعة يكون الغزو ضّلالًا ومعصيةً، وفي مقابل الطّوع يكون الكره.

256 - آل عمران 159.

257 الأحزاب 21.

والطَّاعة غزوةً قد تكون بعد تبيُّن وقد تكون طاعة للأمر الموثوق من مصدره: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[258]، في هذه الآية الكريمة جاء أمرُ طاعة الرَّسُول مرتبطًا بطاعة الله، فالذي يطيع الله ليس له بدٌّ إلَّا أن يطيع الرَّسُول صلّى الله عليه وسلّم.

ولأنَّ الدِّين الحقّ من عند الله، فالله تعالى أوجب طاعة الرّسُول، ثم تلاها بطاعة أولي الأمر من النَّاس طاعة في غير معصية لله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[259]، ولكن قوله (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) لا تعني أولي أمركم، فأولي أمركم تعني من يتولاكم بالرِّعاية والعناية كالوالدين والأخوة الكبار، أمَّا أولي الأمر منكم فهي تعني الذين اخترتموهم طواعية لأن يتولَّوا رعاية الأمر الذي هو منكم، وهذا الأمر هو أيّ أمر منكم سواء أكان سياسة داخليَّة أم خارجيَّة أم سلمًا أم حربًا، فالذي اخترتموه لذلك عليكم بطاعته في الأمر الذي اخترتموه من أجله، وهذا يعني لا طاعة له في غير الأمر الذي تم اختياره ليكون عليه واليًا وراعيًا.

والذين استجابوا لأمر الله بطاعة الرَّسُول الكريم فعليهم بطاعته دون تردد، وعليهم أن لا يتخلَّوا عنه في ساعة العسرة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا

---

258 - آل عمران 32.

259 - النساء 59.

سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}[260]؛ ولذلك في طاعة الرَّسُول هداية واتباع للحقّ الذي أمر الله بطاعته، ومن لم يطع الرَّسُول فيما يأمر به فقد ضلّ، وعليه عبء ما حُمِّل به: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرّسول إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[261]، وليعلم الجميع أنَّ الذي يطيع الله ورسوله يُدخله الله تعالى الجنَّة والأنهار من تحتها تجري: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}[262]، والذين يدخلون الجنَّة بأسباب طاعة الله ورسوله، يجدون أنفسهم مع أولئك الذين أنعم الله من النبيين والصّديقين: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[263].

وعليه: فإنَّ المطاع بالمطلق هو الله، والمطاع أمرًا هو رسول الله محمَّد صلّى الله عليه وسلّم: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}[264]، أي إنَّ الله تعالى أمر رسوله محمّدًا بأن يبلغ النَّاس بطاعة الله وطاعته رسولًا مبشرًا ومنذرًا ومحرضًا على الحقِّ بالحقّ؛ ولذا فطاعة الرّسُول الكريم تستوجب اتباعه عن بيّنة وأفعال خير حِسان واقتداء حسن به في الدِّعاية والتبشير والهداية والتحريض.

---

260 – الأنفال 20، 21.

261 – النور 54.

262 – النساء 13، 14.

263 – النساء 69.

264 – آل عمران 32.

وعليه فإنَّ طاعة الله طاعة في ذاته، وطاعة الرَّسُول طاعة لأمر الله بطاعته، وهكذا تكون من بعده طاعة أولي الأمر في غير معصية الله عزَّ وجلَّ، ولأنَّ طاعة الرَّسُول الكريم مأمُور بها، إذًا من الوجوب في طاعة الرّسُول محمَّد اتباع ما أمر باتباعه والانتهاءِ عمَّا نهى عنه.

ومع أنَّ الرَّسُول الكريم مأمور بأن يُبلِّغ النَّاس بطاعة الله وطاعته رسولًا خاتمًا للرُّسُل، إلَّا أنَّه لا يكره أحدًا على الطَّاعة؛ حيث لا إكراه في الدِّين؛ ومن ثمَّ فمن يتولى عنه يُحمِّل وزرًا ومن يهتدي فقد رشد، ولأنَّ أمر طاعة الرَّسُول موجَّه للمؤمنين؛ لذا فمن آمن بالله تعالى ربًّا ولم يؤمن بمحمّد رسولًا قد أضاع أعماله التي يعتقد أنَّها قد تنجيه من العذاب الشَّديد: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[265].

الإيمانُ يغزو محمَّدًا وبه يغزو:

المؤمن هو من يُسلِّم أمره إلى من آمن به ولا يُشرك به أحدًا، فالرّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام آمن بالله تعالى ربًّا واحدًا لا شريك له، فآمن من بعده بما أُنزل إليه من رَّبَّه وهو القرآن الموحى إليه وحيًا، فكان مبشّرًا به وداعيًا له، حتى آمن المؤمنون به نبيًّا رسولًا لربٍّ واحد أحد: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[266].

265 - محمّد 33.

266 - البقرة 285.

آمن به تعني: وثق به وصدَّقه، حتى اعتقده حقّيقة؛ ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم الذي غزى عقل محمَّد وقلبه وبه استنار درايةً.

والمؤمن من المؤمنين هو الذي يؤمن بالمؤمن الحقّ وحده لا شريك له بيده الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

أمَّا الأمانة: فهي المتداولة بين الطّرفين أو الأطراف ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملَّك، وهي إرث يُورَّث من سابقٍ إلى لاحقّ يأتي من بعده كما تورث الأمانة بالإيمان للمؤمن بها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[267].

والأمن: فعل استقراري من فاعل أعظم إلى فاعل بالإضافة {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[268].

والأمان: عهد يُقطع ممّا يجعل أمان الله باقيًا ببقائه، وأمان العبد زائلًا بزواله.

والإيمان: اعتراف إرادي بفعل جلّ، {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

267 – الأحزاب 72.

268 – الأنعام 82.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[269].

بناء على ما تقدَّم علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني؛ وذلك من حيث إنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلٌ وفاعل، وبما أنَّ للإيمان فعلًا، إذن فمن يعمل على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن (الفاعل) وإلَّا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟! ولذلك فمن تغزوه الصِّفة ويتخذ أفعالها يتصف بها.

وبما أنَّ الأمانة عبء، والعبء ثقيل ليس هينًا، ومن ورائه مسؤوليَّات جسام، فمن الذي يتطوّع لحمْله؟

نقول:

الذي يغزوه الوثوق بالإيمان حقًّا هو الذي يتقدَّم متطوّعًا لحمْله، أمَّا غير الواثق فلا يتقدَّم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بها.

وعليه فالمؤمن هو المصدِّق: {قالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}[270] فقولهم: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) تعني: وما أنت بمصدق لنا،

269 – المجادلة 22.

270 – يوسف 17.

وجاءها التأكيد عليها بقولهم: (ولو كنَّا صادقين) التي تحمل في مضمونها الاعتراف من قِبلهم بعدم صدقهم فيما يقولون؛ ولهذا قالوا ولو كنَّا صادقين، ولم يقولوا ونحن صادقين.

وعليه: فالمؤمن هو الصَّادق، الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد؛ ولهذا (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) تدل أيضًا على انعدام الثّقة فيهم في أمر يوسف؛ وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق؛ ولذلك قلنا إنَّ المؤمن هو: الواثق؛ كونه الصَّادق فيما يقول، ولأنَّه كذلك، فالمؤمن كلّما استمع أو قرأ قولًا من قول الله تعالى قال: صدق الله العظيم، وهذا القول هو التصديق من المؤمن بالإضافة للمؤمن الحقّ جلَّ جلاله. ولأن المؤمن هو الواثق، قال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ).

ولأنَّ أمر التسليم بالحقِّ حقٌّ، فالإيمان بالحقِّ أمر تسليم، ولهذا جاء قوله تعالى: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ}[271]، أي: أصبح فعل الإيمان أمرًا نافذًا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحدٍ؛ ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقّيقة هي البيّنة، {قالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}[272]، إذن: لا إيمان للأعراب إلَّا بعد أن يدخل الإيمان في قلوبهم ويؤمنون بالرَّسُول الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام الذي آمن بالله ولم يشرك بربّه أحدًا: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ

[271] الجن 13.

272 - الحجرات 14.

آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[273].

وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[274]. هذه الآية رسالة من الله تعالى إلى النَّاس جميعًا، يُطلب فيها الإيمان به وبرسوله محمَّد النَّبيّ الأمّي، الذي آمن بالله وكلماته وهو الذي له ملك السَّماوات والأرض وحده لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وقد يظنّ البعض متسائلًا:

كيف يكون هو الرَّسُول من عند الله تعالى ويقول آمنوا بالله ورسوله النَّبي الأمي، وفي هذا النَّص يشير مباشرة لنفسه (النّبي الأمي)؟

هذه الآية نص تام من عند الله تعالى، وما الرّسُول إلا مكلف بتبليغها هي كما هيَّ دون زيادة ولا نقصان، فالله تعالى هو الذي قال النّص التَّام لهذه الآية الكريمة، وهو الذي وصفه بالنبي الأمي، ولم يصف نفسه بذلك، وبهذا الوصف الرّباني يُبرئ الله سيدنا ونبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام من أيِّ اتهام أو ظنّ، مؤكّدًا أنَّ الرِّسالة التامة هي من عند الله، وليس للرَّسُول فيها من شيء إلَّا غزوة الإيمان لقلبه، وعليه بالبلاغ، وبهذا أكَّد الله تعالى

273 - البقرة 285.

274 - الأعراف 158.

على أنَّ الرَّسُول أمّي، أي لا علم له بأمر الرِّسالة لو لم يُعلِمه الله بها ويُعلِّمه علمها ويُكلِّفه بالتبليغ.

ومن ثمَّ فإنَّ الرَّسُول كما سبق أن بيَّنا من بعد الرّسالة لم يعد أميًّا، فهو الذي يُبيِّن ويفسِّر ما علَّمه الله، فالرّسول قبل الرّسالة بحقّ كان أميًّا بأمرها، أمَّا من بعدها فقد علَّمه الله عزَّ وجلَّ بعلم الرّسالة، فالرّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام لو لم يعلم أنَّ الله على كل شيء قدير ما آمن به، ولو لم يعلم علم اليقين بأنَّه الحقّ ومنه الحقّ ما اصطفاه الله رسولًا له، ولو لم يكن كذلك قادرًا على حمْل ما كلَّفه بحمله ما حِملَ الرّسالة وبشَّر بها ودعا إليها وحرَّض على ما تأمر به، ولو لم يكن كذلك ما كان المرجعيَّة التي يعود إليها جميع المسلمين: {وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[275] وقوله تعالى: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[276] فأنزله أوَّلًا: بعلمه الذي عَلِمهُ محمَّد، وثانيًا: بشَّر به، ولأنَّه قادر على ذلك، صلّى الله عليه، وطلب منَّا الصَّلاة والتسليم عليه.

ولقد ورد بلاغان في الآية الكريمة (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) بلاغ عن الرَّسُول، وبلاغ به، فالبلاغ عنه: أنَّه آمن بالله وكلماته (كلمات الله تغزوه). والبلاغ به: أنَّه المكلف بإبلاغ النَّاس أن يؤمنوا بالله وبرسوله النَّبي الأمّي (أن يغزو النَّاس بكلمات الله).

275 - الحشر 7.

276 - النساء 166.

وعليه، فالإيمان في هذه الآية جاء رُبّاعي الأبعاد:

البعد الأوَّل: إيمان الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام بالله تعالى.

والبعد الثَّاني: طلب في صيغة أمر بأن يتم الإيمان بمن آمن الرّسُول به وهو المؤمن تعالى.

البعد الثَّالث: أن يتم التسليم والإيمان بالرَّسُول الأمّي محمَّد رسول الله عليه الصَّلاة وأتم التسليم.

البعد الرَّابع: اتباع الرّسُول؛ أي الأخذ بسنَّته؛ حتى تتم الهداية لِما يأمر الرَّسُول به.

وعليه فمن يؤمن بالرّسُول فقد آمن بالله الذي به آمن وبما أنزل إليه منه تعالى: (آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَّبّهِ)، ومن يكفر فلن يكون إلَّا حطبًا من حطب جهنَّم.

وعليه فالأمانة التي عرضها الله تعالى على السَّماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسئوليَّة التي حمْلها الإنسان، والمسئوليَّة التزام بالطَّاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحدًا أحدًا لا شريك له؛ ولذا فالأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أمينًا حريصًا عليها كان من المؤمنين حقًّا.

وعلى الرُّغم من ثقل عبء الأمانة التي آمن بها محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام والتزم بها تبشيرًا وإنذارًا ودعوةً وتحريضًا وإرشادًا أمام ربّه تعالى، آمن بها من بعده من آمن به ربًّا، وبمحمَّد رسولًا وبالكتاب رسالةً للكافة، وهذا الالتزام بحمْل العبء يعدّ طاعة لأمر الله الذي خَلق الإنسان في أحسن تقويم.

وفي مقابل ذلك لم يُوفِّق الكلّ في حمْلها، فكان التقصير من البعض، وكان الشّرك من البعض، وكان الظُّلم وقتل النَّفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكل أموال النَّاس بالباطل، وكان قول الزّور متمشيًا مع شهادة الزّور، وكان الزّنا مع المحرَّمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أنَّ الكل على هذه الشَّاكلة، بل هناك الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، وهناك الصَّالحون رضي الله عنهم؛ ومن هنا فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله؛ فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنَّه الرَّسُوخ والثبوت على الحقّ بقوَّة الحجّة.

وبما أنَّه لا أمان إلَّا منه؛ إذًا فالإيمان به هو الممكِّن من الإيمان منه، ولذا فمن أراد أمان الله عليه فعليه بالإيمان به وحده لا شريك له. والإيمان في هذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده ممّا يستوجب اللجوء إليه دون غيره؛ حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف.

محمَّدٌ تغزوه الحكمة وبها يغزو:

الحكمةُ لا تكون إلَّا من الحكيم جلَّ جلاله، وهي تؤتى منه لمن هو قادرٌ على أداء رسالتها وفقًا لما أعدّ عليه، والحكمة عندما تغزو العقول

تطمئن القلوب إليها درايةً واستنارةً، والحكيم على المستوى البشري هو من يجيد التفكير في الفكرة والقول ويُحسن التحليل والتعليل بدراية تامَّة ممّا يجعله إذا قال أصاب، وإذا فكَّر تدبَّر، وإذا خالفه أحد في رأي عاد إلى رأيه صوابًا، والحكيم هو من يعلم بحال الشّيء ويملك حقّ التصرُّف وفقًا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر، فهو الذي لا يتصرَّف إلَّا وفقًا للزَّمان والمكان والظَّرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحقّ أو فعل الحقّ الذي ينبغي أن يقال ويُحقّ.

ولأنَّ الحكمة لا تغزو إلَّا خيرًا، جاء أمر الدَّعوة إليها وبها محقّقًا لكل خير، وهي لا تؤتى إلَّا من الحكيم المطلق: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[277]، ولأنَّه هو المؤتي للحكمة لمن يشاء فقد آتاها لرُسُله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا أمر سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام أن يدعو إلى سبيل ربّهِ بالحكمة والموعظة الحسنة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}[278]، والدَّعوة بالحكمة تأكيد على أنَّ الدَّعوة المحمّديَّة هي دعوة لين ورحمة دون أيِّ إكراه مع فائق التقدير والاعتبار والاحترام لبني آدم المستهدفين بالدّعوة.

277 - البقرة 269.

278 - النحل 125.

وبالحَكْمَةِ يتم التعرّف على أفضل ما يقال وأفضل ما يُفعل ويُعمل به ويسلُك دون أن تترتب أضرار عليه، ومن حكمةِ اصطفاء الله لسيّدنا محمَّد رسولًا خاتمًا وللكافة هو:

. التأكيد على أنَّ الله واحد.

. التأكيد على أنَّ الدِّين من عند الواحد واحد.

. التأكيد على أنَّ الرُّسُل كلهم واحد ولا فرق بينهم ولا يجب التفريق: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم}[279].

وعليه فالحكمة لا تستمد إلَّا من حكيم عليم، يعلم بالأمر وبحاله، وبما يجب أن يكون عليه قبل أن يكون؛ ولذا فالحكيم مصدر لكل معاني الحكمة ودلائلها التي بها يتم الاتعاظ وأخذ ما يجب أخذه وترك ما ينبغي تركه في المكان والزّمان المناسبين، ولهذا نقول: الحكيم هو من يعلم الأمور وأحوالها ويخبر عن الكيفيَّة التي يجب أن يتم التعامل بها ويهدي إليها، وهو من وضع المعايير لما ينبغي أن يقال ويدرك ويؤخذ به ويفعل بكل تفهُّم، وبهذا تكون الحكمة تقنيًنا للكلمة والجملة كي لا تخرج عن السّيطرة المنطقيَّة التي بها تعقل

279 - البقرة 135 - 137.

الحقّائق وتدرك وتُفهم وتتهيَّأ للامتداد من عقل لعقل حتى تغزوه، ثمَّ تترك الأثر الطّيب الذي يولِّد المعلومة من المعلومة ويرشد للحقّ.

وعندما تقال الحكمة قد يظهر الاستغراب لدى البعض، وقد يحدث الاستفهام ويطرح التساؤل وكأنَّها تحمل المفاجأة لأوَّل مرَّة، وبهذا يتمّ اقتباس الحكمة من قائلها، ويتم الاهتداء بها في صناعة المستقبل المأمول الأفضل والأجود والأحسن والأفيد والأنفع.

ومن هنا فالحكمة تستوقف العقل لتمدّه بما يدرك الحقّيقة دون تغليف، وهي تظهر الدّلالة في المعنى، وتفتح الآفاق أمام امتداد الفكرة من عقلٍ لعقلٍ.

والحكيم المطلق جعل في كل آية من آياته الكريمة حكمة تحتوي الإعجاز فيها؛ حتى تستوقف العقل وتلفته لما كان غافلًا عنه في الوقت الذي لم يكن يعتقد أنَّ الأمر كان كذلك، ومن كلِّ حكمة من حكم الحكيم المطلق تؤخذ حكم تغذي العقل وتطمئن النّفس وتحفِّز المؤمن على الإقدام تجاه ما يحقّق له الأمل. إنها المرشد للحقّ والنَّاهي عن الضَّلال والموقظ من الغفلة.

ولهذا فالأب الحكيم يكون طائعًا لوالديه في غير معصية الله، ويكون راعيًا لأبنائه وراشدًا لهم حتى الهداية التي تمدّهم بالتقوى وتعزَّهم بالطَّاعة لله تعالى، وتقوّي لحمتهم على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

ومن حِكم الحكيم المطلق ما هو معلوم وما هو مجهول، فالمعلوم منها هو المحمول في الآيات الكريمة في الكتاب الذي لا يدخله الباطل من خلفه

ولا من بين يديه، والمجهول منها هو ما نستدلُّ عليه استدلالًا بالفعل لا بالكلمة، فنحن بنو آدم لا نعلم لماذا علَّم أبانا الأسماء كلها واستخلفه في الأرض ولم يعلمها للملائكة الكرام واستخلفهم في الأرض؟

ألا يكون في ذلك حكمة لا يعلمها إلَّا هو؟

ونحن ننتقل من حكمة إلى حكمة نستدل على أن خلق الإنسان من تراب حكمة، وفي هذه الحكمة إثبات لقوَّة الأمر كن فكان أبونا آدم من التراب على أحسن التقويم حكمة، قال تعالى: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}[280].

وعليه فالحكمة تغزو بأربّع أو ببعض منها:

أ . بالقول تغزي الحجّة فتؤخذ، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[281].

ب . بالفعل تترسَّخ الحكمة فتُدرك، قال تعالى: {قدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}[282].

---

280 - الكهف 37.

281 - النساء 165، 166.

282 - المؤمنون 1 - 4.

ج . بالعمل تتجسد الحكمة فترُى، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[283].

د . بالسُّلوك تمتد الحكمة فتكوِّن القدوة، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[284].

وعليه: فإنَّ الحكيم لا يعاقب إلَّا عن حكمة، ولا يجازي إلَّا عن حكمة، ولا يغفر إلَّا عن حكمة، ولا يتوب على أحد إلَّا عن حكمة، ولهذا جاءت من وراء ما يدعو إليه الرّسُول الكريم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام حِكم كثيرة: فمن وراء الزّكّاة حكمة، ومن وراء الصَّلاة حكمة، ومن وراء الصَّوم حكمة، ومن وراء الحج حكمة، ومن وراء الجهاد حكمة، ومن وراء الدّعوة والتبشير والتحريض والإنذار حِكم، ومن وراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكم.

ومع أنَّ الله تعالى هو الحكيم المطلق الذي يؤتي الحكمة لمن يشاء، إلا أنَّ بالخبرة والعلم يمكن أن يتم نيل الحكمة طاعة لله تعالى؛ ولذا فالتفكُّر في

---

283 - التوبة 105، 106.

284 - الزخرف 23 - 25.

عظمة الله تعالى، وجلاله، وجبروته، وملكوته، وآياته في سماواته وأرضه يُمكِّن من معرفة الحكمة؛ وكذلك التفكير بالقلب عند الأمر والنهي، والامتثال بما أمر به، وترك ما نهى عنه يُمكِّن المؤمن من الفوز بالحكمة؛ والتذكر الذي يربط الحاضر بالماضي حتى تستمد العبر من قصص الأولين وتجاربهم في الحياة يُمكِّن المؤمن من الفوز بالحكمة.

ولأنَّ الحكمة تؤتى من الحكيم المطلق، كان في وحيِهِ تعالى لسيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام حِكم لا تُحصى، ومع ذلك لم يوحِ الله كل الحِكم لرَسُوله محمّد ولا لكل الرُّسُل، أي إنَّ الحِكم المطلقة لا تكون بالمطلق إلَّا للمطلق، أمَّا الحكم في دائرة الممكن والنسبيَّة تكون لمن خَلق: {ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ ربّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}[285].

---

285 - الإسراء 39.

الغزوُ حِكمٌ ومواعظ

لا يليقَ بعاقلٍ أنْ يغزو النَّاس لِسَلبِ ما عندهم أو الاستلاء على شيء منه، ولا يليق بالنَّاس أنْ يغزوا إنسانًا إذا لم يكن غازيًا، ومن هنا إذا أردت أن تكون غازيًا في مرضاة الله فعليك بالرّدِّ على كلّ غزوة، ولكن لا تغزو.

. خُلِقَ الإنسان في أحسنِ تقويم، ولا شيء يفسده إلَّا سوء خُلقه، فكن على حُسن خُلقك إنْ شئت أن تبقى على حُسن خَلقك.

. تزويرُ الحقائق مظلمة، فلا تشهد زورًا، ولا تُنكر حقيقة، فإنْ فعلتها لا تستغرب إنْ جاءك يومٌ يكون فيه شهود قضيتك شهودٌ ضدّك، وحينها لا داعي لأن تلتفت إلى الوراء؛ إذ لا ساند من خلفك.

. التأدُّب قيمة حميدة، لا يقدر عليها إلَّا رفيع شأن، فإن أردت رِفعَةَ شأن فليس لك إلَّا التأدُّب.

. لا تتعصَّب لرأيك، ورأيُكَ لا تسنده الحُجَّة، بل تمسك بالحجّة إنْ كان لك رأيٌ.

. تمسّك بحقّك ولا تعتدِ على حقّوق الغير، فإنْ اعتديت عليها فلا تستغرب إنْ حَال المطالبون بحقوقهم بينكَ والنَّوم.

. مع أنَّ الماء يُطفئ النَّار، فإنَّ أكلَ مال اليتيم إنْ شبَّت ناره في أحدٍ؛ فلا ماء يطفؤها.

. قدِّم الحسنةَ على السَّيئةِ، وقدّم الحقَّ على الباطل، قبل أن يأتي يومٌ تلاحقك فيه السَّيئة والباطل وأنت بين فكيهما مثل الشعير بين فكّي الرَّحى، ليس لك إلَّا الطَّحن ويومها لا داعي للنَّدم.

. الاستقامةُ في الحياةِ الدُّنيا تُدخل أصحابها الجنَّة؛ فعش مستقيمًا ترى الجنَّة أمام عينيك، ولكن إذا رأيت ظلّك معوجٌّ فتأكد أنَّ الاعوجاج فيك.

. لا تكلِّف نفسكَ فوق وسعِها، فإنْ كلَّفتها، أطبقت الدُّنيا عليك وأُغلِقت كلّ المخارج، وفي المقابل إنْ أطلقت لها العنان بلا جَوامح فلا لوم إلَّا عليك.

. لا تحْمِل غِلًّا على أحدٍ، حتى لا تُغلَّ به مِنَ أحدٍ، فالغلُّ نارٌ وحطبه الحقدُ، وإن طهَّرت نفسك من ذنبهِ كنت السَّعيد وغيرك الحطبُ.

. الوعدُ حقٌّ، فلا تخالفه، فإنْ خالفته، لن يبقي بين يديك من حبَّات المسبحة إلَّا حبَّاتُ باطلٍ.

. إذا فُعل بك إثمٌ تأكَّد أنَّ ذنبهُ لا يعود إلَّا على فاعله، وإنْ فُعِلتْ بك حسنةٌ فالأجر مضاعفة لا يعود إلَّا على فاعلها، وفي كلتا الحالتين لا شيء يعود عليك سوى غضبٌ في الأولى إذا لم تتمالك نفسك، وسرورٌ في الثَّانية إذا أطلقت لها الِّلجام.

. إذا أردت رشادًا ابتعد عن سُبُلِ الغي، وابحث عن المستقبل ارتقاءً، ولا شيء نصب عينيك غير الاستقامة.

ـ لا تتسفَّه على أحدٍ؛ فالسَّفاهةُ منزلةٌ دونيَّةٌ، ولا يستظلُّ بها إلَّا دوني؛ فإن أردَّتَ رفعة شأن فلا تستظل بها؛ ذلك أنَّ المستظلين بها لن يحصدوا شيئًا إلَّا ما زرعوا.

ـ تمسَّك بعهدٍ قطعتهُ على نفسك، حتى تكتشف زيفه، فإنْ اكتشفت زيفه؛ فعليك بالتغيير قبل أن ينعتك الغير ويصفك بأنَّك عملة مزيَّفةٌ.

ـ المخادعةُ ليست مِن شِيم الرِّجال، ولا من صُنعهم، فإنْ أردَّت الاتصاف رُجولةً فلا تُخادع؛ وإنْ خادعت فلا تغضب إن وصفوك بها مخادعًا.

ـ التكبُّر على الحقِّ نقيصة، فلا يُنعت بها إلَّا ناقص، والتكبّر بالحقِّ رفعة لا ينعت بها إلَّا رفيع شأن.

ـ إذا كنت كفيلَ شخصٍ ولم يؤدِّ ما كفلته فيه؛ فعليك بأداء ما كفلته وإلَّا لا فرق أمام القيم بين الكافل والمكفول.

ـ إذا أردتَ أنْ تكون قدوةً حسنةً فأعمل المزيد من الحسنات، وقل بين النَّاس ما يليق بالنَّاس، وأعمل على جمعهم ولا تعمل على الفُرقة.

ـ إذا أردتَ مزيدًا مِنَ الخيرِ فَكُنْ قاضيًا على نفسك، وأحكم بإبطال الشَّرِّ فيها، حتى تَصلُح أحوَالَهَا أمام النَّاس، ومن ثمَّ فلا أحدٌ يقدِّمُ الطعنَ فيها.

. إذا أردتَ مزيدًا مِنَ النّور فعليك بتقوى الله، وإذا أردت أن تُكسِّرَ الجهل فعليك بجبّر العلم، وإذا أردت أنْ تَقهُرَ الأميَّة فعليك بتعزيز سُبل الدِّراية، وإذا أردتَ أن تسدَّ سبيل الضَّلال فعليك بفتح سُبُل الرَّشاد.

. إذا أردتَ مزيدًا مِنَ الحسنات فعليك بمخالطة أهل الحسنات، وعليك بإصلاح ذات البين، وعليك أنْ تُراقِبَ نفسك وتعمل على تقييمها في الكبيرةِ والصَّغيرةِ، وأنْ لا تتأخَّر عن تقويمها متى ما حادت.

. إذلالُ الرِّجالِ نقيصةٌ، فلا يتَّصف بها إلَّا ناقص؛ أمَّا الرِّجال مع الرِّجالِ رجالُ.

. إذا أردتَ أنْ لا يأتي يوم وفيه يُسخر منك، فلا تَسْخَر من الغير، وإذا وجدت نفسك غاضبًا يوم السُّخرية منك، فأعلم أنَّ التَّاريخ إذا قَبِلَ مَنْ قَبِلَ بتزويره سيأتي من ينفض الغبار عنه.

. لا تَلعن أحدًا لم يقترف ذنبًا، فإنْ لعنته تأكّد أنَّه قد أخزاك مرات ولو كان في صدرهِ سرًّا.

. إذا رأيت إنسانًا يكادُ أنْ يغرق في ذنبه فلا تزيِّنهُ له، بل أعمل على إنقاذه، وإلَّا ستجد نفسك في ذنبه الغارق.

. كُلْ مِن حَلالك ولا تُسرف، وتأكَّد أنَّه كلَّما ازداد إسرافك ازدادت الأثقال على كاهلك.

. اللَّهوُ عندما يكون على حِساب الفضائل الحميدة لا يكون إلَّا مفسدةً؛ فلا تكن منغمسًا مع الفاسدين في اللهوِ، وطهّر نفسك مثل الثِّياب ولا تترك لها ذنبًا، فالعيب فيك إن تركته وأنت فيه منغمسٌ.

. إذا أردت أن تكون بعيدًا عن ضيق النَّفس؛ فتجنَّب كل ما يؤدِّي بها إلى الحسرات.

. الاستهزاء بالبشر تقليل شأن، فلا تستهزأ بأحدٍ ودائرة الممكن فيها المتوقَّع وغير المتوقَّع.

. لا تَسخر مِن أحدٍ وتعتقد أنَّ الأيَّام ستغطيك؛ فإنْ سَخِرت مِن أحدٍ فثق أنَّها الكفيلة بكشفِ عورتك ويا ليتك ما سخرت.

. إذا أردتَ أنْ تكون ثوبًا أبيض ناصعًا فأبتعد عن الخُبث حتى لا تشوه نفسك بالخبائث.

. لا تكن من الحاقدين فإنْ كنت منهم تأكَّد أنَّ نارَ الحقد أوَّل ما تأكلُ تأكُلُ صاحبها، أمَّا المحقود عليهم فنار الحقد لا يكتوون بها ولا يحترقون؛ ذلك أنَّ حطبها مثل ذلك الحطب الذي كانت ناره على إبراهيم بردًا وسلامًا.

. تعلَّم كيف تتعلّم حتى تدري وتستنير، ولا تقصُر تعلّمك على التعلّم الذي يدخلك للكتب ولا يخرجك منها.

ـ اللغْوُ نقيصةٌ فإذا غَمستَ نفسك فيه ولو لمرَّةٍ واحدةٍ، فلا مفرَّ لك مِن التشويه؛ فابعد نفسك عنه إذا أردت أن تبقى مثل الثَّوبِ الأبيضِ في عيونِ النَّاسِ.

ـ إذا أردت أن تصون نفسك، وأنْ لا تكون عورةً أمام النَّاس والسّفهاء يسخرون منك؛ فعليك الأخذ بمنظومة القيم التي يقدّرها الرِّجال ويقفون دونها.

ـ الفاحشةُ إنْ فُعلت بين النَّاس تشبَ مثل النَّار في الهشيم؛ فمن أراد أنْ لا تشب النَّار في ثيابه فلا يفعلها.

ـ إذا افترى أحدٌ عليك إفكًا وأنت لم تكن كذلك فلا تتحيَّر ولا تغضب؛ وتلك هي الحكمة.

ـ الأدبُ رأسُ مالٍ عظيمٍ فَمَن كَسِبه لا يدخل البيوت إلَّا من أبوابها ومن خسره ليس له بقاء إلَّا على الرَّصيف.

ـ رعاية الوالدين تساوي رعاية الأبناء؛ فمن ترك رعاية والديه فلا ينتظر رعاية من أبنائه.

ـ من أراد أن يكون وطنيًّا في بلاده فعليه أنْ يُميِّز بين تحيَّة الحكُومة وتحيَّة راية الوطن.

ـ مَن يُعظِّم الوطن في نفسه وقلبهِ يرى كلّ الألوان فيه، وإذا التفت إلى ما دونه من الأجسام فلا يراها إلَّا شركات صُغرى.

. إذا عرفت أنَّ الانحراف سُلوك جُناة فاعمل على الانحراف عنه حتى تعود إلى الصَّوابِ سالما.

. إنْ أردتَ أن تُصلح أحوالَ النَّاس فلا إمكانيَّة لإصلاح أحوالهم ما لم تبدأ مع النَّاس من حيث هم.

. إذا أردت أن تُحقَّ حقًّا فليس لك إلَّا الحُجَّة وإلَّا سيدمغك الباطل عاجلًا أم آجلًا.

. إذا أردت لنفسك نهوضًا فلا نهوض لها إلَّا بالنَّاس، وإذا أردت بالنَّاس دونيَّة وسُفليَّة فلا إمكانيَّة لك أن تصبح من العليين.

. إذا اتَّفقتْ الدِّول الكبرى عليك فاعترف بأنَّك صغير وابحث عن كبير لعلَّه يُنقِذك.

. ليس غريبًا أنْ يسقطك الخصم أرضًا، ولكن الغريب أنْ لا تهمَّ وتنهض.

. إذا ظننت أنَّ الطُّغاة إذا حكموا يُمكِّنون شعوبهم مِن مستقبلٍ باهرٍ وآمنٍ؛ فثق أنَّه لا مستقبل لشعوبِهم إلَّا المقابر؛ ومن ثمَّ فلا تُضِعْ وقتك في الانتظار، وعليك أن تدعو لهم بالرَّحمة.

إذا قبلت بطأطأة رأسك والرّؤوس تُرفع، فلا تلومن على من يراك واطيًا.

. إذا أردت حُرِّيَّةً ووجدّت نفسك بين خيارين: أنْ تمتلك الإرادة، أو أنْ تمتلك مدفعًا؛ فاترك المدافع في أسواقها المتعدِّدة، وخذ بالإرادة التي لا تباع في الأسواق.

. مِن حِكمةِ أهل الحكمة أنَّهم يعرفون أنَّ أفضل السبَّاحين قد غرق في البحر؛ ولذا فهم في حاجة إلى مَنْ يمدَّهم بمزيدٍ مِنَ الحكمة.

. اعلم أنَّ الصِّعابَ كفيلةٌ بهزيمة الكلّ إلَّا المتحدِّي لها صمودًا، فإنَّها أمامه لا تصمد؛ فكن متحديًا تأتيك الصِّعاب طائعةً.

. إذا أردت أن تكون زارعًا للخير ولك حصيد، فلا تبذر بذور زرعك في غير أهله، وإلَّا ستجد نفسك كمن يحرث ويزرع أمام أمواج البحر؛ دون أن يعلم أنَّ أمواج البحر وإن عظمت لن تروي له زرعًا ولن يجني من بعدها ثمرًا.

. إذا أردّت أن تُعظِّم قيم الحريَّة فأعطِ قيمة لمن يخالفك الرَّأي.

. إذا أردت أن تكون ناجحًا في حواراتك مع الآخرين؛ فاستمع أكثر مما تتحدّث؛ ولا تنسَ أنَّ لك أذنين وأنَّ الخالق لم يخلق لك إلَّا فمًا واحدًا.

. إذا دخلتَ منافسةً لإشباعِ الحاجات فلا تدخلها إن كانت من أجل إشباع حاجة جاشع؛ ذلك أنَّ كلَّ شيء يمكنك أن تسهم في إشباعه إلَّا الجشع فلا يُشبع.

. مع أنَّه من الممكن التخلُّص مِن المتعصِّبين، فإنَّه لا إمكانيَّة للتخلُّص مِن العصبيَّة.

ـ لا تَكُن حسودًا، بل كُن ودودًا تحب لغيرك ما تحب لنفسك، وإن لم تفعل فلن تجد لك مقبرة تقبر فيها سوى مقبرة الحسد التي لا يزيد قبرك فيها عن كونه حفرة من حفر جهنَّم، وفي المقابل إنْ فعلت الخير وأنت تحب لغيرك ما تحب لنفسك فستكون من الوارثين في الدَّارين.

ـ مع أنَّ الدِّين قيدٌ عليك وقيدًا لك؛ فإنَّه لا منقذ لك من قيود الغير غيره.

ـ إذا كنت ممن يسعون للاستقامة فتبيّن قبل أن تعمل وتفعل، وتجنَّب كل ما يؤدِّي بك إلى الانحراف، ولا شيئًا يرشدك استقامة وصوابًا مثل طاعة الله.

ـ إذا كنت تسعى لأخذ قدوة حسنة تلهمك الصَّواب، وترشدك إليه؛ فخير غزوة ترشدك إليه الأخذُ بما قاله رسُول الله (أسلم تسلم).

ـ إذا كان القتلُ بغير حقٍّ مِنَ الأعمال الشَّيطانيَّة؛ فإنَّه لا شياطين بين النَّاس إلَّا أهل الفتنة، ولأنَّ الفتنة من الأعمال الشَّيطانيَّة فهي الأشدُّ من القتلِ.

ـ إذا غَفِلتَ في حياتك مرَّةً وأنت تسعى ناهضًا فالكل يغفل، ولكن إذا غَفِلتَ أكثر من مرّةٍ بذات العلّة؛ فلا أمل أن تعود الفرص إليك وتنهض.

ـ إذا أردت الخروج من الأميَّة فعليك بأهل الدِّراية حتى تدري، وإذا أردت الخروج من الجهل فعليك بأهل العلم حتى تتعلَّم، وإذا أردت الخروج

من الضَّلال فعليك بأهل الهداية حتى تهتدي، وإذا ضاقت الدُّنيا عليك فتوجّه إلى الله تتسع.

ـ الاختلاف تنوَّع، ولا وِفاق بدونه، والخلاف فرقة ولا صدام إلَّا به، وبين هذا وذاك بالاختلاف توثّق العُرى، وبالخلاف تنفصم؛ فكن بين المختلفين شمعة بين الشُّموع، وبين المتخالفين حُجَّة بين الحُجج.

ـ في حالة اللبس والغموض تدبّر الأمر قبل أنْ تتخذ قرارًا، وإلَّا ستجد نفسك في التِّيهِ، وفي حالة البيِّنة والاستجلاء تقدَّم، وإلَّا سيسبقك الغير وتصبح متخلِّفًا.

ـ مع أنَّ الحيرة مُدهشة، فإنَّهُ لا خروج من المدهش إلَّا من بعد حيرة؛ فإن كنت باحثًا فاصبر على الحيرة فهي سلَّة المفاتيح.

ـ مع أنَّ التسوّل ظاهرة مُقلقة، فإنَّ المتسولين وإن انكسرت أنفسهم عند الطَّلب ليسوا بالسرَّاق المقلقين.

ـ مع أنَّ حُسن الإنفاق من حُسن التدبُّر، فإنَّه لا تدبُّر إلَّا من بعد تذكُّر، ولا مستقبل إلَّا من بعدهما معًا؛ فإن تذكَّرت خيرَ المواعظ اتعظت تدبُّرًا، وإن غفلت عن ذلك فسوء التبذير فيهِ من المؤلمات ما فيه.

ـ لا تتكبّر بِمُلكٍ أخذته عنوة، ولا تتبجّح بمالٍ مسروق أو منهوب، ولا تتفاخر ببنينَ في غير مرضاة الله، بل تواضع بما آتاك الله من مُلكٍ، وتصدق بما أعطاك الله من مالٍ، وكن قدوة بما رزقك الله من بنين، وإلَّا ستجد نفسك عاريًا بين النَّاس منعوتًا.

. إذا تعلَّمت لا تَقُل: أنا عالم، وإذا زكّيت لا تقل: أنَّا مزكٍّ، وإذا صلّيت لا تقل: أنا مصلٍّ، وإذا كنت صادق القول فلا تقل: أنا صادقٌ، بل اترك الأمر لله يزكيك.

. كن متواضعًا بين النَّاس يضعك التواضع تاجًا فوق الرّؤوس.

. إذا خُيّرت بين خوفٍ وجبنٍ؛ فعليك بالخوف؛ لأنَّه المنقذ للرِّجال، أمَّا الجبن فلا يزيد عن كونه مقبرة للجبناء.

. لا تتنكَّر للجميل، بل ضعه بين عينيك دَينًا حتى تُسدّده، وإنْ لم تفعل ستلاحقك اللاعنات حتى تُقبر فيها.

. إذا أردت ألَّا يُحيق بك مكرٌ ولا تُكاد بكيدٍ فلا تكونَ من الماكِرينَ والكائدين؛ وتذكر أنَّ مكر الله وكيده أعظم.

. ثق في نفسك عندما تثق في حُجَّتك، واسحب الثِّقة من نفسك عندما لا تكون بين يديك الحُجَّة.

. من أصول الحوار: إنْ اعتبرتني أعتبرك، وإنْ لم تعتبرني؛ فلا تنتظر منّي اعتبارًا.

. ومن أصول الاستيعاب: إنْ استوعبتني أستوعبك، وإن أقصيتني فلا تلمني إذا تطرّفتُ عنك، وتخندقت بعيدًا لأخذ الحيطة والحذر، ومن ثمّ اغتنام فرص الانقضاض.

ومن أصول التقبُّل: إذا تقبلني كما أنا عليه، أتقبّلك أنت كما أنت عليه، وإن لم تتقبلني أنا كما أنا، فكيف لي أن أتقبلك أنت كما أنت.

. ومن أصول الاعتراف: اعترف بي، أعترف بك، وإن أنكرت وجودي طرفًا رئيسًا، سأنكر وجودك طرفاً يماثلني.

. ومن أصول التفهُّم: تفهّم ظروفي أتفهّم ظروفك، وإن لم تتفهّم ظروفي لا تنتظر منّي تفهُّمًا.

. ومن أصول التقدير: قدّرني تنل التقدير منّي، وإنْ لم تقدّرني؛ فلا تقدير لك عندي.

. ومن أصول الاحترام: احترمني أحترمك، وإنْ قللت شأني فلا تظن إنَّك ستنال الاحترام منّي.

. ومن أصول غرس الثّقة: إنْ قرّرت أنْ لا تغرس الثّقة فيّ، فلا تلمني إن سحبت الثّقة منك بعد أنْ غُرست.

. ومن أصول المواطنة: (يا أهل الوطن الكرام، إذا أردتم حِكمة تُنَاورُون بها من أجل وطنكم هويَّة وسيادة؛ فلا تناوروا بتلك المعطيات التي قُبِرتْ مع عنترة، وإذا أردتم صُنع تاريخ فلا تُدِيرُوا العجلة إلى الخَلفِ، وإذا اردتم ماءً فلا تَجْرُوا خَلْفَ السَّراب، وإذا قبلتُم بحني ظهوركم ساجدين لغير الله فلا تلوموا راكبيها، ولن تستطيعوا من بعدها رفعَ رؤوسكم، وإذا أردتم كرامة وطنيَّة فلا تظلوا ساكنين تحت مظلَّة: (الثَّورة مستمرّة)؛ لكي لا تكونوا مستسلمين للعصا الطَّويلة التي يومَئ بها على رُّؤوسكم وأنفسكم منكسرة، وإذا أردتم الحريَّة فعليكم بمحو تلك المقولة من رؤوسكم: أنا ومن بعدي الطّوفان).

. إذا أردتَ أنْ توصف بالشَّخصيَّة الوطنيَّة؛ فعليك أنْ تُميِّزَ بين تحيَّة الرَّاية الوطنيَّة، وتحيَّة الحُكومة، وإذا لم تستطع؛ فإنَّك كمن لا يميِّز بين البصير والأعمى.

. إذا أردت أن تكون صاحب رأيٍ؛ فتبيَّن ما استطعت من الآراء قبل أن يسقطك رأيًا ولا رأي لك في إسقاطك.

. إذا أردت نهوضًا مأمولًا فلا تلتفت إلى ذلك المجرَّب سُفليَّةً وتعود إليه أملًا، فإن عدَّت إليه أملًا فسيكون نهوضك كمن يأمل نهوض الأموات من قبورهم.

. إذا خُيِّرت بين أنْ تكون صادقًا مع النَّاس أو أنْ تكون صادقًا مع نفسك؛ فكن صادقًا مع نفسكِ حتى تكون صادقًا مع النَّاس.

. مع أنَّ من مكارم الأخلاق أنْ يُصدَّق القائل في قوله، فإنَّ الأخذ بما يُسمع عن غير دراية، قد يضع عبئًا من الذُّنوب على ظهر المستمع إليه.

. إذا تربَّع واهمٌ على رأس الدَّولة فمهما تعدّدت هزائمه فيها فلا يعدَّها إلَّا انتصارات، وهذه لن تنتهي حتى تُصبح الدَّولةُ في عهده واهمة.

. إذا تربَّعَ طَاغيٌ على قمَّةِ سُلطان الوطن، فإنَّ أرض الوطن ستكون طاردة، وستكون سماؤه ملبّدة بالغيوم الغباريَّة، نهاره بلا شمس، وليله بلا قمر، وكلّ شيء فيه يتبدَّل؛ الجار فيه لا يوصي خيرًا بجاره، والمعلّم لم يعدْ قدوة حسنة لطلابه، والشَّيخ لم يعد مؤهّلًا للمشيخية، والفارس لم يعد يركب الجياد، والزَّعامة فيه لغير أهلها، والشَّهوة رأس مال قمّة سُلطانه.

ـ اصبر فالصَّبرَ مفتاحُ الفرج، ولكن لا تصبر على ذلٍّ، ولا على ظلمٍ، بل صبر على الحقّ عندما تكون صاحبه، واعمل ما تستطيع صبرًا حتى تُخرجَ نفسك مِنَ التأزُّمات وتبلغ ما تأملهُ فتناله وتفوز به حقًّا في مرضاة الله.

ـ الحياة الدُّنيا مع أنَّها دُنيا فهي مدرسةٌ، ودخولها بلا اشتراطات، وبعد الدُّخول إليها معرفةً تُقدَّم لك القيود، فإنْ قبلت بها قيَّدت نفسك، وإن لم تقبل بها ستجد نفسك مقيدًا من الغير.

ـ مع أنَّ الحياة الدُّنيا مدرسةٌ مليئةٌ بالقيودِ، وكلَّها امتحانات؛ فإنَّ نتائج الامتحانات فيها لا رسوب فيها، بل النتائج المترتّبة عليها (ثواب وعقاب)، فإنْ أحسنت فيها عملًا ستكون مع العلِّيين، وإنْ أسأت فيها عملًا فليس لك إلَّا دونيَّةً وسُفليَّة.

ـ الحياة الدُّنيا دارُ عملٍ فمَن عَمِلَ فيها صوابًا يُجزَ به، ومَنْ عمِل خطيئة فبها يجازى، ومع أنَّها دار الامتحان، فالإجابة فيها دائمًا تسبق السُّؤال؛ ولهذا كان الأنبياء والرُّسُل يبعثون مسبقًا بكل الإجابات الممكِّنة من النَّجاح المشرِّف لأهله يوم يلاقون ربَّهم.

ـ مع أنَّ غرس الثِّقة مبدأ وثوقيّ فإنَّه بين الحينة والأخرى يُنقض؛ فلا تستغرب، وثق أنَّ الثِّقةَ مهما عَظُمت فحالها مثل الوضوء لا ثقة إلَّا في تجديده، ومن يخالفك هذا الأمر فقل له: لكي يطمئن قلبي.

ـ إذا أردَّت تحدِّي الصِّعاب فعليك أوَّلًا: بالسَّير صعودًا من خلال المسارب الصَّاعدة إلى القمم، وثانيًا: عليك بالسّير من خلال الطُّرق

الممهدة، أمَّا إذا انقلبت عندك القيم رخاوةً، فلن تجد لك مقعدًا للجلوس عليه مع أولئك الجالسين على القِمم.

(اللهمَّ اهدِ مَن كفر بالحقِّ إلى الحقِّ، حتى يعود إليهِ كافرًا بالباطلِ).

المؤلّفُ في سطورٍ

. أ د. عقيل حسين عقيل

. مواليد ليبيا 1953م

. بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الترتيب الأوَّل جامعة الفاتح (طرابلس).

. معيد بكليَّة التربية طرابلس قسم الخدمة الاجتماعيَّة 1977م

. ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة 1992م.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين عام اتحاد الطلبة بمحافظة سبها 1970 – 1972م.

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشَّعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلِّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشَّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (202) مؤلّفا منها سبعة موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشريَّة.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (202) مؤلّفا منها: سبعة موسوعات، وهي:

1 . الموسوعة القِيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

2 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

3 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

4 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

5 . الموسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

6 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

7 . موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (18مجلَّد).

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه بالداخل والخارج.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشريَّة.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسِّياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلَّفات باللغة الإنجليزيَّة، والتركيَّة.

المؤلَّفاتُ المنشورة

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفيَّة لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربيَّة للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيميَّة معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجيَّة القِيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القِيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجيَّة القِيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31. إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33. يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

34. داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التَّطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمة وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبُّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرَّفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرَّار وحقَّائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السّياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنيَّة بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنيَّة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشريَّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصَّائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التَّأزُّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيَّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثِّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 –كيفيَّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التَّطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطَّريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظُّلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التَّأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطَّريقة العلميَّة لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشَّيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 - موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172– الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173– النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السَّابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدَّور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيُّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

188 – الاستنارة (من الاستظلام إلى الاستجلاء)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

189 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (من إنجاز الأهداف إلى نيل المأمولات)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

190 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (المستويات القِيميَّة للتحليل العلمي)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

191- الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الأهداف المهنيَّة وإحداث النُّقلة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

192 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (تحدي الصِّعاب يمكن من بلوغ الغايات)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

193 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

194 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (التطرف بين المعلومة الخاطئة والمعلومة الصَّائبة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

195 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

196 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

197 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

198 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (المبادئ القِيميَّة لرعاية الأفراد وتنظيم المجتمع)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

199 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (طرق متساندة مترابطة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

200 – موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

201 . الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م.

202 . أرسول ويغزو؟!مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.